الجمهورية الجزائرية الديموقراطية الشعبية

وزارة التعليم العالي والبحث العلمي


جـــامعة الأميـــر عبد القادر للعلـــوم الإسلاميـــــــــة قسنطينة

كلية أصول الدين والشريعة والحضارة الإسلامية

قسم الكتاب والسنة


الرقم التسلسلي ..../2002

رقم التسجيل.....

# نماذج من السنن الاجتماعية من خلال القرآن الكريم

بحث مقدم لنيل درجة الماجستير


من إعداد الطالب : عبد القادر حيقة

المشرف :د/مولود سعادة


| أمام اللجنة : | الاسم و اللقب | الرتبة | الجامعة الأصلية |
|---|---|---|---|
| الرئيس | مراد زعيمي | أستاذ محاضر | جامعة عنابة |
| المقرر | مولود سعادة | أستاذ محاضر | جامعة الأمير عبد القادر |
| عضو | رمضان يخلف | أستاذ م.م.د | جامعة الأمير عبد القادر |
| عضو | منصور كافي | أستاذ محاضر | جامعة الأمير عبد القادر |

نوقشـــت يـــوم :18 ذي الحجـــة 1422 هـــ/2002/03/02.م


جامعة الأمير عبد القادر للعلوم الإسلامية

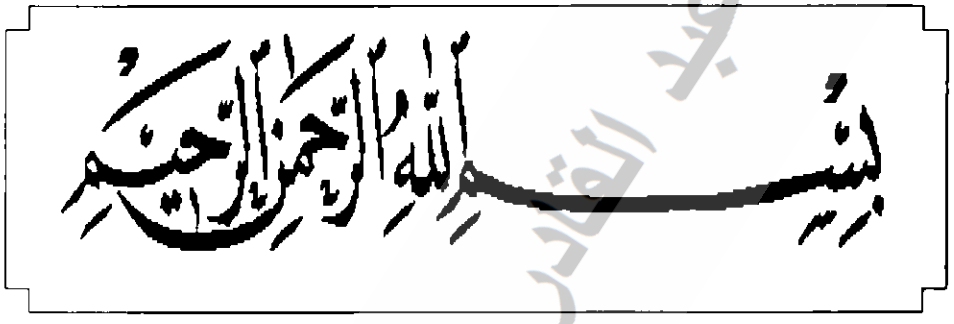


جامعة الأمير عبد القادر للعلوم الإسلامية

## شكر وتقدير

لا يسعني في هذا المقام إلا أن أتوجه بالشكر والتقدير إلى فضيلة الدكتور المشرف "مولود سعادة " على كل ما قدمه لي من توجيهات وإرشادات دون غيري إلا أن أرفع أكف الدعاء سائلا الله أن يمده بالعون ويبارك له في رزقه وولده وعمله ومن قبيل الاعتراف بالجميل أتوجه بالشكر على ظاهر الغيب إلى فضيلة الدكتور مساعد مسلم آل جعفر الذي قبل الإشراف على بحثي قبل أن يرحل عنا .

ولا يسعني أيضا إلا أن أتوجه بالشكر الجزيل إلى إدارة الجامعة وبصفة خاصة إلى كلية أصول الدين والشريعة والحضارة الإسلامية وبصفة أخص قسم الكتاب والسنة ومجلسه العلمي والى جميع العاملين سائلا الله لهم التوفيق والسداد إنه سميع مجيب.

جامعة الأمير عبد القادر للعلوم الإسلامية

# الإهداء

إلى أمي رمز الحنان والطهر والعفاف..
إلى أبي رمز الأنفة والقوة والتحدي..
إلى اخوتي شموع المستقبل وأمل الحياة..
إلى من يحمل تباشير الخير والفرحة على وجهه
"أبي الخير"
أهدي باكورة عملي وثمرة جهدي وجهادي
ابنكم وأخوكم عبد القادر

جامعة الأمير عبد القادر للعلوم الإسلامية

# المقدمـــــة

جامعة الأمير عبد القادر للعلوم الإسلامية

الحمد لله رب العالمين والعاقبة للمتقين والصلاة والسلام على خير خلق الله أجمعين وعلى آله وصحبه ومن اهتدى به إلى يوم الدين .

الاجتماع البشري مهما اختلفت مشاربه ، وتنوعت عناصره، فهو في تكوينه وانحلاله في تطوره وتأخره ، في حضارته وبداوته ، لا يسير هملا أو مصادفة ، وإنما يخضع لنواميس و قوانين ثابتة لا تتغير ولا تتبدل، أشار إليها القرءان الكريم بكلمة السنة والسنن.

ما حقيقة هذه السنن؟ كيف تعمل وكيف تسير؟ وهل لها ذات الخصائص والسمات التي يتميز بها القانون الكوني ؟ وما الفائدة التي نجنيها من خلال معرفتنا لها؟.

مما ينبغي تأكيده أنني لست مبتدعا في هذا العمل فقد سبقني إليه العديد من الباحثين و على رأسهم الأئمة الأعلام ، علماء التفسير الأقدمون منهم والمحدثون ، وذلك من خلال تعليقاتهم على الآيات القرءانية التي جاءت في معرض تقرير حقيقة هذه السنن أذكر منهم العلامة " إبن جرير الطبري ، محمد عبده ، وابن باديس ، وغيرهم ممن تناولوه بالشرح والتحليل. " ، ومن المعاصرين من أمثال الدكتور "عماد الدين خليل والنعمان عبد الرزاق السمرائي وغيرهم، ممن طرقوه من الجانب التاريخي مما جعل كتاباتهم أقرب إلى فلسفة التاريخ منها إلى التفسير ، ولذلك فالكتابة في هذا الموضوع بالكيفية التي جاءت عليها هذه الرسالة قليلة وقليلة جدا، اللهم إلا ما كتبه الأستاذ "محمد باقر الصدر" في سلسلة محاضراته التي كان يلقيها على طلبته ، أو ما أشار إليه الدكتور "عبد الكريم زيدان" في كتابه السنن الإلهية في الأمم والجماعات والأفراد.

كانت كتب التفسير والتاريخ وعلم الاجتماع معيني الأول في إنجاز هذه الرسالة، فكنت أعود في الرأي الواحد إلى أكثر من تفسير ، فأخذت من المأثور و الرأي بحسب الحاجة و ما يقتضيه الموضوع ، وإن كانت كتب الرأي هي السمة الغالبة على الرسالة نظرا لطبيعة الموضوع.

أما كتب التاريخ فكنت أعود إليها لتسليط المزيد من الإيضاح على الوقائع و الأحداث التاريخية و معرفة المزيد على المجتمعات و الحضارات و الأقوام التي وردت في القرآن الكريم على سبيل الإجمال ، فعدت إلى البداية و النهاية لابن كثير و الكامل في التاريخ لإبن الأثير ، و تاريخ الأمم و الملوك لابن جرير الطبري و غيرها من الموسوعات الإسلامية التي ذكرت في ذيل هذه الرسالة ، ومن الموسوعات التاريخية الأخرى عدت إلى تاريخ

الحضارات العام لموريس بوكاي ، وقصة الحضارة لول ديورانت ، وتاريخ البشرية لتونبي، وسقوط الحضارة لشبنجلر ...أما علم الاجتماع فتناولت العديد من الدراسات والمباحث و خاصة تلك التي تناولت موضوع التغير الاجتماعي و حركة المجتمعات البشرية.

اعتمدت في معالجتي لموضوع هذه الرسالة على جملة من المناهج أوجزها فيما يلي:

1 ــ المنهج الاستقرائي : وذلك بتتبع النصوص القرءانية و الأحاديث النبوية التي تناولت بالعرض و التحليل المجتمعات البشرية و جملة الظواهر الاجتماعية التي تشير إلى وجود السنن و طبيعة عملها ، و كذلك تتبع حركة المجتمع الإنساني من خلال الوقائع و الاحداث التي خلدتها كتب التاريخ و الموسوعات التاريخية بدء ببداية الحياة إلى نهايتها.

2 ــ المنهج التركيبي :و ذلك بتحليل المعطيات الاجتماعية و التاريخية الواردة في القرءان الكريم و الخروج من خلالها بالتصور العام الذي يعرضه القرءان ،يتجلى هذا المنهج بصفة خاصة في تحديد المدلول القرءاني للسنن .

3 ــ المنهج المقارن :وذلك بمقارنة ما ورد في القرءان الكريم من حقائق وما أوردته المدارس التاريخية و السوسيولوجية لاعتقادي أن صحيح العقل لا يتعارض مع صريح النقل كما ورد ذلك عن علمائنا الأجلاء ، و هذا كما سنحت الفرصة لذلك .

جاءت هذه الرسالة في خمسة فصول و مقدمة وخاتمة .

تناولت في الفصل الأول مفهوم السنة الاجتماعية ، و ذلك في اللغة ، والاصطلاح ، حددت المدلول القرآني لها ، و قارنت سماتها وخصائصها بالقانون الكوني ومدى مطابقتها له إلى غير ذلك من المباحث ، فهذا الفصل بمثابة المنطلقات والأسس التي ابتنيت عليها هذه الرسالة ، لذلك عنونته بالسنة الاجتماعية "تحديد المفاهيم"، أما الفصول المتبقية فهي دراسة لجملة من السنن الاجتماعية،خصصت الفصل الثاني منها لسنة التغير تناولت من خلاله مفهوم التغير بمجالاته ، و المظاهر التي يبرز عليها، و الطابع الشمولي الذي يضيفه القرءان على هذه السنة .

تناولت في الفصل الثالث سنة التدافع ، تطرقت فيه إلى مفهوم التدافع حقيقته على أرض الواقع بمجالاته ... من خلال ما ورد في القرءان الكريم ، مقارنة بما تراه المدارس التاريخية و الاجتماعية ...

أما الفصل الرابع تناولت فيه سنة التداول حددت فيه معنى التداول ، نظرة القرءان له و أنواعه ، كما تعرضت بالشرح و التحليل لظاهرة التداول الحضاري .

أما الفصل الخامس و هو الفصل الأخير فتعرضت من خلاله لمفهوم التسخير و علاقة الإنسان بالطبيعة ، ووظيفة الإنسان في الحياة والهدف من وضع المسخرات تحت إمرة الإنسان وتصرفه إلى غير ذلك من المباحث ...

أما الخاتمة فتناولت فيها النتائج التي توصلت إليها والمقترحات التي ارتأيت أن أقدمها للباحثين والدارسين .

وكغيري من الباحثين "المبتدئين "فقد واجهتني عدة عراقيل وصعوبات وأنا أنجز هذا البحث أوجزها فيما يلي :

1 - إن الكتابة عن كتاب الله من الصعوبة بمكان سواء أتعلق الأمر بشرح وتحليل جزئية من جزئيات القرءان أو تأكيد لبعض قضاياه،لما يتمتع به القرءان من قداسة وهيبة.هذا الأمر ،جعلني أتنازل عن الكثير من الآراء مخافة أن أحمّل النص القرءاني ما لا يحتمل،أو أدخل من الآراء ما ليست منه بحجة البحث العلمي أو الموضوعية العلمية ، فكنت في العديد من المرات أعاتب نفسي و ألومها لماذا لم أختر موضوعا و عنوانا آخر بعيدا عن القرءان الكريم ؟ مخافة أن أقول في كتاب الله برأيي لا أجد جوابا له بين يدي الله سبحانه وتعالى ، وكل ما هممت بأمر إلا وارتسمت أمامي المقولة المأثورة عن علمائنا أي أرض تقلني وأي سماء تظلني إن أنا قلت في كتاب الله برأيي...» ولعل هذا هو العذر الذي دفع بالباحثين إلى تجنب البحث أو الكتابة في علوم القرءان .

إن موضوعا كهذا ينطلق من الماضي ليحكم المستقبل لا يمكن لبحث مثل هذا أن يلم بجميع جزئياته مهما أوتي الباحث من وسائل وتقنيات .

2- السنة الاجتماعية ليست كالسنة الكونية وهذا لارتباطها بالغيب ،ذلك لأن الاجتماع البشري يخضع في ماضيه و حاضره ومستقبله لهذه السنة ، والماضي والمستقبل غيب لا يعلمه إلا الله ، هي مرتبطة إذن بالغيب في شقيه الماضي والمستقبل ومهما أوتي الإنسان " الباحث " من وسائل البحث والاستنباط والدراسة لن يصل إلى معرفة حقيقة الماضي فما بالك بالمستقبل ، لذلك ظلت الأبحاث الإنسانية المتعلقة بالإنسان الأول مجرد تخمينات ورجم بالغيب ، تصطدم مع حقائق القرءان و مقررات الأديان .

رغم هذه الصعوبات والعراقيل فقد وفقني الله إلى إتمام هذه الرسالة فجاءت على هذا الشـــكل، إني لا أدعـــي الإحاطة بجميع جزئيات وتفاصيل هذا الموضوع غير أنني بذلت قصـــارى جهدي لان أضع بين أيدي أساتذتي الكرام نموذجا لدراسة قرءا نية لست مبتدعا فيهـــا فقد سبقني إلى هذا النوع من الدراسات العديد من الباحثين و المهتمين بالدراسات الإســـلامية أذكـــر منهم الدكتور " محمد التومي " في كتابه المجتمع الإنساني في القرءان ، والدكـــتور "يوسف القرضاوي " في كتابه الصبر في القرءان الكريم ، و"كاضم ياسر " في كتابه الطبيعة في القرءان الكريم ، و"الشيخ الغزالي " في كتاباته المختلفة...

وأخـــير أشكر كل من قدم لي يد المساعدمن قريب أو بعيد لا يتسع المقام إلى ذكر أسمائهم سائلا الله أن يأجرهم ويسدد خطاهم وأن يحفظ الجامعة الإسلامية من كل سوء ويجعلها ذخرا للإسلام ولمسلمين إنه سميع قريب و صل اللهم على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه آمين .

جامعة الأمير عبد القادر للعلوم الإسلامية

# الفصـــل الأول : السنة الاجتماعية

## (تحديد المفاهيم)

تعريف السنة .

أنواع السنن .

خصائص السنن الاجتماعية في القرآن الكريم

جامعة الأمير عبد القادر للعلوم الإسلامية

**تمهيـــد :**

إن المتأمل في كتاب الله عز وجل يقف على العديد من الآيات القرآنية التي تناولت المجتمع الإنساني تدعوا الإنسان عموما والمسلم على وجه الخصوص إلى السير في الأرض وتتبع آثار الماضي ومحاولة استكشاف تاريخ الاجتماع البشري وبداية الحياة، والملفت للانتباه أن آيات القرآن تجعل للحياة الاجتماعية لبني الإنسان والمجتمع جملة من القوانين والسنن تحكم سيرها،ما حقيقة هذه السنن وما طبيعتها وما معنى كلمة ومصطلح السنن؟

**أولا : تعريف السنة :**

جاء في لسان العرب : [ أن سنة الله أحكامه وأمره ونهيه .. سنها للناس ، بينها ووضحها " سُنَّةَ اللهِ فِي الذِينَ خَلَوا مِنْ قَبْلُ " [1] أي سن الله ذلك في الذين نافقوا الأنبياء ، والسنة السيرة الحسنة أو السيئة وسننتها سننا واستننتها وسنت لكم فاتبعوها ، وفي الحديث : " مَنْ سَنَ فِي الإِسْلامِ سُنَةً حَسَنَةً فَلَهُ أَجْرُهَا وَأَجْرُ مَنْ عَمِلَ بِهَا وَمَنْ سَنَ سُنَةً سَيِئَةً يُرِيدُ مِنْ عَمَلِهَا لِيُقْتَدَي بِهِ ..." ] [2].

وجاء في التهذيب أن السنة : "هي الطريقة المستقيمة ولذلك قيل فلان من أهل الطريقة المستقيمة المحمودة وهو الطريق ، ويقال للخط الأسود على متن الحمار ، والسنة هي الطبيعة ..." [3].

ويذهب محمد عبده إلى أن " السنن جمع سنة وهي الطريقة المعبدة والسيرة المتبعة أو المثال المتبع قيل : إنها من قولهم سن الماء إذا والى صبه فشبهت العرب الطريقة المستقيمة بالماء المصبوب فإنه من توالي أجزائه على نهج واحد يكون كالشيء الواحد" [4].

إن التحليل اللغوي لكلمة السنة أوضح لنا جملة من الخصائص والسمات ، فهي الأمر الجبلي الذي خلق الله عليها المخلوقات كلها وهي جارية مستمرة ما دامت الحياة قائمة ، هذه الخصائص دفعت بالعديد من العلماء والمفكرين إلى محاولة إيجاد تعريف يجمع هذه السمات و الأوصاف و بالتالي تقريب مفهوم السنة و جعله واضحا لا لبس فيه فعرفها بعضهم بقوله : " هي مجموعة القوانين التي يسير وفقها الكون و التي يستفيد منها

---

(1) الأحزاب ، الآية : 62.

(2) مسلم بن الحجاج صحيح مسلم مج 4 كتاب العلم ح رقم 15 ص : 59. (5)

(3) ابن منظور لسان العرب مج 4 ، دار المعارف بيروت لبنان ، ص : 2124 ــ 2125 .

(4) أبي الفضل جمال الدين تهذيب اللسان ، ج1 دار الكتب العلمية ط 1 ، بيروت لبنان ، ص : 1993 .

الإنسان بما يؤهله فيسخرها و يستفيد منها إنها تنتظم هذا الكون المفتوح بما فيه و من فيه " [1] و ذهب آخرون في تعريفها بقولهم هي خضوع العالم المادي و الاجتماعي لقوانين صارمة لا محاباة فيها .. "[2] و ذهب البعض إلى القول بأنها " حكم الله في الخليقة ، وهي مجموعة القوانين التي سنها الله عز و جل لهذا الوجود و أخضع لها جميع مخلوقاته على اختلاف أنواعها و تباين أجناسها " [3] .

و لما كانت السنة هي الطريقة و المنهاج الواضح المعالم المحدد الأطر فهي إذن بمثابة القانون الذي يحكم سير الحياة برمتها ، غير أن الإشكال الذي يفرض نفسه هل كل الظواهر و جميع ما في الكون يخضع لهذا القانون ؟ .

إن التعاريف السابقة لكلمة السنة جعلت الكون بمن فيه خاضع لهذا القانون خضوعا كليا إذ لا يستطيع أي كان التملص منه ، و مع ذلك يمكن أن نلمس في هذه السنة وجهين أساسين وجه مادي (كوني ) و وجه اجتماعي (تاريخي ) و لذلك سنتطرق للنوعين معا من خلال المباحث القادمة .

## ثانيا : أنواع السنن

إن المتتبع لما ورد في القرآن الكريم يدرك و للوهلة الأولى أن الحياة لها شقان شق مادي ظاهر محسوس و شق آخر معنوي (روحي ) غير أننا نلمس آثاره في أنفسنا و واقعنا و كلا الشقين يسيران جنبا إلى جنب ضمن سفينة الحياة هذه و يخضعان لذات القانون و السنة ، و معرفة حقيقة هذه السنة يتطلب الوقوف على الوجهين جميعا .

### أ – السنة الكونية :

هي القانون العام الذي تخضع له جميع المخلوقات و كل الظواهر و الحوادث الأخرى بما فيها الإنسان من نمو و حركة و مرض ، و هذا القانون مشاهد محسوس في واقع الناس.

. أشار القرآن الكريم إلى العديد من الظواهر الكونية التي يتجسد من خلالها هذا القانون في عدة آيات منها قوله تعالى :﴿ وَ الشَّمْسُ تَجْرِي لِمُسْتَقَرٍّ لَهَا ذَلِكَ تَقْدِيرُ الْعَزِيزِ

---

[1] إبراهيم بن علي الوزير على مشارف القرن الخامس عشر هجري دار الشروق ط3 ن سنة 1982 بيروت لبنان ص : 7 دراسة في السنن

[2] سعيد جودت " السننية أو اللاسننية في الواقع المسمين و الإسلام " مجلة الفرقان ( ع 18 سنة 1409ه ) المغرب ص : 17 .

[3] أحمد محمد كنعان أزمتنا الحضارية في ضوء سنة الله في الخلق كتاب الأمة ط 1 ، سنة 1411ه قطر ، ص 52

العَلِيمِ وَ القَمَرُ قَدَّرْنَاهُ مَنَازِلَ حَتَّى عَادَ كَالْعُرْجُونِ القَدِيمِ لاَ الشَّمْسُ يَنْبَغِي لَهَا أَنْ تُدْرِكَ القَمَرَ وَ لا اللَّيْلُ سَابِقُ النَّهَارِ وَ كُلٌّ فِي فَلَكٍ يَسْبَحُونَ ﴾ [1] .

ووجه الاستدلال في هذه الآية أن الله تبارك و تعالى يرشد الإنسان إلى أن حركة الشمس و القمر و جميع الأجرام السماوية الأخرى لا تسير مصادفة و إنما وفق قانون و سنة ثابتة لا تعرف التغير إلا أن يشاء الله ذلك .

لقد أكدت الدراسات العلمية و علم الفلك على وجه الخصوص وجود هذا القانون، مما جعل الإنسان يستفيد منه و يسخره بما يعود عليه بالمنفعة ،فحسب بالأيام و الساعات حركة القمر و الشمس ، و عرف الأسباب المؤدية لحدوث الليل و النهار و ما يترتب على ذلك من تنوع الفصول و اختلاف أحوال الإنسان و الحيوان و وقف على حقيقة ما ورد في الآية الكريمة :﴿ وَ ءَايَةٌ لَهُمُ الأَرْضُ المَيْتَةُ أَحْيَيْنَاهَا وَ أَخْرَجْنَا مِنْهَا حَبًّا فَمِنْهُ يَأْكُلُونَ وَ جَعَلْنَا فِيهَا جَنَّاتٍ مِنْ نَخِيلٍ وَ أَعْنَابٍ وَ فَجَّرْنَا فِيهَا مِنَ العُيُونِ لِيَأْكُلُوا مِنْ ثَمَرِهِ وَ مَا عَمِلَتْهُ أَيْدِيهِمْ أَفَلاَ يَشْكُرُونَ ﴾ [1]

إن معرفة مثل هذه القوانين و السنن مكن العلماء من استثمارها و ذلك بصنع أسبابها و مسبباتها في دنيا الناس اليوم ، فظهرت الأقمار الصناعية و تطورت تقنيات الزراعة ، و لم تعد الفاكهة و الخضر وات علامة على فصل من الفصول إذ أضحت متواجدة على مدار السنة بفضل الزراعة البلاستيكية ... إلى غير ذلك من نتائج تطبيقات هذه القوانين و السنن .

هذه إشارة من آيات كثيرة وردت في القرآن الكريم كل آية منها تبين مظهرا من مظاهر السنن الكونية التي بثها الله في الأفاق و الغاية منها دعوة الإنسان إلى التبصر والتمعن و البحث فيها مصداقا لقوله تعالى :

﴿ سَنُرِيهِمْ ءَايَاتِنَا فِي الآفَاقِ وَفِي أَنفُسِهِمْ حَتَّى يَتَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُ الحَقُّ ...﴾ [2]

لقد ساهم العلم الحديث بقسط وافرا في الكشف عن هذه السنن و القوانين و أضحت من الحقائق العلمية المسلم بها في مجال البحث والاستكشاف ، و على ضوئها ظهرت جملة من العلوم أخذت على عاتقها مهمة البحث و الاستكشاف في هذا الجانب من السنن

---

[1] يسين ، الآية : 38-39-40.

[1] يسين ، الآية : 33-34-35 .

[2] فصلت ، الآية : 53.

كعـــلم الفـــلك والفيزياء والبيولوجيا .. فاهتم علم الفلك بالأجرام السماوية و الأفلاك السيارة و ما فيها من نظام عجيب ، و اهتم علم الفيزياء بالظواهر المادية و طبيعة المادة و كيفيـــة تشكلها و اهتم علم الأحياء ( البيولوجيا ) بالمادة الحية كيف تنموا و تتطور و ما هي المعادلات التي تتحكم سيرها و نموها أو اضمحلالها .

اســـتطاع العلماء على مدار تاريخ الإنسانية بما وهبهم الله من عقل مفكر صياغة هذه القوانين المجســـدة لـــلظواهر الكونية على شكل قواعد عامة ودقيقة من خلال تحديد أوصاف الظواهر الكونيـــة و الشـــروط الواجب توفرها و من ثم صياغتها على شكل معادلات رياضية بعد أن وقفـــوا عـــلى خواصها الفيزيائية و الكيميائية ، و شروطها النظامية ، وعلى ضوء ذلك كله وضعوا جملة من الخصائص و السمات تحدد القانون و ترسم السنة من غيرها ، فنصوا على أن أي ظاهرة كونية تقوم على قانون علمي ينبغي أن تتوفر على الصفات التالية الحتمية و العلية و الغائية و السببية حتى تكون قانونا علميا و سنة ماضية إلى قيام الساعة مسخرة لخدمة الإنسانية؛ إن معرفة هذه القوانين أمرا مشاع بين جميع الناس إذ السبيل إلى ذلك إنما هو حواس الإنسان و أدواتـــه من استقراء و استدلال و توظيف ما وهب الله للإنسان من طاقة العقل و ما سخر بين يديـــه من إمكانات تجعله قادرا على الوصول إليها ، و في الآية الكريمة إشارة إلى الوسائل التي وضعها الله بين يدي الإنسان قال تعالى : { وَ اللهُ أَخْرَجَكُمْ مِنْ بُطُونِ أُمَّهَاتِكُمْ لاَ تَعْلَمُونَ شَيْئاً وَ جَعَلَ لَكُمُ السَّمْعَ وَ الأَبْصَارَ وَ الأَفْئِدَةَ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ }[1] يعلق العلامة الألوسي على الآية الســـابقة بقوله :" و المعنى جعل لكم هذه الأشياء آلات تحصلون بها العلم و المعرفة بأن تحسوا بمشاعركم جزئيات الأشياء و تدركوها بأفئدتكم و تنتبهوا لما بينها من المشاركات و المبايانات بـــتكرير الإحساس فيحصل لكم علوم بديعة تتمكنون بالنظر فيها من تحصيل العلوم الكسبية ... "[2] .و يقول محمد الطاهر بن عاشور : " .. فالعلوم الكسبية لا يمكن اكتسابها إلا بواسطة العلوم البديهية و أصول هذه العلوم البديهية إنما يحصل عند حدوث تصور موضوعاتها و تصور محمولاتها ، وحدوث هذه التصورات إنما هو بسبب إعانة الحواس على جزئياتها فكانت الحواس الخمس هي السبب الأصلي لحدوث هذه العلـــوم وكـــان السمـــع و البصـــر أو

---

[1] النحل ، الآية :78 .

[2] محمود شهاب الدين الألوسي روح المعاني مج 5 ، ج 14 دار الفكر ط1 سنة 1978 بيروت لبنان ص: 201 .

الحواس تحصيلا للتصورات و أهمها ... " [1] .و لما كانت الحواس و الأفئدة أمرا مشتركا بين الناس جميعهم مسلمهم و كافرهم فاكتشافها أمرا ميسورا و خاصة و أنها تقع تحت سمعهم و بصرهم و الاختلاف إنما يكمن في طرق استثمارها إما بشكل الذي يعود بالخير على الإنسان أو بالبشر و الوبال عليه ، و هذا النوع من القانون من أكبر الأدلة على وجود الله عز و جل إذ لا يمكن للمادة و هي صماء جامدة أن تصنع قانون دقيقا لا يتأخر لحظة واحدة و لا يعرف التغير والتبديل ، هذا النوع من القوانين فسح المجال واسعا للعلماء و المفكرين في البحث في ماهية الإنسان و حقيقته ، هل يخضع هو الأخر لذات القانون ؟ لا سيما و أنه يمر بذات المراحل التي يمر بها النبات و الحيوان من حركة و نمو وتطوروموت هذا ما نريد الإجابة عنه ضمن الوجه الآخر للسنة .

## ب – السنة الاجتماعية :

هذا النوع من السنن أو القوانين يتعلق بخضوع البشر باعتبارهم أمما و جماعات و أفراد لذات السنة أو القانون و بمعنى أدق : هل حركة الإنسان و المجتمع و الحضارات تخضع هي الأخرى لقانون صارم و دقيق يحكم سيرها ؟ فإذا سار الإنسان و المجتمع على هديه حصل على الرفاهية و العزة و بلغ قمة الحضارة و إذا خالفه كانت المهانة و الضنك و من ثم الموت المحقق !

الحقيقة أن القرآن الكريم يقرر بما لا يدع مجالا للشك خضوع العالم بما فيه و من فيه لهذه السنن و القوانين ، فالإنسان و المجتمع و الحضارات تخضع جميعا لسنن ثابتة تحكم مصيره و ترسم حركته ، المجتمع البشري بتصوير القرآن مرسومة معالمه محددة أطره من نشئه إلى منتهاه كما تدل على ذلك هذه الآيات الكريمة قال تعالى : ﴿ يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَاكُم مِّن ذَكَرٍ وَ أُنثَى وَ جَعَلْنَاكُمْ شُعُوبًا وَ قَبَائِلَ لِتَعَارَفُوا إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِندَ اللهِ أَتْقَاكُمْ إِنَّ اللهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌ ﴾[2] .﴿ وَ يَا آدَمُ أَسْكُنْ أَنتَ وَ زَوْجُكَ الْجَنَّةَ وَ كُلَا مِنْ حَيْثُ شِئْتُمَا وَ لَا تَقْرَبَا هَذِهِ الشَّجَرَةَ فَتَكُونَا مِنَ الظَالِمِينَ ﴾ [3]

---

[1] محمد الطاهر بن عاشور التحرير و التنوير ج14. ص: 233 .

[2] الحجرات ، الآية : 13.

[3] الأعراف ، الآية : 19.

إن الخروج على هذه السنن يعني الظلم في المصطلح القرآني و الظلم ما له الدمار و الهلاك كما تنص على ذلك الآية الكريمة :﴿ وَمَا كَانَ رَبُّكَ مُهْلِكَ الْقُرَى حَتَّىٰ يَبْعَثَ فِي أُمِّهَا رَسُولاً يَتْلُو عَلَيْهِمْ آيَاتِنَا وَمَا كُنَّا مُهْلِكِي الْقُرَى إِلاَّ وَأَهْلُهَا ظَالِمُونَ ﴾ [1]

بل نجد في القرآن الكريم مصطلحات تحمل دلالات واضحة تكررت غير ما مرة تشير إلى جملة القوانين إشارة مباشرة كلفظة السنة ، الأمة ، الأجل و الشيء الملفت الانتباه أنها تتردد كل ما كان موضوع الآية يتعلق بالاجتماع البشري من السياقات القرآنية الواردة قوله تعالى : ﴿ فَهَلْ يَنْظُرُونَ إِلاَّ سُنَّةَ الأَوَّلِينَ فَلَنْ تَجِدَ لِسُنَّةِ اللهِ تَبْدِيلاً وَلَنْ تَجِدَ لِسُنَّةِ اللهِ تَحْوِيلاً ﴾ [2] ﴿ وَلِكُلِّ أُمَّةٍ أَجَلٌ فَإِذَا جَاءَ أَجَلُهُمْ لاَ يَسْتَأْخِرُونَ سَاعَةً وَلاَ يَسْتَقْدِمُونَ ﴾ [3] ، فالآيات أضافت الأجل للأمة و الأمة تعني الوجود المجموعي للناس فالإضافة لم تأتي إلى هذا الفرد بالذات أو ذلك الفرد المعين " فهناك دائما وراء الأجل المحدود المحتوم لكل إنسان بوصفه الفردي ، هناك أجل و ميقات آخر للوجود الاجتماعي لهؤلاء الأفراد ، للأمة بوصفها مجتمعا ينشئ ما بين أفراده العلاقات و الصلات القائمة على أساس مجموعة من الأفكار و المبادئ المستندة على مجموعة من القوى و القابليات " [4]

" هذا المجتمع البشري الذي يعبر عنه القرآن بالأمة له موت ، له حياة ، له حركة كالفرد يتحرك فيكون حي ثم يموت ، كذلك الأمة تكون حية ثم تموت و كما أن موت الفرد يخضع لقانون معين ، كذلك الأمم أيضا لها أجلها التي تخضع لقوانين معينة " [5] .

فلا عجب حين نجد القرآن الكريم يأمر الإنسان بضرورة السير و البحث و التنقيب عن هذه السنن لأجل معرفتها و استثمارها بما يخدم الإنسانية و قول الله تعالى يؤكد هذا الأمر ﴿ قَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلِكُمْ سُنَنٌ فَسِيرُوا فِي الأَرْضِ فَانْظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُكَذِّبِينَ ﴾[6]

يعلق العلامة محمد عبده على الآية بقوله : " و معنى خلت مضت و سلفت أي أن أمر البشر باجتماعهم و ما يعرض فيه من مصارعة الحق و الباطل و ما يتبع ذلك من

---

(1) القصص ، الآية : 59 .

(2) فاطر ، الآية : 43.

(3) الأعراف ، الآية : 34.

(4) محمد باقر الصدر محاضرات ص ك 45.

(5) حسن سلمان النظرية القرآنية و حركة التاريخ مؤسسة الوفاء ط1 سنة 1986 بيروت لبنان ص :90.

(6) آل عمران ، الآية : 137.

الحرب والترال و الملك و السيادة وغير ذلك قد جرى على طرق قويمة و قواعد ثابتة اقتضاها النظام العام و ليس الأمر اتفاقا كما يزعم القدرية .... " [1] فمعظم القصص القرآني يشير من قريب أو بعيد إلى عمل هذه السنة و من ذلك فإننا نعتبر القرآن الكريم وثيقة أساسية و مرجعا لا غنى عنه لدراسة أحوال الاجتماع البشري و لا سيما أنه يحمل الكثير من الحقائق عن الوجود الإنساني، يقول العلامة القاسمي [ ثم أعلم أن قصص القرآن الكريم لا يراد به سرد تاريخ الأمم أو الأشخاص ، و إنما هي عبرة للناس كما قال تعالى : ﴿ وَكُلاًّ نَّقُصُّ عَلَيْكَ مِنْ أَنبَاءِ الرُّسُلِ مَا نُثَبِّتُ بِهِ فُؤَادَكَ ..﴾ [2] و لذلك لا تذكر الوقائع و الحوادث بالترتيب و لا تستقصى فيذكر منها الطم و الرم ..كما في بعض الكتب و العبرة في وجوه كثيرة ... و في تلك القصص فوائد عظيمة ، وأفضل الفوائد و أهم العبر فيها التنبيه على سنن الله في الاجتماع البشري .....و تأثير أعمال الخير و الشر في الحياة ، و قد نبه الله عن ذلك في مواضع من كتابه كقوله تعالى : ﴿ وَقَدْ خَلَتْ سُنَّةُ الأَوَّلِينَ ﴾ [3] و قوله :﴿ سُنَّةَ اللهِ الَّتِي قَدْ خَلَتْ فِي عِبَادِهِ وَخَسِرَ هُنَالِكَ الْكَافِرُونَ ﴾ [4] يذكر الله أمثال هذا بعد بيان أحوال الأمم في غمط الحق و الإعراض عنه .....][5] .

و الشيء الذي لمسناه و نحن نتتبع موضوع السنة إن القرآن الكريم لا يفرق في ذكره للسنة بين كونية و اجتماعية ، فتراه يشير إلى الطبيعة الاجتماعية الإنسانية باستمرار كما يشير إلى الطبيعة العامة التي هي أشمل منها – عالم الجماد و النبات و الحيوان – فكما يتردد في القرآن ذكر الأرض و الكواكب و أجزاء الأرض .. يتردد أيضا ذكر الأمم و الأقوام و الشعوب و العشيرة و الأزواج و أنواع من المجتمعات البشرية تخضع هي الأخرى للسنن كما تخضع الطبيعة لها فإذا كان القرآن الكريم يؤكد بأن الاجتماع له قوانين ثابتة فما هي نظرة السوسيولوجين لهذا الموضوع .

---

[1] محمد رشيد رضا المنار مج40 ص: 140 .

[2] هود ، الآية :120.

[3] الحجر ، الآية :13.

[4] غافر، الآية : 85.

[5] محمد جمال الدين القاسمي محاسن التأويل مج1 دار إحياء الكتب القومية ط1 سنة 1957 ص : 114 .

## ثالثا – خصائص السنة الاجتماعية في القرآن :

المباحث السابقة بينت أن الحياة الإنسانية و خاصة الاجتماعية تخضع لقانون صارم يحكم سيرها و ينتظم تحولاتها و تغيراتها و الشيء الذي جعلنا نقرر هذه الحقيقة ما تميزت به السنن من خصائص و سمات جعلتها تأخذ بحق صفة القانون الطبيعي ، هذه الخصائص هي التي سنتناولها بشيء من الإيجاز لأننا سنتطرق إليها من خلال النماذج التي أخذناها كعينة للدراسة .

### أ – الإطـــراد :

إن من أبرز الخصائص و السمات التي أضفاها القرآن الكريم على السنة الاجتماعية خاصية الإطـراد ، و المقصود بها أن الظواهر الاجتماعية ليست أمرا اعتباطيا و لا عرضا يصيب المجتمع في حالة من الحالات ، ثم يختفي بل يحدث هذا وفق قانون ثابت لا يتبدل و لا يتغير لا مجال للصدفة إطلاقا ، وكلما توفرت الظروف و الأسباب لبروز ظاهرة من الظواهر أو حدوث تبدل و تغير في مجتمع ما من المجتمعات حدث هذا بالضرورة و هذه الخاصية لا تقتصر على مجتمع دون آخر و إنما هي صورة تتكرر في كل مجتمع إنساني شهد ذات الظروف و ذات الأسباب و من ثم جاءت الآيات القرآنية صريحة في تأكيد هذا الأمر ﴿فَهَلْ يَنْظُرُونَ إِلاَّ سُنَّةَ الأَوَّلِينَ فَلَنْ تَجِدَ لِسُنَّةِ اللهِ تَبْدِيلاً وَلَنْ تَجِدَ لِسُنَّةِ اللهِ تَحْوِيلاً ....﴾[1] إن العديد من الآيات القرآنية تؤكد إستمرارية السنة و ارتفاعها عن الزمان بأبعاده الثلاث "الماضي و الحاضر والمستقبل "و ارتفاعها أيضا عن المكان ﴿ سُنَّةَ اللهِ فِي الذِينَ خَلَوْاْ مِنْ قَبْلُ وَ لَنْ تَجِدَ لِسُنَّةِ اللهِ تَبْدِيلاً ﴾ [2] .

و على العكس من ذلك فإن أي تأخر أو اهتزاز في نفاذ هذه السنن سوف يؤدي إلى تحطيم العالم بما يقع فيه من اختلال و اظطراب بما يؤدي إلى نقيض الحق و العدل الذي قامت عليه السماوات و الأرض .

فهذه النصوص و غيرها تؤكد طابع الإستمرارية و الإطـراد أي طابع الموضوعية و العلمية لهذه السنة و توضح أيضا أنه لا يمكن أن تستثنى أي جماعة من جريان هذه السنة

---

[1] فاطر ، الآية : 43.

[2] الأحزاب ، الآية : 62.

عـــليها ، و الحقيقـــة أن صـــفة الإطـــراد هي نتيجة لخصائص عدة ، تجعل الإطراد و الإستمرارية واقعا ملموسا و خاصية ثابتة للقانون الاجتماعي من هذه الخصائص :

**ب- السببية :**

دلت آيات القرآن على أن أية ظاهرة اجتماعية و كل ما يصيب المجتمع هو في حقيقته نـــاتج عـــن ارتـــباط الأسباب بالمسببات ، فكلما تظافرت أسباب هذه الظاهرة أو تلك وتوفرت ظروفها كان وجودها وجودا ضروريا و إذا انتفت ، انتفت بالضرورة ، رغم ما بين هذه الظواهر و الأحداث من اختلاف في الزمان و المكان ، وهذا الارتباط و الترابط المنطقي هو الذي يعطي للقانون صفة العلمية وعلى هذا الأساس يمكن أن نسوق جملة من الظواهـــر يعرضـــها القرآن يتضح فيها ارتباط الأسباب بالمسببات فيذكر القرآن العلاقة الـــتلازمية بين الطاعة و النصر من جهة و بين العصيان و الهزيمة من جهة أخرى في قوله تعالى : { **وَ أَوْرَثْنَا الْقَوْمَ الذِينَ كَانُوا يُسْتَضْعَفُونَ مَشَارِقَ الأَرْضِ وَ مَغَارِبَهَا الَتِي بَارَكْنَا فِيهَا ....**} [1] { **وَ لَقَدْ سَبَقَتْ كَلِمَتُنَا لِعِبَادِنَا الْمُرْسَلِينَ إِنَهُمْ لَهُمْ الْمَنْصُورُونَ ....**} [2] ،كمـــا يشـــير أيضا إلى ذلك الترابط المنطقي بين إنهيار المجتمعات وانتشار أسباب الفساد الأخلاقـــي : { **وَإِذَآ أَرَدْنَا أَنْ نُهْلِكَ قَرْيَةً أَمَرْنَا مُتْرَفِيهَا فَفَسَقُوا فِيهَا فَحَقَ عَلَيْهَا الْقَوْلُ فَدَمَـــرْنَاهَا تَدْمِـــيرًا** } [3] ،كما يشير القرآن إلى إرتباط الهلاك بانتشار أسباب الظلم في العديـــد مـــن الآيات القرآنية كقوله تعالى:{ **وَمَا كَانَ رَبُكَ لِيُهْلِكَ الْقُرَىٰ بِظُلْمٍ وَأَهْلُهَا مُصْلِحُونَ** } [4] { **وَكَمْ اَهْلَكْنَا مِنْ قَرْيَةٍ بَطِرَتْ مَعِيشَتَهَا فَتِلْكَ مَسَاكِنُهُمْ لَمْ تُسْكَنْ مِنْ بَعْدِهِمْ إِلاَ قَلِيلاً وَكُنَا نَحْنُ الْوَارِثِينَ** } [5] .

وقـــد أفاض العلامة إبن خلدون في مقدمته [6] في تبيان أسباب هلاك وانحطاط الدول من خلال إنتشار الأسباب المؤدية إلى الهلاك بخاصة الظلم .

---

(1) الأعراف : 137

(2) الصافات: 171، 172

(3) الإسراء : 16

(4) هود، الآية : 117 .

(5) القصص ،الآية :58 .

(6) أشار ابن خلدون إلى هذا الموضوع في الفصل الثالث و الأربعون وعنوانه بقوله :"في أن الظلم مؤذن بخراب العمران ص :286 .

يقول محمد المبارك :[ .. وكما يشير القرآن الكريم إلى إرتباط حوادث الطبيعة بعضها ببعض إرتباطا مطردا منتظما بيّن ،إذ يدل على تتبع حادثين تتابعا مطردا باستمرار كنزول المطر ونمو النبات يشير كذلك إلى إرتباط الحوادث الاجتماعية ... يتكرر في القرآن مثلا حصول الهلاك بعد ظهور الظلم : ﴿ فَتِلْكَ بُيُوتُهُمْ خَاوِيَةً بِمَا ظَلَمُوا ﴾ [1] و كذلك ظاهرة الترف فقد تكررت في القرآن و اقترنت بالفسق و محاربة دعوات الأنبياء الإصلاحية و تقليد الآباء و الإجرام و الهلاك ﴿ ...وَ اتَّبَعَ الذِينَ ظَلَمُوا مَا أُتْرِفُوا فِيهِ وَ كَانُوا مُجْرِمِينَ...﴾ [2] . و يشير حديث النبي –ﷺ– إلى هذا الإرتباط بين الظاهرة الاجتماعية كرابطة لعدة ظاهرات بنتائجها في الحديث التالي :

عن عبد الله بن عباس : قال : قال رسول الله –ﷺ– " مَا ظَهَرَ الغُلُولُ فِي قَوْمٍ إِلاَّ أُلْقِيَ اللهُ تَعَالَى فِي قُلُوبِهِمْ الرُّعْبَ : وَ لَا فَشَا الزِنَا فِي قَوْمٍ إِلاَّ كَثُرَ فِيهِمْ المَوْتُ وَ لَا نَقَصَ قَوْمٌ المِكْيَالَ وَ المِيزَانَ إِلاَّ قُطِعَ عَنْهُمْ الرِزْقَ وَ لَا حَكَمَ قَوْمٌ بِغَيْرِ حَقٍ إِلاَّ فَشَا فِيهِمْ الدَمُ وَ لَا خَتَرَ قَوْمٌ بِالعَهْدِ إِلاَّ سَلَطَ اللهُ عَلَيْهِمْ العَدُوَ ..." [3] ...] [4].

فالقرآن الكريم و الحديث النبوي يشيران إلى إرتباط ظواهر اجتماعية إرتباطا مطردا و من ثم يشيران إلى القوانين التي تقف خلف هذه الظواهر ، فهذه القوانين تظل جارية ما دامت أسبابها و ظروفها قائمة و لذلك كانت الإشارة إليها غالبا باسم السنن الجارية تميزا لها عن السنن الخارقة أو ما يعبر عنه عادة علماء الكلام باسم خوارق العادات .

و الحقيقة أن : " السنة الجارية هي سنة الأسباب و قانون العلية و المعلولية العام ، و المشيئة الإلهية ، إنما تتعلق بالأشياء و تقع على الحوادث وفقا لما تمت فيه العلل و الشرائط و ارتفعت عن وجوده الموانع كان هو الذي تتعلق بتحقيقه المشيئة الإلهية ... و لولا جريان هذه المشيئة الإلهية ... على هذه السنة لبطل نظام الأسباب و قانون العلية ، و حلت الإرادة الجزافية محله و لغيت المصالح و الغايات و أدى إلى فساد نظام التكوين "[5] ،

---

[1] النمل ، الآية : 52 .

[2] هود ، الآية : 116 .

[3] مالك بن أنس الموطأ باب الجهاد ، ح رقم : 26 : تحقيق محمد فؤاد عبد الباقي : دار الكتاب المصري

[4] محمد المبارك " نحو صياغة إسلامية لعلم الاجتماع" ص 33 34

[5] محمد حسين الطباطبائي الميزان في تفسير القرآن مج 5 منشورات الأعلمي ط 1 سنة 1991 ص : 313 .

و في هذا كلام نفيس لإبن تيمية إذ يقول : " فليس في الدنيا و الآخرة شيء إلا بسبب ، و الله خالق الأسباب و المسببات " [1] .

إن خاصية السببية بمعنى ربط الأسباب بالمسببات و العلل بالمعلولات و النتائج بالمقدمات خاصية أساسية تميز القانون الاجتماعي أو السنة الاجتماعية ، مما يجعلها قابلة للتكرار و الإعادة كلما توفرت أسبابها و شروطها و ارتفعت موانعها التي تحول دون تحققها .

فإذا كان الأمر كذلك فكيف نفسر ظهور ظواهر اجتماعية مع أن الأسباب الظاهرة تدل دلالة قاطعة على أن الظاهرة التي حدثت مستحيلة الحدوث في الوقت الراهن ؟ و هذا بالنظر إلى أسبابها الموضوعية المرتبطة بها كإنتصار المسلمين في بدر و انهزامهم في أحد إلى غير ذلك من الحوادث التي يدل ظاهرها نقيض ما آلت إليه النتائج .

و الحقيقة أن القدماء من علماء الإسلام تناولوا هذا تحت موضوع خوارق العادات إلا أنهم ذهبوا فيه مذاهب شتى ، إلا أننا سنتناول هذه القضية بالكيفية التي تخدم هذا البحث دون الولوج في جزئياتها .

**ج- السنة الخارقة " خوارق العادات " :**

من الحقائق الثابتة أن الله هو خالق الإنسان و هو واجد السنن و المقدر لأسبابها و مسبباتها و لا يمكن لأي كان أن يخرق هذه أو أن يتعدى عليها إلا بمشيئة الله .

و في الحقيقة أن جريان بعض الحوادث على غير العادة كمعجزات الأنبياء و كرامات الأولياء يمكن تفسيره من جانبين :

**الجانب الأول** : أنها تدل على مقدرة الله في خرق هذه القوانين و السنن بمعنى أنها تأمر بأمره و تسير بكلماته فهي جارية على مخلوقاته فحسب ، مما يدفع عنها صفة الأبدية التي هي من اختصاص الله عز و جل و تدخل في عموم قوله تعالى : ﴿ إِنَّمَا أَمْرُهُ إِذَا أَرَادَ شَيْئاً أَنْ يَقُولَ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ ﴾ [2] و لذلك قال علماء الكلام أن الأسباب لا تولد النتائج إلا بإرادة الله عز و جل فكما يوجد الله الأشياء بأسبابها الطبيعية فإنه قد يوجد شيئا لمجرد الإرادة و بدون سبب ظاهر لحكمة يعلمها هو ، و نجهلها نحن و حتى السبب الطبيعي لا

---

[1] أحمد بن تيمية مجموع الفتاوى ج : 7 مكتبة المعارف سنة 1318 ه ط

[2] يسين : الآية : 82 .

يؤثر أثره إلا بإرادة الله تعالى ، فالنار تسبب الأحراق و السقوط من شاهق يسبب الهلاك و لكن بشرط أن لا يريد الله عكس ذلك ...." [1] .

و لذلك عرفوا المعجزة بقولهم : " ظهور أمر خلاف العادة في دار التكيف لإظهار صدق ذي نبوة من الأنبياء أو ذي كرامة من الأولياء مع نكول من يتحدى به عن معارضة مثله " [2] .

فالمعجزة لا تعد إلا أن تكون استثناء و لذلك ينبغي أ ن نضعها في موضوعها من حركة الكون لأن أصل هو قانون الأسباب و المسببات و لذلك نجد ابن تيمية يرد على الذين ينكرون أن تكون النتيجة بأسبابها فيقول : [ و محور الأسباب أن تكون أسبابا نقص في العقل و هو طعن في الشرع أيضا ، قال تعالى : ﴿ وَمَا أَنزَلَ اللَّهُ مِنَ السَّمَاءِ مِن مَّاءٍ فَأَحْيَا بِهِ الْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا ﴾ [3] ، و قال تعالى : ﴿ يَهْدِي بِهِ اللَّهُ مَنِ اتَّبَعَ رِضْوَانَهُ سُبُلَ السَّلَامِ ﴾ [4] ، و أمثال ذلك فمن قال : يفعل عندها أي عند الأسباب لا بها فقد خالف لفظ القرآن ، مع أن الحس و العقل يشهد أنها أسباب و يعلم الفرق بين الجبهة و العين في اختصاص إحداها بالقوة و ليس في الآخر و يعلم الفرق بين الخبز و الحصى في أن أحدها يحصل به الغذاء دون الآخر ] [5] .

**و الجانب الثاني:** من خوارق العادات أنها لم تكن أبدا خارجة عن قوانين الله و إنما هي تجسيد لسنن و قوانين آخرى لم تزل خافية عن إدراك العقل البشري و لذلك فهي تجري على طريقة معينة يعتقد العقل القاصر أنها خارقة لقانون من القوانين فهي لا تعدوا إلا أن تكون مبطلة لمألوف الناس و عاداتهم فحسب لذلك نجد العلامة محمد عبده يشير إلى هذا الجانب بقوله : " و المعجزة ليست من النوع المستحيل عقلا ، فإن مخالفة السير الطبيعي المعروف في الإيجاد ما لم يقم دليل على إستحالته بل ذلك يقع كما يشاهد حال المريض يمتنع عن الأكل مدة لو لم يأكل فيها و هو صحيح لمات مع وجود العلة التي تزيد الضعف و تساعد الجوع على الإتلاف ، فإن قيل أن ذلك لا بد أن يكون تابعا لناموس

---

[1] محمد جواد مغنية – معالم الفلسفة الإسلامية ن ط3 : دار مكتبة الهلال بيروت لبنان سنة 1982 ص : 251 .

[2] ابن منصور عبد القاهر بن الطاهر التيمي كتاب أصول الدين دار الآفاق الجديد ، ط1 بيروت لبنان سنة 1981م ص : 170 .

[3] البقرة ، الآية : 164 .

[4] المائدة ، الآية : 16 .

[5] أحمد إبن تيمية مجموع الفتاوي " مرجع سابق " ج1 ص : 175 .

آخر طبيعي قلنا أن واضع الناموس هو موجود الكائنات فليس المحال عليه أن يضع نواميس خاصة بخوارق العادات غاية ما في الأمر أننا لا نعرفها و لكننا نرى آثارها على يد من اختصه الله بفضل من عنده ، على أننا بعد الإعتقاد بأن صانع الكون قادر مختار سهل علينا العلم بأنه لا يتمنع عليه أن يحدث الحادث على أي هيئة و تابعا لأي ناموس إذ سبق في علمه أنه يحدث كذلك .. " [1] .

فأي حادثة سواء أكانت كونية أم اجتماعية لها أسبابها و مسبباتها لذلك كانت الدعوة واضحة في القرآن للبحث في هذه الظواهر و الحوادث و معرفة أسبابها و مسبباتها و من ثم تسخيرها بما يخدم صالح الإنسانية قال الله تعالى : ﴿ قَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلِكُمْ سُنَنٌ فَسِيرُوا فِي الأَرْضِ فَانْظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُكَذِّبِينَ ﴾ [2] فإذا كان للمطر أسبابا و مسببات معينة فكذلك الأمر بالنسبة لهلاك الأمم و الدول ، و كل ما في الأمر أن أسباب الظاهرة الكونية واضحة بينما الظواهر الاجتماعية متشابكة و معقدة و قد يعسر على الكثير الإحاطة بها إلا أنه بالتأمل و الإستقراء يصل إلى معرفتها .

**د- الربانية :**

من الخصائص التي أكدت عليها آيات القرآن خاصية الربانية ، فالقانون سواء أكان اجتماعيا أو كونيا من صنع الله سبحانه و تعالى ، و سنة الله هي كلماته و قدره ، فهي تجسيد لإرادة الله المطلقة و لذلك نجد النصوص القرآنية تلحق كل الظواهر بالله سبحانه و تعالى من هذه النصوص قوله تعالى : ﴿ وَإِذَا أَرَدْنَا أَنْ نُهْلِكَ قَرْيَةً أَمَرْنَا مُتْرَفِيهَا فَفَسَقُوا فِيهَا فَحَقَّ عَلَيْهَا الْقَوْلُ فَدَمَّرْنَاهَا تَدْمِيرًا ﴾ [3] ﴿ حَتَّى إِذَا جَاءَ أَمْرُنَا وَ فَارَ التَّنُّورُ .....﴾ [4] ﴿وَهُوَ الَّذِي يُنَزِّلُ الْغَيْثَ مِنْ بَعْدِ مَا قَنَطُوا وَ يَنْشُرُ رَحْمَتَهُ وَ هُوَ الْوَلِيُّ الْحَمِيدُ ﴾ [5] ، إلا أن هذه الخاصية قد تجعل البعض يتوهم بأن إظفاء طابع الغيب على السنة أو القانون ينتزع منها صفة العلمية و يلحقها بالتفسير الإلهي الكهنوتي للتاريخ و حوادث المجتمع الذي يتزعمه العديد من المفكرين.و الحقيقة أن هناك فرق كبير في هذه القضية ، ( و حاصل

---

[1] محمد عبده رسالة التوحيد دار الهلال ص : 85 .

[2] آل عمران ، الآية : 137 .

[3] الإسراء ، الآية : 16 .

[4] هود ، الآية : 40 .

(5) الشورى ، الآية : 28

هـــذا الفـــرق هو أن الإتجاه اللاهوتي لتفسير التاريخ – و حركة المجتمع – يتناول الحادثة ويـــربطها مباشرة بالله قاطعا صلتها و روابطها مع بقية الحوادث .. هذه الروابط هي التي تمـــثل السنن و القوانين الموضوعية بينما القرآن الكريم لا يسبغ الطابع الغيبي على الحادثة بـــالذات و لاينتزعها من سياقها ليربطها بالسماء و لا يطرح صلة الحادثة بالسماء كبديل عن أوجه الإنطباق و العلاقات و الأسباب و المسببات بل إنه يربط هذه السنة بالله ، يربط أوجه العلاقات و الإرتباطات بالله ...) [1] .

و لذلـــك نجده يؤكد على مسؤولية الإنسان على العديد من الظواهر و الحوادث بما يؤكد حريته ، بينما يسلب منه المذهب اللاهوتي هذه الحرية و يجعله لا يملك من أمر نفسه شيئا بل أنه يغير و يبدل .

إن الـــتأكيد على ربانية السنة يستهدف شد الإنسان و إشعاره بأن الاستعانة بالنظام الكامل لمختلف الساحات الكونية ليس ذلك انعزالا عن الله و تعديا على سلطانه و لكن تتجلى قدرة الله من خلال هذه السنة و القوانين لأنها هي إرادة الله و هي متمثلة لحكمه و تدبيره .

و الخلاصـــة التي نخرج بها من هذا البحث أن للحياة سننا ثابتة و قوانين مضطردة لا تقـــبل التبديل و لا التغير و أن موافقة هذه السنن و السير على هدها تثمر ثمارها و ينتج أثـــرها كمـــا أن مخالفتها ينتج نقيض ذلك ، إن ما قام به العلامة ابن خلدون مدين فيه بالجانب الأكبر لنصوص القرآن الكريم و لعله العلامة الوحيد الذي استوعب هذا الموضوع بكل تفاصيله و جزئياته ، كما أن الخطوة الجريئة التي قام بها المفكر الجزائري مالك بن نبي في دراســـته لظاهرة الحضارة ..[2] محاولا معرفة أسبابها ومسبباتها والظروف التي تصنعها ومـــن ثم صياغتها صياغة رياضية تجعل من دراسة الظواهر الاجتماعية امرا ممكنا وميسورا لكل باحث.

---

[1] محمد باقر الصدر محاضرات ص : 62 –63 .

[2] أشار الأستاذ مالك إلى هذا الموضوع في كتابه ميلاد مجتمع و شروط النهضة

# الفصل الثاني: سنة التغيير

- مفهوم التغيير
- لمدلول القرآني للتغيير
- البعد الكوني للتغيير
- أسس التغيير الاجتماعي
- مسار التغيير
- أشكال التغيير

جامعة الأمير عبد القادر للعلوم الإسلامية

**أولا مفهوم التغيـــير:**

إن إدراك الـدلالات القريبـة و البعيـدة لكلمـة التغيـير ينطلـق ابتـداء مـن الوقـوف على جوانب هذه الكلمة مـن حيـث وضعـها اللغـوي و الاصطلاحـي .

جاء في لسان العـرب: «...تغـير الشـيء عـن حالـه، تحـول وغـيره حولـه وبدلـه، كأنـه جعلـه غـير مـا كـان، وفي التـنزيل قولـه تعـالى: ﴿ذَٰلِكَ بِأَنَّ اللَّهَ لَمْ يَكُ مُغَيِّرًا نِّعْمَةً أَنْعَمَهَا عَلَىٰ قَوْمٍ حَتَّىٰ يُغَيِّرُوا مَا بِأَنفُسِهِمْ﴾[1] معنـاه يبدلـوا مـا أمرهـم الله، وغـير عليـه الأمـر ، وبدله وتغـايرات الأشـياء إختلفـت ..»[2].

فكلمـة التغيـير إذن تحمـل كـل معـاني التبديـل والتحويـل والاختـلاف، تبديـل في حقيقة الأشياء وتغيـير ماهيتـها وخصائصـها وأوصافـها ، حـتى يخالهـا الـرأي شـيئا جديـدا وأمرا مستحدثا، غـير أن هـذه الكلمـة تـأخذ أبعـادا أعمـق ودلالات أشمـل حـين تضـاف إليها كلمـة المجتمـع أو الاجتمـاع البشـري، فيتحـول الأمـر مـن مجـرد كلمـة إلى إشـكال مطروح يفـرض نفسـه بجسـده هـذا التسـاؤل: هـل الاجتمـاع والمجتمـع البشـري يعتريـه التغيير والتبديـل؟

و الحقيقـة الـتي لم نجد خافيـة علـى الباحثين أن جـل الدراسـات الاجتماعيـة والتاريخية تذهب إلى القول بـأن الاجتمـاع البشـري يخضـع لخاصيـة التغـير والتبـدل، بدليـل أنـه لم يعـرف صـورة ثابتـة و لا ظـاهرة واحـدة، بـل تعـددت و اختلفـت أشـكاله ، وتنوعـت و تعـددت الظواهـر الـتي اعتارتـه، ممـا يؤكـد علـى حركيتـه الدائمـة وتغـيره المستمر و عدم ثباته علـى أمـر محـدد . وفي هـذا يقـول الدكتـور محمـد التومـي : «... قـد بين الواقع التـاريخي أن المجتمعـات الإنسـانية لم تـدم علـى حـال مـن الأحـوال و لم تسـتقر على وضع مـن الأوضـاع، بـل هـي في تغـير دائـم وتحـول مسـتمر ، فقـد انتقلـت مـن

---

[1] الأنفال، الآية : 53.

[2] ابن منظور، لسان العرب مج5، (مرجع سابق) ص: 3325.

أوضاع بسيطة إلى أخرى معقدة، وتحولت من أنماط رتيبة إلى أخرى أشد حركة وأكثر نماء وأدق تشابكا...» [1].

كما أن المتمعن في سمة التغيير هذه، يدرك بأنها تترجم طموحات الإنسان اللامحدودة في مجتمع مثالي يحقق رغباته وطموحاته .

التغير إذن واقع محسوس و مظاهره مشهودة في المجتمع غير أن التساؤل الذي يفرض نفسه : هل كل مظاهر الاجتماع البشري يعتريها التغيير؟ أم أنه يتعلق ببعض جوانب المجتمع لا غير؟ .

و مما ينبغي الإشارة إليه ذلك السبق الذي انتهى إليه ابن خلدون بما أوتي من رهافة حس ومعارف جمة لعادات و أحوال المجتمعات والدول التي عاصرها، أو التي وقف على آثارها وذلك بالتأكيد على حقيقة التبدل و التغير الذي يتعرض له المجتمع الإنساني من خلال تحديده لعمر الدولة ــ والدولة هي إحدى صور المجتمع الإنساني تعكس المراحل التي يقطعها و الحالة التي يكون عليها يقول ابن خلدون : «إن الدولة أولها بداوة ثم إذا حصل الملك تبعه الرقة ، و اتساع الأحوال ، والحضارة، إنما هي تفنن في الترف وإحكام الصنائع المستعملة في وجوهه ومذاهبه من المطابخ، فتنتقل الحضارة من الدولة السالفة إلى الدولة الخالفة... فانتقلت حضارة الفرس لعرب بني أمية و بني العباس، وانتقلت حضارة بني أمية بالأندلس إلى ملوك المغرب من المحدين وزناتة...»[3] و الحقيقة أن ابن خلدون لم يكن لينال هذا الشرف لو لم يستوعب ما ورد في كتاب الله من دعوات للضرب في الأرض والبحث في آثار الأقدمين.

والحقيقة التي اتضحت و يكاد يجمع عليها الباحثون أن المجتمع البشري تعرض عبر تاريخه الطويل إلى الكثير من التحولات و التبدلات، و ما المجتمعات الحديث إلا نتاج هذه التغيرات و التبدلات ، فلو أخذنا على سبيل المثال لا الحصر المجتمع العربي كعينة دراسة وقمنا بعملية مقارنة بين ما كان عليه في الماضي و الصورة التي كان

---

[1] محمد التومي المجتمع الإنساني في القرآن، (مرجع سابق) ص:266.

[3] عبد الرحمان بن خلدون المقدمة (مرجع سابق) ص:173...175.

عليها قبل الإسلام والتي اتخذها إبان بعثة محمد ﷺ والتي بلغها العرب في قمة عطائهم العلمي والثقافي في عهد الأمويين والعباسيين، و الصورة التي هم عليها الآن لأدركنا حجم التغير الذي أصاب هذا المجتمع وهذا العنصر من بني الإنسان ، و بذلك نخرج بذات الحكم الذي خرج به العلامة ابن خلدون.

إن القرآن الكريم باعتباره الوثيقة التاريخية الوحيدة التي تخبرنا عن الإنسانية من بدايتها، يشير أثناء عرضه لهذا التاريخ، إلى العديد من الظواهر الإجتماعية المختلفة، مرت بالمجتمع الإنساني مما يؤكد حقيقة التغير و أنه سنة ثابتة تلازم الاجتماع البشري إلى آخر لحظة في عمره، غير أن القرآن يعطي لهذه السنة دلالات و معاني لا نجدها في المدارس الاجتماعية و التاريخية باختلاف مشاربها و ميولاتها ، هذا الذي يدفعنا إلى استعراض المدلول القرآني لسنة التغير .

جامعة الأمير عبد القادر للعلوم الإسلامية

**ثانيا : المدلول القـــرآني للتغـــير :**

المتأمل في القرآن الكـــريم يـــدرك يقينـــا أن التغـــير حقيقـــة قرآنيـــة و ســـنة أبديـــة تحكـــم الاجتماع البشـــري، ولأدل علـــى ذلـــك جملـــة مـــن النصـــوص القرآنيـــة الـــتي تشـــير إلى هـــذه الخاصية بصفـــة مباشـــرة أو غـــير مباشـــرة ، غـــير أن تنـــوع الأســـاليب القرآنيـــة الـــتي تنـــاولت موضوع التغير يجعل حصرها في جملـــة مـــن الآيـــات مـــن الصعوبـــة بمكـــان، ولذلـــك ســـنقتصر هنا على طائفة من الآيات تـــبرز حقيقـــة هـــذه الســـنة.

والشيء المؤكد أن الصورة الـــتي قدمـــها القـــرآن عـــن التغـــير تختلـــف عـــن الصـــورة الـــتي تعرضـــها المـــدارس السوســـيولوجية بـــاختلاف مشـــاربها ومذهبـــها، و هـــذا الاختـــلاف يعـــود في نظري إلى ما يضفيه القرآن على هـــذه الســـنة، فـــهو لا يقـــف بهـــا عنـــد حـــدود الإنســـان و نطاقه المحسوس بل يمتـــد بهـــا إلى أبعـــاد غـــير محسوســـة ولا مرئيـــة، تذهـــب بعيـــدا في المـــاضي وتمتد به إلى المستقبل وتشده إلى مـــا حولـــه مـــن أجـــرام و كواكـــب وغيرهـــا .

هذا الطرح يجعل سنة التغـــير لا تعـــرف مجـــالا محـــددا و لا تقتصـــر علـــى جـــانب معـــين. ودراستها ينبغي أن تتم ضمـــن هـــذا التصـــور.

جامعة الأمير عبد القادر للعلوم الإسلامية

**ثالثا : البعد الكـــوني للتغـــير :**

التغير باعتباره تحولا و تبـــدلا، لا يقتصـــر علـــى الجـــانب الاجتمـــاعي فحســـب بـــل هـــو سنة كونية و قانونا ينتظم الكون بأســـره، نلمـــس هـــذا في العديـــد مـــن الآيـــات القرآنيـــة الـــتي تناولت بـــالعرض والتحليـــل الأجـــرام الســـماوية و الظواهـــر الكونيـــة و مـــا ينجـــر عنـــها مـــن آثـــار نفســـية واجتماعيـــة منـــها قولـــه تعـــالى : ﴿وَآيَةٌ لَّهُمُ اللَّيْلُ نَسْلَخُ مِنْهُ النَّهَارَ فَإِذَا هُم مُّظْلِمُونَ وَالشَّمْسُ تَجْرِي لِمُسْتَقَرٍّ لَّهَا، ذَٰلِكَ تَقْدِيرُ الْعَزِيزِ الْعَلِيمِ وَالْقَمَرَ قَدَّرْنَاهُ مَنَازِلَ حَتَّىٰ عَادَ كَالْعُرْجُونِ الْقَدِيمِ لَا الشَّمْسُ يَنبَغِي لَهَا أَن تُدْرِكَ الْقَمَرَ وَلَا اللَّيْلُ سَابِقُ النَّهَارِ وَكُلٌّ فِي فَلَكٍ يَسْبَحُونَ﴾[1]، قولـــه تعـــالى : ﴿ هُوَ الَّذِي يُرِيكُمُ الْبَرْقَ خَوْفًا وَطَمَعًا وَيُنشِئُ السَّحَابَ الثِّقَالَ، وَيُسَبِّحُ الرَّعْدُ بِحَمْدِهِ وَالْمَلَائِكَةُ مِنْ خِيفَتِهِ، وَيُرْسِلُ الصَّوَاعِقَ فَيُصِيبُ بِهَا مَن يَشَاءُ وَهُمْ يُجَادِلُونَ فِي اللَّهِ وَهُوَ شَدِيدُ الْمِحَالِ...؟ [2].

إن الصـــورة المتغـــيرة لـــلأرض بفعـــل القحـــط تـــارة والاخضـــرار تـــارة أخـــرى تجعـــل الإنسان يتكيف ويتغير تبعا لذلـــك، كمـــا أن المتـــأمل لســـباق وســـياق ولحـــاق[3] قولـــه تعـــالى: ﴿ إِنَّ اللَّهَ لَا يُغَيِّرُ مَا بِقَوْمٍ حَتَّىٰ يُغَيِّرُوا مَا بِأَنفُسِهِمْ... ﴾ [4] يلحـــظ أنهـــا جـــاءت ضمـــن ظواهر كونية سمتها التغـــير و التبـــدل ، بـــل أكـــثر مـــن ذلـــك إذ نجـــد في آيـــة أخـــرى تـــأكيد على أثر التغـــيرات الكونيـــة علـــى حيـــاة النـــاس النفســـية والاجتماعيـــة في قولـــه تعـــالى : ﴿ أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ أَنزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَخْرَجْنَا بِهِ ثَمَرَاتٍ مُّخْتَلِفًا أَلْوَانُهَا وَمِنَ الْجِبَالِ جُدَدٌ بِيضٌ وَحُمْرٌ مُّخْتَلِفٌ أَلْوَانُهَا وَغَرَابِيبُ سُودٌ وَمِنَ النَّاسِ وَالدَّوَابِّ وَالْأَنْعَامِ مُخْتَلِفٌ أَلْوَانُهُ

---

[1] يس : الآية 37 ، 38 ، 39 ، 40.

[2] الرعد : الآية 12 ، 13.

[3] إشارة إلى الآيات : 3 ، 4 ، ...13 من سورة الرعد.

[4] الرعد : الآية 11.

كَذَٰلِكَ إِنَّمَا يَخْشَى اللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ الْعُلَمَاءُ إِنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ غَفُورٌ﴾[1]، وقوله أيضا: ﴿ اللَّهُ الَّذِي يُرْسِلُ الرِّيَاحَ فَتُثِيرُ سَحَابًا فَيَبْسُطُهُ فِي السَّمَاءِ كَيْفَ يَشَاءُ وَيَجْعَلُهُ كِسَفًا فَتَرَى الْوَدْقَ يَخْرُجُ مِنْ خِلَالِهِ، فَإِذَا أَصَابَ بِهِ مَنْ يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ، إِذَا هُمْ يَسْتَبْشِرُونَ وَإِنْ كَانُوا مِنْ قَبْلِ أَنْ يُنَزَّلَ عَلَيْهِمْ مِنْ قَبْلِهِ، لَمُبْلِسِينَ فَانْظُرْ إِلَىٰ أَثَرِ رَحْمَةِ اللَّهِ كَيْفَ يُحْيِي الْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا إِنَّ ذَٰلِكَ لَمُحْيِي الْمَوْتَىٰ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ وَلَئِنْ أَرْسَلْنَا رِيحًا فَرَأَوْهُ مُصْفَرًّا لَظَلُّوا مِنْ بَعْدِهِ يَكْفُرُونَ﴾ [2]. يعلق العلامة محمد الطاهر بن عاشور على هذه الآية بقوله: «... وذكر اختلاف أحوال العباد في وقت نزول المطر ، وفي وقت انحباسه بين السراء و الضراء و في ذلك إيماء إلى عظيم تصرف الله في خلقة الإنسان إذ جعله قابلا لاختلاف الانفعال مع اتحاد العقل و القلب كما جعل السحاب مختلف الانفعال من بسط وتقطع مع اتحاد الفعل و هو خروج الودق من خلاله»[3] .

فهذه الآيات وغيرها تبرز لنا سمة الكون الأساسية و هي التبدل و التغير و الحركة ومن ثم تلفت انتباهنا إلى القدرة الإلهية و إلى سنة الله التي بثها في النفس والآفاق و في هذا يقول الدكتور جمال الدين عطية : «... أن التغير هو الأصل في الحياة فيزيائيا وبيولوجيا، واجتماعيا، وتاريخيا... فليس قاصرا على القيم العقدية والخلقية فحسب ولكنه شامل لجميع القيم الأخرى الاقتصادية والاجتماعية و السياسية...»[1] وما التغيرات الاجتماعية إلا مظهر من مظاهر سنة التغير الشاملة .

إن القرآن لا يقف عند إعطاء سنة التغير بعدا كونيا بل يصبغ عليها طابعا عقديا فهو يلزم المسلم على الاعتقاد بأن هذا الكون بنظامه و أجرامه و كل خصائصه، سيتغير ويزول في لحظة من اللحظات، كما أن الإنتقال من الحياة الأولى —

---

[1] فاطر : الآية ،27 ، 28 .

[2] الروم : الآية ، 48 ، 49 ، 50 ، 51.

[3] محمد الطاهر بن عاشور التحرير والتنوير ج20 ص122.

[1] جمال الدين عطية "التغير هو الأصل" مجلة المسلم المعاصر (ع22 سنة 1980) الكويت ص:5.

الدنيا ــ إلى الحياة الآخرة يمر بتغيرات عجيبة و رهيبة في آن واحد، و صورة هذا التغير تنطبع في أذهاننا ونحن نقرأ مثل هذه الآيات: ﴿ يَوْمَ تُبَدَّلُ الْأَرْضُ غَيْرَ الْأَرْضِ وَالسَّمَاوَاتُ وَبَرَزُوا لِلَّهِ الْوَاحِدِ الْقَهَّارِ﴾[2] ﴿فَإِذَا نُفِخَ فِي الصُّورِ نَفْخَةٌ وَاحِدَةٌ وَحُمِلَتِ الْأَرْضُ وَالْجِبَالُ فَدُكَّتَا دَكَّةً وَاحِدَةً فَيَوْمَئِذٍ وَقَعَتِ الْوَاقِعَةُ وَانْشَقَّتِ السَّمَاءُ فَهِيَ يَوْمَئِذٍ وَاهِيَةٌ..﴾[3]، ﴿ إِذَا الشَّمْسُ كُوِّرَتْ وَ إِذَا النُّجُومُ انْكَدَرَتْ وَإِذَا الْجِبَالُ سُيِّرَتْ وَإِذَا الْعِشَارُ عُطِّلَتْ وَإِذَا الْوُحُوشُ حُشِرَتْ وَإِذَا الْبِحَارُ سُجِّرَتْ وَإِذَا النُّفُوسُ زُوِّجَتْ وَ إِذَا الْمَوْؤُدَةُ سُئِلَتْ بِأَيِّ ذَنْبٍ قُتِلَتْ .﴾[4] ، نتصور حجم التغير الذي يصيب الكون بما فيه و من فيه يقول الإمام محمد عبده تعليقا على الحوادث التي ذكرها الله في سورة التكوير إعلان عن التغير السائد الذي يصيب الكون ﴿... و الحوادث التي تقع في أول القيامة إلى ساعة الحساب، على ما هو في الصورة هي :

أولا تكوير الشمس و تكويرها ، دهورها ، وسقوطها ، وذلك عند خراب العالم الذي يعيش فيه الحي حياته الدنيا، فإن عالمه الآخر الذي ينقلب إليه لا يبقى فيه شيء من هذه الأجرام ، فالشمس تسقط، ويمحى ضوؤها وثانيا إنكدار النجوم وهو فناءها وانقضاضها ويمحى لآلاؤها.. وتسير الجبال يكون عند الرجفة التي تزلزل الأرض فتقطع أوصالها وتنفصل منها أجبالها فتسير مقدوفة في الفضاء، وقد تمر على الرؤوس مر السحاب وهذه الحوادث تقع متى جاء الأجل، واقتضت الحكمة الإلهية أن تخرب الأرض ويتبدل نظام الكون الحاضر بالنظام الذي يستقر عليه أمره بعد ذلك الإضطراب» [1].

---

[2] إبراهيم : الآية ، 48 .

[3] الحاقة : الآية ، 14 ، 15 ، 16 .

[4] التكوير : الآية 1...9 .

[1] محمد عبده تفسير جزء عم مطبعة دار الكتاب سنة 1982 الجزائر ص:28.

فهذا التغير الهائل الذي يصيب الكون هو في حقيقة الأمر نهاية مرحلة لبداية مرحلة أخرى تستوعب الكائن البشري، هذا الإعتقاد يجعل المسلم في حالة استعداد دائم يتوقع حدوثه بين اللحظة والأخرى ، نلمس هذا في سلوكه وتصرفاته وجميع أحواله .

إن القرآن الكريم حينما يعرض سنة التغيير إنما يعرضها في إطار القانون العام الذي يحكم الحياة من مبدئها إلى منتهاها. فمظاهر التغير التي تعتري الحياة هي جزء من النظام العام الذي خلق الله عليه الكون و الإنسان والحياة ، و هنا يتضح الفرق بين المدلول القرآني للتغير و ما تعرضه المدارس الاجتماعية من الآراء والتصورات.

جامعة الأمير عبد القادر للعلوم الإسلامية

**رابعا : التغـــير الاجتمـــاعي :**

إن التغير مـــن حيـــث كونـــه قانونـــا و ســـنةتنتظـــم الحيـــاة الاجتماعيـــة للإنســـان ، في إطار سنة التغيير الشاملة أقـــر بـــه القـــرآن بوضـــوح ، ولأدل علـــى ذلـــك قولـــه تعـــالى: ﴿ ذَٰلِكَ بِأَنَّ اللَّهَ لَمْ يَكُ مُغَيِّرًا نِّعْمَةً أَنْعَمَهَا عَلَىٰ قَوْمٍ حَتَّىٰ يُغَيِّرُوا مَا بِأَنفُسِهِمْ ﴾ [1]، وقولـــه تعـــالى : ﴿ إِنَّ اللَّهَ لَا يُغَيِّرُ مَا بِقَوْمٍ حَتَّىٰ يُغَيِّرُوا مَا بِأَنفُسِهِمْ... ﴾ [2]، إلا أننـــا نتســـاءل عـــن حقيقتـــها الـــتي تبدو عليها في هذا الجانب من حيـــاة الإنســـان و عـــن الآليـــات الـــتي تتـــم بهـــا و المســـار الـــذي تنتهجـــه.

فبغض النظر عن الآيـــات الـــتي تنـــص صراحـــة علـــى أن التغـــير حقيقـــة ملموســـة وســـنة تحكـــم الاجتمـــاع البشـــري ، و وردت في القـــرآن الكـــريم جملـــة مـــن الأســـاليب و القضايـــا تحمل في طياتهـــا مظـــاهر هـــذه الســـنة و تؤكـــد هـــي الأخـــرى أن المجتمـــع الإنســـاني بجميـــع أشكاله و ألوانه وتراكيبـــه يخضـــع لهـــا خضوعـــا كليـــا ، إن اســـتقرائي للقـــرآن الكـــريم جعلـــني أقف على جملة من الأساليب تتجلى من خلالهـــا مظـــاهر هـــذه الســـنة أوجزهـــا فيمـــا يلـــي :

**أ ــ دلالات الكلمـــات و الألفـــاظ:**

اللغة هي القـــالب الـــذي يعكـــس حجـــم التبـــدلات و التغـــيرات الـــتي يشـــهدها مجتمـــع من المجتمعات أو أمة مـــن الأمـــم ، فكـــل تغـــير يحـــدث يـــترك أثـــرا بـــارزا ، يتجلـــى ذلـــك في جملة المصطلحات الوافـــدة أو المولـــدة . وهـــذه حقيقـــة يعكســـها الواقـــع المعيـــش؛ لقـــد تعـــامل القرآن بجملـــة مـــن الكلمـــات والألفـــاظ غايـــة في الدقـــة ، تحمـــل معـــان اجتماعيـــة ونفســـية تشكل في مجملـــها مـــادة اجتماعيـــة جديـــرة بالتـــأمل و الدراســـة وردت غيرمـــا مـــرة كلفظـــة الأمة و الأجـــل ، القـــرن ، الهـــلاك ، التغـــير ، النشـــأة ... فـــالمتتبع للســـياقات القرآنيـــة الـــتي وردت فيـــها أمثـــال هـــذه الكلمـــات والمصطلحـــات يجدهـــا تحـــق مصطلحـــات اجتماعيـــة ترسم بوضوح خط التغيرات الاجتماعيـــة الـــتي مـــر بهـــا المجتمـــع الإنســـاني ، فـــهي تعـــبر عـــن

---

[1] الأنفال : الآية 53 .

[2] الرعد : الآية 11 .

موجود اجتماعي يتحرك ويتغير له حياة وله موت ، له بداية و له نهاية ، كالأفراد تماما ، كذلك وردت في القرآن الكريم بصيغ الجمع و الإفراد الدالة على التنوع والاختلاف و أضيف إليها الأجل في العديد من الآيات؛ إن هذه المصطلحات و الكلمات تعبر عن مجتمعات متعددة و مختلفة عرفتها الإنسانية تعكس حالتها الاجتماعية ، لا شك أن هذه الحالات متغيرة و مختلفة، و إلا لما وردت بالصورة التي عليها في القرآن، إن مثل هذه الأساليب هي التي جعلت علماء التفسير يفرقون بين القرآن المكي والقرآن المدني من حيث الألفاظ المستعملة و المواضيع المعالجة، و هذا يعود في حقيقة الأمر إلى التطور و التغير الذي حدث للمجتمع الإسلامي، فمواكبة لهذا التطور و التغير اختلفت الألفاظ و تنوعت و تعددت الموضوعات بعدما كانت في الغالب تهتم بأمر العقيدة و ما يتبعها، فلما استقر المجتمع الإسلامي تطلب الأمر منظومة تشريعية و قانونية عكستها الآيات النازلة في تلك الفترة، و مثل هذه اللفتات هي التي جعلت ابن خلدون يقف على حقيقة التغيرات التي تعتري الدول والأمم ، فنص على أن أية دولة تمر في الغالب بثلاث مراحل عبر عنها بالأجيال ، إذ يقول: «الدولة في الغالب لا تعدو أعمار ثلاثة أجيال. والجيل هو عمر الشخص الواحد من العمر الوسيط. فيكون أربعين الذي هو انتهاء النمو والنشأة إلى نهايته قال تعالى : ﴿ حَتَّىٰ إِذَا بَلَغَ أَشُدَّهُ وَبَلَغَ أَرْبَعِينَ سَنَةً﴾[1] و لهذا قلنا أن عمر الشخص الواحد هو عمر الجيل ويؤيده ما ذكره في حكمة التيه الذي وقع في بني إسرائيل وأن المقصود بالأربعين هو فناء جيل الأحياء و نشأة جيل آخر لم يعهدوا الذل و لا عرفوه فدل على اعتبار الأربعين في عمر الجيل هو عمر الشخص الواحد...» [2].

وحقيقة الانتقال و التغير التي نص عليها ابن خلدون إنما استقاها أولا من حقائق القرآن بدليل الآيات التي استشهد بها ، وثانيا من استقرائه للتاريخ و حوادثه

---

[1] الأحقاف : الآية 15.

[2] عبد الرحمان بن خلدون المقدمة ص: 170.

باعتباره مؤرخا و والواقع الذي عاصره من قيام دول وسقوطها، والتغيرات التي حدثت في العالم آنذاك .

**ب ــ تعدد وتنوع صورة المجتمع الإنساني :**

لا يقف القرآن على حدود و مشارف الكلمات و المصطلحات ، وإنما يعرض علينا جملة من المجتمعات الإنسانية ناهزت الثلاثين مثلما هو مبين في **القرءان الكريم** .

والشيء الملفت للانتباه أن كل مجتمع منها يختلف عن جميع المجتمعات الأخرى المعروضة فيه غير أننا إذا أمعنا النظر تبين لنا أن هذا الاختلاف يعود في حقيقة الأمر إلى العرض الذي يقدم به القرآن هذه المجتمعات ، فتجده في عرضه لها يبرز العوامل التي أدت إلى إحداث وإيجاد التغيير و الظواهر الناتجة عن هذه العمليات إلى غير ذلك من الأساليب و القضايا يعرض علينا القرآن مجتمعات وقرى بأسمائها ومسمياتها ، أصبحت أثرا بعدما كانت عينا ــ قد لا نجد لها ذكر في كتب التاريخ ــ يعيش معها عبادها ومعاملتها حياتها ومماتها ، ثم يتركها وقد عملت فيها سنة التغيير إما بالهلاك أو الاستئصال من الآيات القرآنية التي ألمحت إلى كثرة وتنوع وتعدد المجتمعات الإنسانية قوله تعالى ﴿ذَٰلِكَ مِنْ أَنبَاءِ الْقُرَىٰ نَقُصُّهُ عَلَيْكَ مِنْهَا قَائِمٌ وَحَصِيدٌ وَمَا ظَلَمْنَاهُمْ وَلَٰكِن ظَلَمُوا أَنفُسَهُمْ فَمَا أَغْنَتْ عَنْهُمْ آلِهَتُهُمُ الَّتِي يَدْعُونَ مِن دُونِ اللَّهِ مِن شَيْءٍ لَّمَّا جَاءَ أَمْرُ رَبِّكَ وَمَا زَادُوهُمْ غَيْرَ تَتْبِيبٍ وَكَذَٰلِكَ أَخْذُ رَبِّكَ إِذَا أَخَذَ الْقُرَىٰ وَهِيَ ظَالِمَةٌ إِنَّ أَخْذَهُ أَلِيمٌ شَدِيدٌ﴾ [1] يعرض علينا القرآن مجتمع نوح [2] عليه السلام و قد تغيرت فيه القيم والتصورات و اختلط فيه الحق بالباطل، و حاد الناس

---

[1] هود : 100 ، 101 ، 102 .

[2] هو نوح بن لامك بن متوشلخ بن خنوخ ــ وهو إدريس ــ بن يرد إبن مهلا ييل بن قينن بن أنوشن بن شيث بن آدم أبي البشر عليه السلام. ولد بعد وفاة آدم عليه السلام بـ مئة وستة وعشرين سنة على ما ذكره إبن جرير الطبري، ويروى عن أهل الكتاب أنه كان بين موت آدم ومولد نوح عليهما السلام عشرة قرون، فيروي أن أبا سلام قال سمعت أبا أمامة أن رجلا قال يا رسول الله: أنبي كان آدم؟ قال نعم مكلم، قال فكم بينه و بين نوح ؟ قال عشرة قرون، قال الحاكم على شرط مسلم و لم يخرجه، وفي صحيح البخاري عن ابن عباس قال: كان بين آدم ونوح عشرة قرون كلهم على الإسلام. قصص الأنبياء إبن كثير ص :61.

عن منهج التوحيد فتوجهوا بالعبادة لغير الله واختلقوا آلهة من واقعهم ، فانعكس ذلك على سلوكاتهم فظهرت فيهم الطبقية والاستعلاء وازدراء الناس وتمكنت الأنانية من قلوبهم ورفضوا دعوة كل مصلح حتى و لو كان هذا المصلح نبيا من قبل الله ، صورة هذا التغيير الذي حدث بكل تفاصيله ترسمه آيات القرآن الكريم في صور شتى و مواضع مختلفة منها قوله تعالى : ﴿فَقَالَ الْمَلَأُ الَّذِينَ كَفَرُوا مِن قَوْمِهِ ، مَا نَرَاكَ إِلَّا بَشَرًا مِّثْلَنَا وَمَا نَرَاكَ اتَّبَعَكَ إِلَّا الَّذِينَ هُمْ أَرَاذِلُنَا بَادِيَ الرَّأْيِ وَمَا نَرَى لَكُمْ عَلَيْنَا مِن فَضْلٍ بَلْ نَظُنُّكُمْ كَاذِبِينَ﴾ [1] ﴿وَقَالُوا لَا تَذَرُنَّ آلِهَتَكُمْ وَلَا تَذَرُنَّ وَدًّا وَلَا سُوَاعًا وَلَا يَغُوثَ، وَ يَعُوقَ وَنَسْرًا وَقَدْ أَضَلُّوا كَثِيرًا ، وَلَا تَزِدِ الظَّالِمِينَ إِلَّا ضَلَالًا﴾ [2] ﴿ قَالَ رَبِّي إِنِّي دَعَوْتُ قَوْمِي لَيْلًا وَنَهَارًا فَلَمْ يَزِدْهُمْ دُعَائِي إِلَّا فِرَارًا وَ إِنِّي كُلَّمَا دَعَوْتُهُمْ لِتَغْفِرَ لَهُمْ جَعَلُوا أَصَابِعَهُمْ فِي آذَانِهِمْ وَاسْتَغْشَوْا ثِيَابَهُمْ وَأَصَرُّوا وَاسْتَكْبَرُوا اسْتِكْبَارًا ثُمَّ إِنِّي دَعَوْتُهُمْ جِهَارًا ثُمَّ إِنِّي أَعْلَنتُ لَهُمْ وَأَسْرَرْتُ لَهُمْ إِسْرَارًا﴾ [3] ﴿وَقَالَ نُوحٌ رَّبِّ لَا تَذَرْ عَلَى الْأَرْضِ مِنَ الْكَافِرِينَ دَيَّارًا إِنَّكَ إِن تَذَرْهُمْ يُضِلُّوا عِبَادَكَ وَلَا يَلِدُوا إِلَّا فَاجِرًا كَفَّارًا﴾ [4].

فبعد تلك القرون الصالحة كما يقول ابن كثير : حدثت أمور اقتضت أن آل الحال بأهل ذلك الزمان إلى عبادة الأصنام ، والسبب في ذلك ما رواه البخاري من حديث "ابن عباس عند تفسيره الآية الرابعة و العشرين من سورة نوح عليه السلام. قال هذه الأسماء رجال صالحين من قوم نوح ، فلما هلكوا أوحى الشيطان إلى قومهم أن أنصبوا إلى

---

[1] هود : الآية 27.

[2] نوح : الآية 23 ، 24.

[3] نوح : الآية 5...9.

[4] نوح : الآية 26، 27.

مجالسهم التي كانوا يجلسون عليها أنصابا وسموها بأسمائهم ففعلوا فلم تعبد ، حتى إذا هلك أولئك و انتسخ العلم عبدت" [1].

لم يعد لقوم نوح غاية بعد انحراف القيم و فساد العقيدة إلا غواية الناس و الصد عن ذكر الله و الإفساد في الأرض فطهر الله الأرض من رجسهم و فسادهم ، و اقتضت حكمته أن تتغير الأوضاع فكانت سنة الله لهم بالمرصاد يشير القرآن إلى الآيات التي تم وفقها هذا التغيير بقوله ﴿فَكَذَّبُوهُ فَأَنْجَيْنَاهُ وَالَّذِينَ مَعَهُ فِي الْفُلْكِ وَ أَغْرَقْنَا الَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا إِنَّهُمْ كَانُوا قَوْمًا عَمِينَ﴾ [2] وصورة أخرى لمجتمع آخر يعرضه القرآن لا مجال فيه للضعيف شعاره القوة و الجبروت ، بلغت فيه الحضارة مبلغا عظيما فسخروا الأرض و نحتوا الجبال و عمروها زمنا طويلا حتى أن الرجل منهم يقف على بيته وقد اهمد بتقادم الزمن .

هذه الصورة باختصار هي صورة مجتمع قوم عاد[3] و ثمود [4] يعرضها القرآن في بعض آيات استوعبت جميع جوانب هذا المجتمع و لخصت جملة التغيرات التي حدثت على مستواه يقول الله تعالى : ﴿ وَيَا قَوْمِ اسْتَغْفِرُوا رَبَّكُمْ ثُمَّ تُوبُوا إِلَيْهِ ، يُرْسِلِ السَّمَاءَ عَلَيْكُمْ مِدْرَارًا وَ يَزِدْكُمْ قُوَّةً إِلَى قُوَّتِكُمْ وَلَا تَتَوَلَّوْا مُجْرِمِينَ ، قَالُوا يَا هُودُ مَا جِئْتَنَا بِبَيِّنَةٍ وَمَا نَحْنُ بِتَارِكِي آلِهَتِنَا عَنْ قَوْلِكَ وَ مَا نَحْنُ لَكَ بِمُؤْمِنِينَ ﴾[1] ﴿كَذَّبَتْ عَادٌ

---

[1] ابن كثير قصص الأنبياء (مرجع سابق) ص : 63.

[2] الأعراف : الآية 64.

[3] عاد أمة عظيمة من العرب العاربة كان عددهم عشر قبائل، وقيل ثلاثة عشر قبيلة، ينسبون إلى عاد بن عوص هو إبن إرم بن سام بن نوح، كانت مساكنهم ما بين الشحر وعمان و حضرموت بالأحقاف، أرسل الله إليهم نبيه هود عليه السلام وفي نسبه اختلاف فقيل من ذرية عاد بن سام جد عاد وليس من ذرية عاد و القائلون بهذا قالوا هود بن شالخ بن أرفخشد بن سام بن نوح وذكر البغوي عن علي أن قبر هود بين الركين و المقام وزمزم.

[4] أمة عظيمة من العرب البائدة وهم أبناء ثمود بن جائر بن إرم بن سام، بن نوح، يلتقون مع عاد في إرم ، كانت منازلهم بالحجر بين الحجاز والشام وهو المكان المسمى الآن مدائن صالح، أرسل الله لهم نبيه صالح عليه السلام وهو إبن عبيل بن جائر ويقال كافر بن ثمود.

[1] هود : الآية 52 ، 53 .

المُرْسَلِينَ إِذْ قَالَ لَهُمْ أَخُوهُمْ هُودٌ أَلاَ تَتَّقُونَ إِنِّي لَكُمْ رَسُولٌ أَمِينٌ فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَطِيعُونِ ، وَمَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ إِنْ أَجْرِيَ إِلاَّ عَلَى رَبِّ الْعَالَمِينَ أَتَبْنُونَ بِكُلِّ رِيعٍ آيَةً تَعْبَثُونَ وَتَتَّخِذُونَ مَصَانِعَ لَعَلَّكُمْ تَخْلُدُونَ وَإِذَا بَطَشْتُمْ بَطَشْتُمْ جَبَّارِينَ،فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَطِيعُونِ، وَاتَّقُوا الَّذِي أَمَدَّكُمْ بِمَا تَعْلَمُونَ أَمَدَّكُمْ بِأَنْعَامٍ وَبَنِينَ وَجَنَّاتٍ وَعُيُونٍ ...﴾ [2] ﴿كَذَّبَتْ ثَمُودُ الْمُرْسَلِينَ إِذْ قَالَ لَهُمْ أَخُوهُمْ صَالِحٌ أَلاَ تَتَّقُونَ إِنِّي لَكُمْ رَسُولٌ أَمِينٌ فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَطِيعُونِ وَمَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ إِنْ أَجْرِيَ إِلاَّ عَلَى رَبِّ الْعَالَمِينَ أَتُتْرَكُونَ فِيمَا هَاهُنَا آمِنِينَ﴾ [3] ﴿وَتَنْحِتُونَ مِنَ الْجِبَالِ بُيُوتًا فَرِهِينَ فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَطِيعُونِ وَلاَ تُطِيعُوا أَمْرَ الْمُسْرِفِينَ الَّذِينَ يُفْسِدُونَ فِي الأَرْضِ وَلاَ يُصْلِحُونَ﴾ [4].

إن مجتمعا يقوم على هذه المواصفات يحمل بذور فنائه في ذاته و لذلك كانت سنة الله لهم بالمرصاد ، فعصفت بهم رياح التغيير . يبين الله آليات هذا التغيير في قوله ﴿فَأَمَّا عَادٌ فَاسْتَكْبَرُوا فِي الأَرْضِ بِغَيْرِ الْحَقِّ وَقَالُوا مَنْ أَشَدُّ مِنَّا قُوَّةً أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّ اللَّهَ الَّذِي خَلَقَهُمْ هُوَ أَشَدُّ مِنْهُمْ قُوَّةً وَكَانُوا بِآيَاتِنَا يَجْحَدُونَ فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ رِيحًا صَرْصَرًا فِي أَيَّامٍ نَحِسَاتٍ لِنُذِيقَهُمْ عَذَابَ الْخِزْيِ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَلَعَذَابُ الآخِرَةِ أَخْزَى وَهُمْ لاَ يُنْصَرُونَ وَأَمَّا ثَمُودُ فَهَدَيْنَاهُمْ فَاسْتَحَبُّوا الْعَمَى عَلَى الْهُدَى فَأَخَذَتْهُمْ صَاعِقَةُ الْعَذَابِ

---

[2] الشعراء : الآية 124...134.

[3] الشعراء : الآية 142...147.

[4] الشعراء : الآية 149 ، 150.

الْهُونِ بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ﴾ [1].

و لم يبق من هذا المجتمع إلا أثارا تشهد على قدرة الله وعبرة لم يعتبر فعن ابن عمر رضي الله عنه قال: لما نزل رسول الله ﷺ بالناس على تبوك نزل بهم الحجر عند بيوت ثمود،فاستسقى الناس من الأبار.التي كانت تشرب منها ثمود،ونصبوا القدور:فأمرهم رسول الله ــ ص ــ فأرهقوا القدور وعلفوا العجين للإبل،ثم ارتحل بهم حتى نزل على البئر التي كانت تشرب منها الناقة، ونهاهم أن يدخلوا على القوم الذين عذبوا فَقَالَ إِنِي أَخْشَى أَنْ يُصِيبَكُمْ مِثْلُ مَا أَصَابَهُمْ فَلَا تَدْخُلُوا عَلَيْهِمْ )[2] .

غير أن صورة مجتمع لوط[3] عليه السلام تختلف عن كل المجتمعات الإنسانية التي عرضها القرآن الكريم، فلم تعد المرأة مطمح الرجل ولا بغيته كما اختفى فيه ميزان الأخلاق من واقع تعامل الناس وأضحى العفاف والطهر يستحق فاعلها النفي والإبعاد يقول ابن كثير في وصف هذا المجتمع:"ولها أهل من أفجر الناس وأكفرهم وأسوأهم طوية وأردأهم سريرة وسيرة، يقطعون السبيل ويأتون في ناديهم المنكر،ولا يتناهون عن منكر فعلوه لبيس ما كانوا يفعلون"[4]يعرض الله تبارك وتعالى مواصفات هذا المجتمع على لسان نبيه لوط عليه السلام بقوله:﴿وَجَاءَهُ قَوْمُهُ يُهْرَعُونَ إِلَيْهِ وَمِنْ قَبْلُ كَانُوا يَعْمَلُونَ السَّيِّئَاتِ قَالَ يَا قَوْمِ هَؤُلَاءِ بَنَاتِي هُنَّ أَطْهَرُ لَكُمْ فَاتَّقُوا اللَّهَ وَلَا تُخْزُونِي فِي ضَيْفِي أَلَيْسَ مِنْكُمْ رَجُلٌ رَشِيدٌ قَالُوا لَقَدْ عَلِمْتَ مَا لَنَا فِي بَنَاتِكَ مِنْ حَقٍّ وَإِنَّكَ لَتَعْلَمُ مَا نُرِيدُ﴾[5].

---

[1] فصلت : ص16 ، 17.

(2)مسلم بن حجاج صحيح مسلم مج4 كتاب الزهد والرقائق ح رقم 40 ص 2286.

(3) كان خليطا من الكنعانيين وممن نزل حولهم و لذلك لم يوصف بأنه أخوهم لأنه لم يكن من قبائلهم، كانوا يسكنون على شاطئ البحر الميت، أرسل الله إليهم نبيهم لوط عليه السلام وهو إبن أخ إبراهيم عليه السلام. "قصص الأنبياء".

[4] ابن كثير قصص الأنبياء ص192.

(5)هود : الآية 78 ، 79.

﴿ وَلُوطًا إِذْ قَالَ لِقَوْمِهِ أَتَأْتُونَ الْفَاحِشَةَ وَأَنْتُمْ تُبْصِرُونَ أَئِنَّكُمْ لَتَأْتُونَ الرِّجَالَ شَهْوَةً مِنْ دُونِ النِّسَاءِ بَلْ أَنْتُمْ قَوْمٌ تَجْهَلُونَ فَمَا كَانَ جَوَابَ قَوْمِهِ إِلَّا أَنْ قَالُوا أَخْرِجُوا آلَ لُوطٍ مِنْ قَرْيَتِكُمْ إِنَّهُمْ أُنَاسٌ يَتَطَهَّرُونَ ﴾ [1].

يقول السيد قطب في معرض حديثه عن هذا المجتمع وعن الظاهرة اللوطية التي سادته"... هذه ظاهرة غريبة في تاريخ الجماعات البشرية ، قد يشذ أفراد لأسباب نفسية ، أو لملابسات وقتية فيميل لإتيان الذكور،وأكثر ما يكون هذا في معسكرات الجنود حيث لا توجد النساء أو في السجون التي يقيم بها المسجونون فترات طويلة معرضين لضغط الميل الجنسي محرومين من الاتصال بالنساء،إما أن يشيع هذا الشذوذ فيصبح القاعدة في بلد بأسره مع وجود النساء وتيسر الزواج فهذا هو الحادث...الغريب في تاريخ الجماعات البشرية..."[2].

إن فساد الأخلاق و تفسخ المجتمع ظاهرة اجتماعية انفرد بها قوم لوط دون العالمين و غدت سلوكا عاما يصبغ حياتهم الإجتماعية ، يعرض القرآن الكريم نموذجا آخر لمجتمع إنساني سادته ظاهرة متميزة جعلته ينفرد عن كل المجتمعات الإنسانية الأخرى ويتعلق الأمر بمجتمع مدين [3]. وما ساده من فساد اقتصادي واستغلال للناس وإنحاص حقوقهم المدية والمالية،ذكر ابن كثير بعض أوصاف هذا المجتمع فقال" كان أهل مدين كفارا يقطعون السبيل و يخيفون المارة، ويبعدون الأيكة ... وكانوا أسوأ الناس معاملة ، و يبخسون المكيال و الميزان،ويطففون فيهما، ويأخذون بالزائد ويدفعون بالناقص قال السدي:إنهم كانوا يأخذون العشور من أموال المارة، وقال ابن إسحاق

---

[1] النمل : الآية 54، 55، 56 .

[2] سيد قطب في ظلال القرآن م ج19 ص: 2674. ط

[3] أمة سميت باسم جدها مدين بن إبراهيم الخليل عليه السلام،من زوجته الثالثة التي تزوجها في آخر عمره،و تزوج مدين ابنة لوط عليه السلام كانت مساكنهم بين الحجاز و خليج العقبة بقرب ساحل البحر الأحمر و تسمى بالأيكة ، أرسل الله إليهم رسوله شعيب و هو من بني جلدتهم،و شعيب هذا هو الذي زوج ابنته من موسى عليه السلام نضير عمله عنده عشرة سنين ذكر الله ذلك في سورة القصص

عن ابن عباس قال : كانوا قوما طغاة يجلسون على الطريق ، يبخسون الناس يعني يعشرونهم و كانوا أول من سن ذلك " [1] .

إن الظلم الاجتماعي و كذا الفروقات الاجتماعية التي سادت مجتمع مدين هي نتيجة الحيف الاقتصادي والخطة الاقتصادية التي انتهجتها أكابر القوم الهادفة،إلى الربح السريع على حساب بقية الناس ، هذا الواقع المعيش واقع غير طبيعي لابد أن يتغير ، وسيزول حتما ، فلم تلبث أن تدخلت سنة التغيير لإقامة العدل و القسطاس و إعادة الحياة إلى مسارها الصحيح.

هذه عينات من مجتمعات كثيرة ذكرت في القرآن الكريم في فترات مختلفة تبرز فيها التغيرات الاجتماعية التي حدثت والظواهر الاجتماعية التي سادت المجتمع البشري .

إن هذا التحليل يقدم تصورا دقيقا عن سنة التغير التي يخضع لها الاجتماع البشري فهو لا يكاد يستقر على وضع حتى يتخذ وضعا آخر و لا يكاد يعرف ظاهرة و يطمئن إليها حتى تبرز ظاهرة أخرى ، و بالجملة : فسنة التغيير الاجتماعي سنة من السنن التي تحكم الاجتماع البشري بشرط توفر أسبابها و مسبباتها .

---

[1] ابن كثير قصص الأنبياء ص: 208 .

جامعة الأمير عبد القادر للعلوم الإسلامية

ج- الأحكام التشريعية :

إن مـــن أبرز الدلائل على سنة التغيير الاجتماعي التي يخضع لها المجتمع البشري ، الأحكام التشريعية والتنظيمية ، لأن أي تغير وتبدل في الحياة الاجتماعية يتطلب إضافة أحكام وتشريعات جديدة وإلغاء أخرى قديمة لم تعد تلبي رغبات وطموحات المجتمع. نلمس هذا جليا في القرآن الكريم إذ نجد اختلافا بين الاحكام التي جاء بها و التشريعات والأحكام التي جاءت على لسان الانبياء والمرسلين السابقين، مع أن القرآن يقرر وحدة الدين ويعتبر أن الرسل والأنبياء يستقون من مبع واحد، بدليل قوله تعالى : [**شَرَعَ لَكُمْ مِنَ الدِينِ مَا وَصَىٰ بِهِ نُوحًا وَالذِي أَوْحَينَا إِلَيْكَ، وَمَا وَصَينَا بِهِ إِبْرَاهِيمَ وَمُوسَىٰ وَعِيسَىٰ أَنْ أَقِيمُوا الدِينَ وَلَا تَفَرَقُوا فِيهِ كَبُرَ عَلَىٰ المُشْرِكِينَ مَا تَدْعُوهُمْ إِلَيهِ...**][1] إلا أمننا لو أمعنا النظر جيدا لوجدنا أن وحدة الدين التي أعلنها القرآن تنسحب على الجانب العقدي منه فحسب، أما الجانب التشريعي مـــنه فيختـــلف مـــن رسالة الى أخرى ، لأن كل نبي أرسل الى قومه بالأحكام التي تتوافق مع طبيعتهم ومـــنهجهم في الحياة بدليل قوله تعالى[ **وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ رَسُولٍ إِلَّا بِلِسَانِ قَوْمِهِ لِيُبَيِّنَ لَهُمْ...**] [2] فالأحكـــام التي جاءت بها الشرائع السماوية تعطينا صورة حقيقية عن مجتمعاتهم والظواهر الاجتماعية التي ســـادتها وورد في القرآن الكريم ذكر بعضها من هذه الاحكام و التشريعات كقوله تعالى :[ **وَعَلَى الذِينَ هَادُوا حَرَمْنَا كُلَ ذِي ظُفُرٍ وَمِنَ البَقَرِ وَ الغَنَمِ حَرَمْنَا عَلَيْهِمْ شُحُومَهُمَا إِلَّا مَا حَمَلَتْ ظُهُورُهُمَا أَوِ الحَوَايَا أَوْ مَا اخْتَلَطَ بِعَظْمٍ ذَلِكَ جَزَينَاهُمْ بِبَغْيِهِمْ وَإِنَّا لَصَادِقُونَ**] [3] يقول الإمام الرازي تعليقا عـــلى قول الله تعالى :[ **وَلِأُحِلَ لَكُمْ بَعْضَ الذِي حُرِمَ عَلَيْكُمْ...**][4] إن الأخبار كانوا قد وضعوا من عند أنفسهم شرائع باطلة ونسبوها الى موسى فجاء عيسى عليه السلام ورفعها وأبطلها وأعاد الأمر الى ما كان في زمن موسى ... وأن الله قد حرم بعض الأشياء على اليهود عقـــوبة مما صـــدر منهـــم من

---

(1) الشورى : الآية 13.

(2) إبراهيم : الآية 4.

(3) الأنعام : الآية 146.

(4) آل عمران : الآية 50.

الجنايات كما قاله تعالى: ﴿ فَبِظُلْمٍ مِنَ الذِينَ هَادُوا حَرَّمْنَا عَلَيْهِمْ طَيِّبَاتٍ أُحِلَّتْ لَهُمْ ﴾ [1] ثم بقي التحريم مستمرا على اليهود فجاء عيسى عليه السلام ورفع تلك التشديدات عنهم "[2] فشدة الأحكام التي تبدوا في شريعة موسى عليه السلام . تعطينا صورة عن واقع بني إسرائيل في تلك الفترة يعرض العلامة محمد عبده لبعض خصائص مجتمع بني إسرائيل فيقول ( ..ثم حرم الله عليهم بعض الطيبات في التوراة عقوبة لهم و تأديبا ... و العبرة أنهم شعب غليظ الرقبة متمرد يقاوم الرب ، كما قال موسى عند أخذ العهد عليكم بحفظ الشريعة ) [3] لما اقتضت العناية الإلهية إرسال محمد –ص- زوده الله بشريعة جديدة تتناسب مع الأوضاع التي عليها زمانه و التغيرات التي حدثت و تحدث في العالم مستقبلا فألغى أحكاما و أبقى على أخرى ، و جاء بأحكام جديدة، و أصدق وصف للشريعة الإسلامية ما وصف به جعر بن أبي طالب دعوة الرسول –ص- عندما عرضها على ملك الحبشة النجاشي إبان هجرة المستضعفين لها أيام المحنة ، و من الأحكام التي جاء بها الرسول –ص- قوله –ص- ( وَ أُحِلَّتْ لِي الغَنَائِمُ وَ لَمْ تَحِلَّ لِنَبِي قَبْلِي ...) [4] بل أكثر من ذلك ، إذا واكبت أيات القرآن التغيرات التي حدثت في المجتمع العربي في انتقاله التدريجي من الوثنية إلى الإسلام ، فتغيرت موضوعات القرآن و لم تقتصر على الجوانب العقدية كما كانت عليه في الفترة المكية و غلب عليها الطابع التشريعي و التنظيمي في الفترة التي أعقبتها ، فشرعت الحدود و ذكرت العقود ..و هذا مواكبة للتطورات و التغيرات التي استجدت على المجتمع المسلم بالمدينة بدليل أننا نجد عددا من الأحكام لم تعرف الفصل النهائي إلا بعد مرور فترة زمنية طويلة و السبب يعود إلى ارتباطها بعادات و تقاليد عميقة في المجتمع الجاهلي كالخمر و الزنا و الربا و غيرها ، و في هذا يقول الشيخ محمد الغزالي ( ... و الخلاصة أن الله إرتضى لعباده حكما واحدا في الخمر و في الربا ، و في سائر المحرمات ، و أنه جلت حكمته تلطف في أخذ عباده بهذا الحكم و تدرج في حملهم عليه و ذلك بتهيئة أحوالهم النفسية و الاجتماعية لقبوله و تنفيذه

---

(1) النساء : الآية 160.

(2) الفخر الرازي التفسير مج2 دار إحياء التراث العربي ط2 بيروتلبنان ص:59.

(3) محمد رشيد رضا المنار مج 4 ص : 3.

(4) مسلم بن الحجاج صحيح مسلم مج 3 كتاب الجهاد و السير ح رقم 32 ص : 1366 .

...حـــتى إذا تكاملت الصلاحية المنشودة لتطبيق الحكم المواد ، إنكشف الغطاء الذي كان يتزحزح قـــليلا قليلا عن الحقيقة التشريعية الأزلية )[1] من هذا المنظور نفهم تردد النبي — ص — وإحجامه عن الإقدام على هدم بيت الله الحرام و إعادته على قواعد إبراهيم من قوله للسيدة عائشة أم المؤمنين رضي الله عنها ( لولا أن قومك حديثوا عهد بجاهلية لا نفقت كنز الكعبة في سبيل الله و لجعلت بأبيها بالأرض ...)[2]

مما يعطينا تصورا عن التغيرات التي أحدها القرآن في المجتمع الجاهلي و حجم التراكمات التي كانت تسود المجتمع الجاهلي في تلك الفترة و من ذات المنظور أيضا نفهم فكرة النسخ و المنسوخ التي شغلت بال عـــلماء التفســـير ، يقول الأستاذ عبد الوهاب خلاف ( ...النسخ وقع في التشريع الإلاهي ويقع في كل تشـــريع وضعي لأن المقصود من كل تشريع سواء أكان إلهيا أم وضعيا ، تحقيق مصالح الناس ، و مصالح الناس قد تتغير بتغير أحوالهم ...) [3] . و تماشيا مع سنة التغير نفهم تصرف أمير المؤمنين عمر بن الخطاب رضـــي الله عنه لما أسقط نصيب المؤلفة قلوبهم من الزكاة ، و أدار حد السرقة على السارق عام الرمادة — المجاعة — و مع ثبوت الأدلة —و ضمن هذا الإطار ندرك البعد الحضاري للأئمة الأعلام الذين وضعوا علم الأصـــول و أعتبروا الإجتهاد مصدرا من مصادر الشريعة ، لجعلها تواكب التغيرات التي تحدث و تصيب المجتمع المسلم .

إن الأحكام و التشريعات هي المقياس لصورة التغيرات و الظواهر الاجتماعية التي تسود و تعتري أي مجتمع ، لذلك قرر علماء الشريعة قاعدة جليلة في الفتوة مفادها أن الفتوة تتغير بتغير الأحوال و الأزمنة و الأمكنة :

و في هذا يقول الشيخ المراغي : " ... فإنك لو نظرت إلى سالف الشرائع ترى اليهودية مبنية على الشـــدة ، و ليس لأهلها فيها رأي و اجتهاد ، إذ هي نزلت لقوم ألفوا الذل و الاستعباد ، فوجب أخذهم بالشـــدة و الصـــرامة ، و ترى الشريعة النصرانية تأمر أهلها بأن يسلموا أمرهم للمتغلبين عليهم من أهل الســـلطة و الحكـــم و يقبلون ما يسمون به من ذل و يجعلون عنايتهم بالأمور الروحية و تربية الوجدانات النفسية ...أنظر إلى الإمام الشافعي حين كان بالعراق وضع أسسا للتشريع و الأحكام ( المذهب القديم )

---

(1) محمد الغزالي نظرات في القرآن دار الشهاب سنة 1986 الجزائر ص : 236 .

(2) مسلم بن الحجاج صحيح مسلم مج 2 كتاب الحج ح رقم 400 ص : 969 .

(3) عبد الوهاب خلاف علم أصول الفقه الزهراء ط 1 الجزائر ص : 222 .

فلما انتقل إلى مصر و رأى عادات أهلها و أطوارهم غير كثير من تشريعه إلى ما يناسب الشعب الذي بين ظهرانيه ( المذهب الجديد ) و ما سر هذا إلا ما علمت من خضوع التشريع للزمان و المكان ) [1]

**خامسا : أسس التغير الاجتماعي :**

اتضح مما سبق أن التغير الاجتماعي حقيقة قرآنية غير أن الأشكال الذي بقى عالقا هل العملية التغيرية لا بد لها من أسس تقوم عليها ؟ فإذا كان الأمر كذلك فما هي هذه الأسس ؟

إن المتأمل و المتمعن في العرض القرآني لهذه السنة يدرك أنها تقوم على أسس ثلاث يتم على مستواها العملية التغييرية بجميع أشكالها و أنواعها من أبسطها إلى أعقدها ، و هذه الأسس هي : الأفكار ة التصورات ، الإنسان و الزمان ، و سنعرض لكل منها من خلال هذا المبحث .

**أ – الأفكار و التصورات :**

إن أي تغير يصيب المجتمع ينطلق أساسا من التغيرات التي تصيب الأفكار و التصورات ، فعلى اعتبار الدين جملة من الأفكار و التصورات عن الله و الكون و الإنسان و الحياة تتحدد من خلالها سلوكيات الإنسان وممارساته فإن أي تغير يصيب هذا التصور ينعكس بالضرورة على ممارسات وسلكيات هذا الإنسان في نفسه و محيطه ، لذلك مهمة الأنبياء و الرسل الأولى في أقوامهم هي تغير الأفكار و التصورات الخاطئة التي دفعتهم إلى ارتكاب ما يتعارض و الوجود الإنساني و هدفه و هذا نتيجة لإنحراف عقيدتهم و تصوراتهم ، فلا غرو إذ نجد أن أغلب الآيات القرآنية التي عالجت و تناولت دعوات الأنبياء و الرسل تطرقت إلى النوع من التغيير بدا بآدم عليه السلام إلى آخر رسول مثلما تجسده هذه الآيات قال تعالى : [ **لَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحًا إِلَىٰ قَوْمِهِ فَقَالَ يَا قَوْمِ اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُمْ مِنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُ إِنِّي أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ**[2] ]

[ **وَإِلَىٰ عَادٍ أَخَاهُمْ هُودًا قَالَ يَا قَوْمِ اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُمْ مِنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُ أَفَلَا تَتَّقُونَ** ] [3]

---

[1] أحمد مصطفى المراغي تفسير المراغي ج 6 دار إحياء التراث العربي ص 132 .

[2] الأعراف : الآية : 59 .

[3] الأعراف : الآية : 65

﴿ وإلى ثمود أخاهم صالحا قال يا قوم اعبدوا الله ما لكم من إله غيره قد جاءتكم بينة من ربكم ... ﴾[1] . ﴿ و إلى مدين أخاهم شعيبا قال يا قوم اعبدوا الله ما لكم من إله غيره ... ﴾[2]

﴿ ولقد آتينا إبراهيم رشده من قبل وكنا به عالمين إذ قال لأبيه وقومه ما هذه التماثيل التي أنتم لها عاكفون قالوا وجدنا آباءنا لها عابدين ﴾[3] ﴿ قال فرعون وما رب العالمين قال رب السموات والأرض وما بينهما إن كنتم موقنين ﴾[4] ﴿ أفرأيتم اللات والعزى ومناة الثالثة الأخرى ألكم الذكر وله الأنثى ... ﴾[5] ، لما اعتقد هؤلاء الأقوام أن الحياة الدنيا أبدية لا بعث و لا نشور ، و أن الله هو يعوق و نسرا و يغوث و أن المسيح هو الله أو إبن الله ، و أن هبل رب الأرباب إلى غير ذلك من التصورات ، جعلتهم يتصرفون وفق هذه العقيدة الجديدة ، فعاثوا في الأرض فسادا و إفسادا

و لما كانت الغريزة الدينية تصبغ الحياة الاجتماعية لبني البشر و أمرا مشتركا و مشاعا بين جميع الأجناس البشرية حتى أشدها همجية كما يؤكد ذلك علماء الإنسان و الأنتربولوجية ، فإن أي تغير في طبيعة المجتمع يتوقف على تغير أفكاره و تصوراته الدينية السائدة فيه ، فأوروبا مثلا لم تستطع تغير وضعها السيئ في القرون الوسطى ، و التقدم في مجال العلم و المعرفة ، إلا بعد أن غيرت من أفكارها الدينية و ذلك بالقضاء على أفكار الكنيسة المقيدة لحرية الفكر و العقل المنتهكة لكرامة الإنسان ، كما أن ماركس ما كان له لينجح في مسعاه إلا بعد أن أقنع الناس بضرورة الإنعتاق من الأفكار السائدة آنذاك باسم الدين ، و التي تجعل العامل عبدا لرب المال – إذ ضربك على خدك الأيمن فأدر له خدك الأيسر –و أطلق عبارته المشهورة الدين أفيون الشعوب و الحقيقة أن ماركس لم يقضى على النزعة الدينية أو الدين أساسا كما يظن البعض و إنما استغلها و حولها بما يخدم غايته و هدفه متخذا من الصراع عقيدة و منطلقا و ماركس بهذا العمل لم يكن الأول و لا الأخير الذي يسلك هذا المسلك في تاريخ الإنسانية بل سبقه في ذلك الكثير ،و لقد ضرب لنا القرآن الكريم أمثلة لهؤلاء منهم قوم نوح ، إذ استبدلوا عقيدة التوحيد بالوثنية و الإله الواحد

---

[1] الأعراف : الآية : 73 .

[2] الأعراف : الآية : 85

[3] الأنبياء : الآية : 51-52-53.

[4] الشعراء : الآية 23-24.

[5] النجم : الآية 19-20-21

بالآلهة المتعددة ، و أضفى فرعون على نفسه قداسة الإله ، و اتخذ الأحبار و الرهبان لأنفسهم سلطة التشريع و الغفران ...و هذا كله لأجل تغير الواقع لمصالحهم الدنيوية الضيقة و في هذا يقول المفكر الجزائري مالك بن نبي تأكيداعلى الطابع الروحي للماركسية " ... من هذه الناحية تعد الشيوعية النظرية قبل كل شيء (فكرة ) ماركس ، و لكن هناك شيوعية واقعية ، هي في جوهرها نشاط المؤمنين المدفوعين بالقوى الداخلية نفسها التي دفعت غيرهم من المؤمنين في مختلف العصور و أولئك الذين شهدوا مولد الحضارات ، فالظاهرة متماثلة في جوهرها النفسي و محدودة هنا و هناك بسلوك الفرد نفسه حيال مشاكل المجتمع الناشئ "[1] على هذا الأساس نفهم قول الله تعالى : ﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يُغَيِّرُ مَا بِقَوْمٍ حَتَّىٰ يُغَيِّرُوا مَا بِأَنفُسِهِمْ﴾ [2] وقوله تعالى : ﴿ذَٰلِكَ بِأَنَّ اللَّهَ لَمْ يَكُ مُغَيِّرًا نِّعْمَةً أَنْعَمَهَا عَلَىٰ قَوْمٍ حَتَّىٰ يُغَيِّرُوا مَا بِأَنفُسِهِمْ﴾ [3] و تغير ما بالأنفس تغير الأفكار و التصورات ، يقول الأستاذ محمد باقر الصدر : ( ...إن الوجود الذهني هو الحافز و المحرك ، و المدار لحركة التاريخ ، و هذا الوجود الذهني يجسد من ناحية جانبا فكريا و هو الجانب الذي يضم تصورات الهدف و أيضا يمثل من جانب آخر الطاقة و الإرادة التي تحفز الإنسان نحو الدف ..و بالامتزاج بين الفكر و الإرادة تتحقق فاعلية المستقبل و محركيته للنشاط التاريخي على الساحة الاجتماعية ، و هذان الأمران الفكر و الإرادة ، هما في الحقيقة المحتوى الداخلي الشعوري للإنسان ...) [4] .إن كل تغير و تبدل في المحتوى الداخلي للأفراد و المجتمعات –الوجود الذهني و النفسي –يترتب عليه بالضرورة تغيرا في أحوالهم و أنماط معيشتهم و نظرتهم للكون و الحياة و في هذا يقول الدكتور محمد التومي معلقا على الآيتين السابقتين ( إن الآيتين تضمنتا تقريرا لسنة ثابتة في الاجتماع ، إذ أنهما أبانتا أن ما يعتري حياة الناس الخاصة و العامة و ما ينتابها من ظروف ملائمة و غير ملائمة لا يطرأ عليها عشوائيا و بدون أسباب موضوعية ، و إنما هو مرتبط بما يحدث الناس داخل أنفسهم من عزم إرادي و منوط بما يسلكون من أعمال هي في مقدورهم ، ومتعلق بإلزامات هي في متناولهم ... ) [5] و علق الأستاذ سيد قطب على الآية الثانية فيقول : ( ... إنه من جانب يقرر عدل الله في معاملة العباد ، إذ لم يسلبهم نعمة وهبهم إياها إلا بعد أن

---

[1] مالك بن نبي شروط النهضة ترجمة عبد الصبور شاهين ص: 60 .

[2] الرعد : الآية 11

[3] الأنفال : الآية : 53

[4] محمد باقر الصدر محاضرات ص: 116

[5] محمد التومي المجتمع الإنساني في القرآن ص : 366 ، 367 .

يغيروا نواياهم و يبذلوا سلوكهم و يقلبوا أوضاعهم ، و يستحقوا أن يغير ما بهم مما أعطاهم إياه للابتلاء ، و الاختبار من النعمة التي لم يقدروها و لم يشكروها ...) [1] . فإذا كانت الأفكار و التصورات التي يتبناها أي مجتمع حية ، متجددة ، لا تعرف البلى تستجيب لطموحات و غايات الإنسان ، أي كان وفي أي زمان ، لا شك أنها ستستمر في الوجود مادام عنصر الإنسان موجود ، والحقيقة أن هذه الأوصاف لا تنطبق إلا على الأفكار والتصورات التي يقدمها خالق الإنسان لأنه أعلم به من نفسه أما الأفكار والتصورات الوضعية – التي هي نتاج فكر الإنسان – فإنما تتساقط في الطريق مع أول العقبات والتحديات التي تواجه الإنسان ، ويكتشف عجزها وفشلها .

لهذا ندرك سبب سقوط الأفكار ، و التصورات التي تبنتها المجتمعات الإنسانية حيال الأفكار و التصورات التي جاء بها الأنبياء و الرسل يشير القرآن إلى ذلك في العديد من الآيات منها :﴿ فَتَوَلَّىٰ عَنْهُمْ وَقَالَ يَا قَوْمِ لَقَدْ أَبْلَغْتُكُمْ رِسَالَةَ رَبِّي وَنَصَحْتُ لَكُمْ فَكَيْفَ آسَىٰ عَلَىٰ قَوْمٍ كَافِرِينَ ﴾ [2] . ﴿ وَأُلْقِيَ السَّحَرَةُ سَاجِدِينَ قَالُوا آمَنَّا بِرَبِّ الْعَالَمِينَ رَبِّ مُوسَىٰ وَهَارُونَ ﴾ [3] .

و الصورة ذاتها تتكرر لما سقطت عاصمة الخلافة العباسية في أيدي التتار الهمج ، و أعتقد الناس أن شمعة الإسلام انطفأت و صفحته قد طويت إلى الأبد ،فإذا هؤلاء الغزاة ينطلقون فاتحين يحملون أفكار و عقيدة الإسلام ، و إنه لأمر عجيب ! التاريخ عودنا أن المغلوبة مولع بتقليد الغالب في زيه و نحلته .. كما قرر ذلك إبن خلدون ، إلا أن العجب ينجلي بمجرد الإطلاع على الأفكار و التصورات التي يستمد منها المجتمع حياته و على ضوئها يتحرك و يسير .

إن المجتمع المُسلم إنهزم سياسيا لكنه انتصر حضاريا ، لقد وقع هؤلاء الغزاة في أسر الأفكار و التصورات الحية للإسلام ، و عرفوا حقيقة أنفسهم أو بتعبير المفكر الجزائري مالك بن نبي ، لقد فقد المجتمع المسلم عالم أشياءه إلا أنه لم يفقد عالم أفكاره ، لقد إنهزم التتار لما وجدوا أنفسهم أنهم لا يحملون شيئا سوى التدمير و الخراب ، فاحتقروا أنفسهم ،و أنظموا إلى المجتمع المسلم و أصبحوا عنصرا من عناصر ، هذا المجتمع فازداد قوة على قوة ( فغنى أي مجتمع لا يقاس بما يملك من أشياء بل بمقدار ما يملك من

---

[1] سيد قطب في ظلال القرآن مج3 ص: 1552 .

[2] الأعراف : الآية : 93 .

[3] الأعراف : الآية : 120،121،122.

أفكار)[1] إلا أنه لما انحرف التصور ، و انتشرت الطرق الصوفية و سادت عقيدة الجبر في أواخر الدولة العباسية أنعكس هذا التصور و الفكر على سلوكيات المجتمع فذهبت الخلافة العباسية أدرج الرياح .

و الصورة نفسها تكررت في المجتمع الجزائري ، الذي جعل الإستدمار الفرنسي يعمر قرنا ونيف من الزمن ، حتى قام ابن باديس و جمعيته فصححوا الإعتقاد و أبطلوا القول المزعوم أن الإستعمار قضاء و قدر فانتفض الشعب من سباته و أعلنها جهادا في حين الذي ظنت فرنسا أن الجزائر و شعبها أصبح قطعة منها و كان النصر حليف المجاهدين .

أدرك المنصوفون من علماء و مفكري الحضارة الغربية الحديثة الطريق المسدود الذي تسلكه، لأنها ترتكز على رجل واحدة و تسير سيرا أعرجا فارسلوا صيحات إنذار و تحذير .

إن الحضارة الحديثة لم و لن تكون بدعا في تاريخ الإنسانية ، فقد سبقتها حضارات و مجتمعات فحضارة سبأ و أثار ثمود و عاد تشهد بالتقدم و التمكن في الأرض ، إلا أنها أصبحت أثرا بعد عين ، لما إرتكبت ما يوجب فناءها ، و غيرت مالا ينبغي أن يغير و أحدثت ما يوجب الهلاك و الدمار .

﴿ ذَٰلِكَ مِنْ أَنبَاءِ الْقُرَىٰ نَقُصُّهُ عَلَيْكَ مِنْهَا قَائِمٌ وَحَصِيدٌ وَمَا ظَلَمْنَاهُمْ وَلَٰكِن ظَلَمُوا أَنفُسَهُمْ فَمَا أَغْنَتْ عَنْهُمْ آلِهَتُهُمُ الَّتِي يَدْعُونَ مِن دُونِ اللَّهِ مِن شَيْءٍ لَّمَّا جَاءَ أَمْرُ رَبِّكَ وَمَا زَادُوهُمْ غَيْرَ تَتْبِيبٍ ﴾[2] .

**ب – الإنسان :**

إن الأفكار و التصورات ، لا توصف بالحسن و القبح أو الخير و الشر ، أو السلب و الإيجاب أو بأي وصف من الأوصاف ، ما لم يمارسها الإنسان سلوكا و تصرفا . و لما كانت هذه طبيعة الأفكار و التصورات ، لم يرتب الله عليها الجزاء –الحساب– بل جعله مرهونا بالعمل بمعنى: حينما تترجم هذه الأفكار و التصورات إلى سلوك جاز أن توصف بالحسن و القبح ، و الخير والشر و جاز الحكم عليها بالسلب و الإيجاز ، و يترتب عليها الجزاء و يصدق عليها قول الله تعالى: ﴿ مَّنْ عَمِلَ صَالِحًا فَلِنَفْسِهِ وَمَنْ أَسَاءَ فَعَلَيْهَا وَمَا رَبُّكَ بِظَلَّامٍ لِّلْعَبِيدِ ﴾[3] .

---

[1] مالك بن نبي ميلاد مجتمع ص : 37و .

[2] هود : الآية : 100، 101 .

[3] فصلت : الآية : 46 .

بهذا التصور نفهم قول الرسول –ص– ( إِنَّ اللَّهَ تَجَاوَزَ عَنْ أُمَّتِي مَا حَدَّثَتْ بِهِ أَنْفُسَهَا مَا لَمْ يَتَكَلَّمُوا أَوْ يَعْمَلُوا ) [1] و قوله –ص– ( قال الله عز و جل : إِذَا هَمَّ عَبْدِي بِسَيِّئَةٍ فَلَا تَكْتُبُوهَا ، فَإِنْ عَمِلَهَا فَاكْتُبُوهَا عَشْرًا ) [2] .

إن العناية الإلهية كرمت الإنسان وجعلته في مركز الصدارة من الكون لما جعلت التغير القدري مبنيا على إرادته في التغيرومشيئته من مشيئة الله عز وجل ، إن القارئ لهذه الآيات و غيرها :قال تعالى: ﴿ذَٰلِكَ بِأَنَّ اللَّهَ لَمْ يَكُ مُغَيِّرًا نِّعْمَةً أَنْعَمَهَا عَلَىٰ قَوْمٍ حَتَّىٰ يُغَيِّرُوا مَا بِأَنفُسِهِمْ﴾ [3] ﴿كَلَّا إِنَّ الْإِنسَانَ لَيَطْغَىٰ ...﴾ [4] ﴿إِنَّ الْإِنسَانَ لَظَلُومٌ كَفَّارٌ ...﴾ [5] ﴿وَإِذَا أَنْعَمْنَا عَلَى الْإِنسَانِ أَعْرَضَ وَنَأَىٰ بِجَانِبِهِ وَإِذَا مَسَّهُ الشَّرُّ كَانَ يَئُوسًا﴾ [6] ﴿ظَهَرَ الْفَسَادُ فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ بِمَا كَسَبَتْ أَيْدِي النَّاسِ ...﴾ [7] ﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يُغَيِّرُ مَا بِقَوْمٍ حَتَّىٰ يُغَيِّرُوا مَا بِأَنفُسِهِمْ ...﴾ [8] ، يقف على التصور القرآني للإنسان فلا هو ريشة في مهب الرياح تقذف به إلى حيث تريد . لا يملك من أمره شيئا ، و إنما هي إرادة الله تصوغه من خلال إرادته يقول الأستاذ سيد قطب معلقا قول الله تعالى : ﴿ذَٰلِكَ بِأَنَّ اللَّهَ لَمْ يَكُ مُغَيِّرًا نِّعْمَةً أَنْعَمَهَا عَلَىٰ قَوْمٍ حَتَّىٰ يُغَيِّرُوا مَا بِأَنفُسِهِمْ﴾ [9] .....و من الجانب الآخر يكرم هذا المخلوق الإنساني أكبر تكريم ، حين يجعل قدر الله به ينفذ و يجري على طريقة حركة هذا الإنسان ، و عمله ، يجعل هذا التغير القدري في حياة الناس مبنيا على التغير الواقعي في قلوبهم و نواياهم و سلوكهم و عملهم و أوضاعهم التي يختارونها لأنفسهم ... و من الجانب الثالث يلقي تبعة عظيمة –تقابل التكريم العظيم – على هذا الكائن فهو يملك أن يستبقي نعمة الله عليه و يملك أن يزداد عليها إن هو عرف فشكر كما يملك أن يزيل هذه النعمة عنه إذا هو أنكر و بطر و انحرفت نواياه فانحرفت خطاه ، و هذه الحقيقة الكبيرة تمثل جانبا

---

(1) مسلم بن الحجاج صحيح مسلم مج 1 كتاب الإيمان ح رقم 202 ص :116 .

(2) مسلم بن الحجاج صحيح مسلم مج1 كتاب الإيمان ح لرقم 103 ص :117 .

(3) الأنفال : الآية : 53

(4) العلق : الآية 6

(5) إبراهيم : الآية : 34

(6) الإسراء : الآية : 83

(7) الروم : الآية : 41

(8) الرعد : الآية :11

(9) الأنفال : الآية : 53

من جوانب التصور الإسلامي لحقيقة الإنسان ..."[1] إن الإنسان في آيات القرآن الكريم " هـــو ذلـــك المخلوق المسؤول "[2] . و هذه المسؤولية هي التي جعلته يتميز عن سائر المخلوقات الأخـــرى ، و جعلتـــه أيضا في موقع الصدارة من الكون و من ثم تصبح اجتماعية الإنسان وسيلة جعلها الله في متناول الإنســـان لتحقيق الغاية من وجوده .

أدرك إبن خلدون هذا التصور و المكانة التي أعطاها الله للإنسان من خلال المهمة التي ينتظر أن يقوم بها هذا الكائن الإنساني فسمى العلم الذي يتناول أوضاع الإنسان و طرائق عيشـــه ....بعلـــم العمـــران البشري .فيقول : ( ... و إذا كان التعاون حصل له القوت للغذاء و السلاح للمدافعة ، و تمت حكمة الله في بقائه و حفظه ، فإن هذا الاجتماع ضروري للنوع الإنساني و إلا لم يكتمل وجودهم و ما أراده الله من إعتبار العالم بهم و إستخلاصه إياهم ، و هذا هو معنى العمران الذي جعلناه موضوعا لهذا العلم ...) [3] .

إن اجتماعية الإنسان ليست غاية في حد ذاتها مثلما يقرر القرآن الكريم و أوضحها إبن خلـــدون ، على عكس المدارس و الإديولوجيات الوضعية التي اتخذت الاجتماع موضوعا و غاية للدراسة و البحث .

إن هذه العقائد و الإديولوجيات الوضعية وضعت الإنسان في موضع ضيق ، بل نزعت منه أخـــص خصائصه ، حين اعتبرته حيوانا ناطقا أو حيوانا اجتماعيا و صنفته ضمن زمرة الحيوانات ، و انطلاقا مـــن هذا التصنيف عكف العلماء و المفكرون كلا في ميدانه يقارن و يشرح و يطابق ، ليقروا في نهاية المطاف أن الحياة الحية ، هي في واقع الأمر سلسلة من التطورات و أن الكائن الحي الذي يسمى إنسانا ، هو أرقـــى مرحلة وصلت إليها هذه التطورات فهناك الإنسان البدائي ، و الإنسان المتحضر ...إلخ و الغريب أن أحـد منهم لم يكلف نفسه عناء وضع المبدأ أو القاعدة –أن الإنسان حيوان اجتماعي أو ناطق –موضع الشك أو فرضا من الفروض العلمية القابلة للخطأ و الصواب ، إلا بعد إمتدت هذه الفلسفة في الضلالة و تمـــادت في تصنيف الجنس البشري و ظهرت على إثرها النظرية القائلة بسيادة الجنس الآري و استعباد بقية الأجنـــاس الأخرى حتى قاد العالم إلى حرب أكلت الأخضر و اليابس فتفطن العلم بأسره إلى خطأ هذه القاعدة يقـول الأستاذ عباس محمود العقاد (.. و قد أعيد النظر إلى مكان الإنسان من الخليقة كلها ، فوضعـــه علمـــاء

---

(1) سيد قطب في ظلال القرآن مج 3 ص: 1532

(2) عباس محمود العقاد الإنسان في القرآن الكريم مكتبة الرحاب الجزائر ص: 10

(3) عبد الرحمان بن خلدون المقدمة ص: 43 .

الحيوان، بموضع واحد مع طبقة الأحياء ، التي عرفوها باسم الأوائل primates و هي في الـــذروة مـــن طبقات الحيوان اللبون.

وأعيد تصنيف هذا النوع الحيواني فذهب بعضهم بعيدا في تقسيمه إلى عناصر و إلى الرجوع بكـــل عنصر منها إلى نوع القردة الأوائل .... والذين قالوا أنه نوع واحد . لم يرتابوا في تقسيمه إلى عنـــاصر و سلالات –لولا التناسل فيما بينها –أن تعتبر أنواعا مستقلة بتراكيب أبدانهاو عقولها ...و الذيـــن قنعـــوا باختلاف العناصر و السلالات لم يقنعوا بالقليل من فوارق هذا الإختلاف فنهم من كاد يجعل ( النـــوع ) السلالة (الأرية ) نوعا سيكولوجيا يضارع النوع البيولوجي في قابلية التفاهم و التعامل ... و عادوا بعـــد الحرب العالمية الثانية إلى التراجع السريع في هذا التصنيف الذي خيل إلى أصحابه قبل جيل واحـــد ، أنـــه حقيقة واقعة تستغني عن البرهان ... )[1]

إن المتأمل في آيات القرآن الكريم المتعلقة بخلق الكون و تسخيره حتى يكون صالحا للحياة كقوله تعالى: ﴿هُوَ الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ الْأَرْضَ ذَلُولًا فَامْشُوا فِي مَنَاكِبِهَا وَكُلُوا مِنْ رِزْقِهِ وَإِلَيْهِ النُّشُورُ﴾[2] . قال تعالى: ﴿وَهُوَ الَّذِي مَدَّ الْأَرْضَ وَجَعَلَ فِيهَا رَوَاسِيَ وَأَنْهَارًا وَمِنْ كُلِّ الثَّمَرَاتِ جَعَلَ فِيهَا زَوْجَيْنِ اثْنَيْنِ يُغْشِي اللَّيْلَ النَّهَارَ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَاتٍ لِقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ وَفِي الْأَرْضِ قِطَعٌ مُتَجَاوِرَاتٌ وَجَنَّاتٌ مِنْ أَعْنَابٍ وَزَرْعٌ وَنَخِيلٌ صِنْوَانٌ وَغَيْرُ صِنْوَانٍ يُسْقَىٰ بِمَاءٍ وَاحِدٍ وَنُفَضِّلُ بَعْضَهَا عَلَىٰ بَعْضٍ فِي الْأُكُلِ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَاتٍ لِقَوْمٍ يَعْقِلُونَ﴾[3] ﴿وَهُوَ الَّذِي سَخَّرَ الْبَحْرَ لِتَأْكُلُوا مِنْهُ لَحْمًا طَرِيًّا وَتَسْتَخْرِجُوا مِنْهُ حِلْيَةً تَلْبَسُونَهَا وَتَرَى الْفُلْكَ مَوَاخِرَ فِيهِ وَلِتَبْتَغُوا مِنْ فَضْلِهِ وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ، وَأَلْقَىٰ فِي الْأَرْضِ رَوَاسِيَ أَنْ تَمِيدَ بِكُمْ وَأَنْهَارًا وَسُبُلًا لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ وَعَلَامَاتٍ وَبِالنَّجْمِ هُمْ يَهْتَدُونَ أَفَمَنْ يَخْلُقُ كَمَنْ لَا يَخْلُقُ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ وَإِنْ تَعُدُّوا نِعْمَةَ اللَّهِ لَا تُحْصُوهَا إِنَّ اللَّهَ لَغَفُورٌ رَحِيمٌ ...﴾[4] .

يقف على الدور الذي أوكل للإنسان القيام به و على المسؤولية الملقاة على عاتقه ، فهو الذي يحدد مصيره بيده ، و يصنع سعادته أو تعاسته بما يمارسه من أشكال التغيير ، بوعي أو بغير وعي فردا كـــان أو

---

[1] عباس محمود العقاد الإنسان في القرآن ص: 47

[2] الملك : الآية : 15

[3] الرعد : الآية : 3، 4

[4] النحل : الآية : 14....18 .

جماعة ( لقد منح الله الحرية للإنسان ابتداء لكي يصنع تاريخه الفردي و الجماعي و لكي يشكل مصيرهـــا جميعا معا ، اعتماد على ما ركب في وجوده من قوى العقل و الإرادة و الانفعال و الحـــــس و الحركـــة ...)[1] ، كما يقف أيضا على الفرق بين التصور القرآني للإنسان و ما تقدمه الفلسفات و الإديولوجيـات الوضعية .

إن إرادة الإنسان في التغيير سواء أكان فردا أو جماعة أمر واقعا لا محالة ، كما نصت علـــى ذلـــك آيات القرآن الكريم ، هذه الإرادة هي التي رتب الله عليها الجزاء في الدنيا و الآخرة ، و ضرب لذلك أمثلة عديدة للتغيير الذي أحدثه الإنسان في الحياة بغض النظر عن طبيعة هذا التغيير –سلبا أو إيجـــابا- يجعلنـــا نؤكد حقيقة قرآنية أن الإنسان هو الذي يحقق السعادة لنفسه إن شاء كما يجلب لها الدمار و التعاســـة أن شاء أيضا .

جامعة الأمير عبد القادر للعلوم الإسلامية

[1] عماد الدين خليل التفسير الإسلامي للتاريخ دار العلم للملايين ط/1 سنه 1975 بيروت لبنان ص: 138

ج- الزمن :

لا تتضح معالم و صورة التغيرات الاجتماعية إلا بمقدار من الزمن يطول و يقصر بحسب التغيرات و طبيعة التغير و العوامل المؤثرة فيه ، و من ثم يصبح الحديث عن الزمن كإطار للتغير من الأهمية بمكان .

لقـــد أفردت الآيات القرآنية مساحات واسعة للمسألة الزمنية حتى و لم يرد الزمن بلفظته المتعارف عليها ، إلا أن معانيه و مدلولاته ، لا تكاد تخلوا منه سورة من سور القرآن .

و من الآيات الدالة عليه قول الله تعالى : [ قَالُوا رَبَّنَا اسْتَمْتَعَ بَعْضُنَا بِبَعْضٍ وَبَلَغْنَا أَجَلَنَا الَّذِي أَجَّلْتَ لَنَا .. ] (1) [ أَلَمْ يَأْنِ لِلَّذِينَ آمَنُوا أَنْ تَخْشَعَ قُلُوبُهُمْ لِذِكْرِ اللهِ وَمَا نَزَلَ مِنَ الْحَقِّ وَلَا يَكُونُوا كَالَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ مِنْ قَبْلُ فَطَالَ عَلَيْهِمُ الْأَمَدُ فَقَسَتْ قُلُوبُهُمْ وَكَثِيرٌ مِنْهُمْ فَاسِقُونَ ... ] (2) [ وَذَرْنِي وَالْمُكَذِّبِينَ أُولِي النَّعْمَةِ وَمَهِّلْهُمْ قَلِيلًا ... ] (3) [ بَلْ مَتَّعْنَا هَؤُلَاءِ وَآبَاءَهُمْ حَتَّى طَالَ عَلَيْهِمُ الْعُمُرُ أَفَلَا يَرَوْنَ أَنَّا نَأْتِي الْأَرْضَ نَنْقُصُهَا مِنْ أَطْرَافِهَا أَفَهُمُ الْغَالِبُونَ ] (4) ، إلا أن المتمعن لدلالات الآيات القرآنية على الزمن يجدهـــا تحمل معان متعددة و يأخذ الزمن فيها أبعادا كثيرة ؛ حينما نقرأ مثلا قول الله تعالى : [ قُلْ أَئِنَّكُمْ لَتَكْفُرُونَ بِالَّذِي خَلَقَ الْأَرْضَ فِي يَوْمَيْنِ وَتَجْعَلُونَ لَهُ أَنْدَادًا ذَلِكَ رَبُّ الْعَالَمِينَ ، وَجَعَلَ فِيهَا رَوَاسِيَ مِنْ فَوْقِهَا ، وَبَارَكَ فِيهَا وَقَدَّرَ فِيهَا أَقْوَاتَهَا فِي أَرْبَعَةِ أَيَّامٍ سَوَاءً لِلسَّائِلِينَ ، ثُمَّ اسْتَوَى إِلَى السَّمَاءِ وَهِيَ دُخَانٌ فَقَالَ لَهَا وَلِلْأَرْضِ ائْتِيَا طَوْعًا أَوْ كَرْهًا قَالَتَا أَتَيْنَا طَائِعِينَ فَقَضَاهُنَّ سَبْعَ سَمَاوَاتٍ فِي يَوْمَيْنِ وَأَوْحَى فِي كُلِّ سَمَاءٍ أَمْرَهَا وَزَيَّنَّا السَّمَاءَ الدُّنْيَا بِمَصَابِيحَ وَحِفْظًا ذَلِكَ تَقْدِيرُ الْعَزِيزِ الْعَلِيمِ ] (5) . نتساءل بين أنفسنا هل هي الأيام التي نعد بها ساعات يومنا و لحظات عمرنا ! فيأتينا الجواب سريعا في قوله تعالى : [ وَإِنَّ يَوْمًا عِنْدَ رَبِّكَ كَأَلْفِ سَنَةٍ مِمَّا تَعُدُّونَ ] (6) .و ندرك عظمة هذه الأيام و الفرق الشاسع بين يوم الله و يوم الإنسان ، و نقف على صغر الدنيا و ضآلة حجمها [ قَالَ كَمْ لَبِثْتُمْ فِي الْأَرْضِ عَدَدَ سِنِينَ قَالُوا لَبِثْنَا يَوْمًا أَوْ بَعْضَ يَوْمٍ فَاسْأَلِ الْعَادِّينَ قَالَ إِنْ لَبِثْتُمْ إِلَّا قَلِيلًا لَوْ أَنَّكُمْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ ] (7)

---

(1) الأنعام : الآية : 128

(2) الحديد : الآية : 16

(3) المزمل : الآية : 11

(4) الأنبياء : الآية : 44

(5) فصلت : الآية : 9...12

(6) الحج : الآية : 47

(7) المؤمنون : الآية 112،113،114

إن الأيام التي خلق الله فيها السماوات و الأرض تختلف عن الأيام التي يعرفها الناس ، و لم يـــدرك الإنسان حقيقة هذا الإختلاف و طبيعة الزمن الكوني إلا بعد إن اخترق حجب السماء و تخلص من سيطرة الجاذبية عند ذاك اتضحت له حقيقة يومه و ضآلته بجانب اليوم الكوني ، فلم تعد الساعات و لا الأيام و لا السنوات هي وحدة القياس ، لأن الفرغات الزمنية في الكون رهيبة و عجيبة .

يقول الدكتور عماد الدين خليل : «.. إن بين هذه الآيات المنبثة في حنايا القرآن ترابطا و انســجاما رياضيا دقيقا ، و إن فيها تأكيدا مستمرا على الحقيقة ( الطبيعية ) الكبرى التي لم تتكشف بعض جوانبــها للعلم إلا أخيرا ، تلك هي : أن الزمن في الأرض و الزمن في أمداء الكون ليس سواء لأن هناك فرقا شاسعا بين الوحدة الزمنية الأرضية ، و الوحدة الزمنية الكونية ، تبلغ تارة و على سبيل المثال 365.000 ضعفـا و تبلغ تارة أخرى 18.250.000 ضعفا بحساب القرآن الكريم نفسه ، الأمر الذي يفسر لنا ظن الناس يــوم القيامة إن حياتهم الدنيا لم تكن سوى ساعة من نهار ... » [1] .

و لما نقرأ قول الله تعالى : ﴿ يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنْ كُنْتُمْ فِي رَيْبٍ مِنَ الْبَعْثِ فَإِنَّا خَلَقْنَاكُمْ مِنْ تُرَابٍ ثُمَّ مِنْ نُطْفَةٍ ثُمَّ مِنْ عَلَقَةٍ ثُمَّ مِنْ مُضْغَةٍ مُخَلَّقَةٍ وَغَيْرِ مُخَلَّقَةٍ لِنُبَيِّنَ لَكُمْ وَنُقِرُّ فِي الْأَرْحَامِ مَا نَشَاءُ إِلَى أَجَلٍ مُسَمًّى ثُمَّ نُخْرِجُكُمْ طِفْلًا ثُمَّ لِتَبْلُغُوا أَشُدَّكُمْ وَمِنْكُمْ مَنْ يُتَوَفَّى وَمِنْكُمْ مَنْ يُرَدُّ إِلَى أَرْذَلِ الْعُمُرِ لِكَيْلَا يَعْلَمَ مِنْ بَعْدِ عِلْمٍ شَيْئًا وَتَرَى الْأَرْضَ هَامِدَةً فَإِذَا أَنْزَلْنَا عَلَيْهَا الْمَاءَ اهْتَزَّتْ وَرَبَتْ وَأَنْبَتَتْ مِنْ كُلِّ زَوْجٍ بَهِيجٍ ذَلِكَ بِأَنَّ اللَّهَ هُوَ الْحَقُّ وَأَنَّهُ يُحْيِي الْمَوْتَى وَأَنَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴾ [2] ، نلمس حقيقة أنفسنا ، و نقف على فعل الزمن في ذواتنا لأنه عنصر من عناصر خلقتنــا نحس به و لا نلمسه ، فهو بين النطفة و العلقة ، بين العلقة و المضغة و الطفولة ، بين الطفولة و أرذل العمر ، و بين كل عمل نقوم به ، بل هو جزء من خلقتنا ﴿ خُلِقَ الْإِنْسَانُ مِنْ عَجَلٍ سَأُورِيكُمْ آيَاتِي فَلَا تَسْتَعْجِلُونِ ﴾ [3]

---

[1] عماد الدين خليل التفسير الإسلامي للتاريخ ( مرجع سابق ) ص : 120

[2] الحج : الآية 5 ، 6

[3] الأنبياء : الآية 37.

يعلق سيد قطب على الآية فيقول : « فالعجلة في طبعته و تكوينه ، و هو يمد ببصره دائما، إلى ما وراء اللحظة الحاضرة يريد ليتناوله بيده ...» [4]

« و العجلة السرعة ، و خلق الإنسان منها استعارة لتمكن هذا الوصف من جبلة الإنسانية ...» [1]

إن هذا المخلوق العجيب هو الذي أخضع الإنسان الجاهلي و كسر كبرياءه ، و جعله يسلّم تسليم العبد المقهور ﴿ وَقَالُوا مَا هِيَ إِلَّا حَيَاتُنَا الدُّنْيَا نَمُوتُ وَنَحْيَا وَمَا يُهْلِكُنَا إِلَّا الدَّهْرُ وَمَا لَهُمْ بِذَٰلِكَ مِنْ عِلْمٍ إِنْ هُمْ إِلَّا يَظُنُّونَ ﴾ [2] .

يقول العلامة محمد الطاهر بن عاشور في تفسير هذه الآية : « و المعنى : أحياؤنا يصيرون إلى الموت بتأثير الزمان أي حدثانه من طول مدة يعقبها الموت بالشيخوخة ، أو من أسباب تفضي إلى الهلاك » [3] ،. و لعظمته أقسم الله به في كثير من المواطن ( و العصر ، و الليل ، و النهار ، و الفجر ... ) كما أنه دليل إثبات أو إدانة على الإنسان ، فردا كان أو جماعة يوم يقف بين يدي الله طائعا ذليلا يروى عن الحسن البصري رضي الله عنه قوله : « مَا مِنْ يَوْمٍ يَنْشَقُّ فَجْرُهُ ، إِلَّا وَ يُنَادِي : يَا ابْنَ آدَمَ أَنَا خَلْقٌ جَدِيدٌ ، وَ عَلَىٰ عَمَلِكَ شَهِيدٌ فَتَزَوَّدْ مِنِّي ، فَإِنِّي إِذَا مَضَيْتُ لَا أَعُودُ إِلَىٰ يَوْمِ الْقِيَامَةِ » [4] ، هذا الزمن ، هذا المخلوق العجيب الذي يحطم الجبارة و الطغاة و تخضع له رقاب الأمم و الجماعات ، جعله الله أداة لتغير الأوضاع و تبدل الأحوال و تداول الأمم و الحضارات .

قال تعالى : ﴿ وَذَرْنِي وَالْمُكَذِّبِينَ أُولِي النَّعْمَةِ وَمَهِّلْهُمْ قَلِيلًا ... ﴾ [5] ﴿ فَذَرْهُمْ فِي غَمْرَتِهِمْ حَتَّىٰ حِينٍ ، أَيَحْسَبُونَ أَنَّمَا نُمِدُّهُمْ بِهِ مِنْ مَالٍ وَبَنِينَ نُسَارِعُ لَهُمْ فِي الْخَيْرَاتِ بَل لَّا يَشْعُرُونَ ﴾ [6] ﴿ إِنَّ فِرْعَوْنَ عَلَا فِي الْأَرْضِ وَجَعَلَ أَهْلَهَا شِيَعًا يَسْتَضْعِفُ طَائِفَةً مِنْهُمْ يُذَبِّحُ أَبْنَاءَهُمْ وَيَسْتَحْيِي نِسَاءَهُمْ إِنَّهُ كَانَ مِنَ الْمُفْسِدِينَ ، وَنُرِيدُ أَنْ نَمُنَّ عَلَى الَّذِينَ

---

[4] سيد قطب في ظلال القرآن مج :4 ص: 2378

[1] محمد الطاهر بن عاشور التحرير و التوزيع ج : 17 ص : 68 .

[2] الجاثية الآية :" 24

[3] محمد الطاهر بن عاشور التحرير و التنوير ج 25 ص : 362

[4] نسبه الدكتور يوسف القرضاوي في كتابه الوقت في حياة المسلم إلى الحسن البصري رض الله عنه ، ص ك 27

[5] المزمل الآية : 11

[6] المومنون الآية : 56،55

اسْتُضْعِفُوا فِي الْأَرْضِ وَنَجْعَلَهُمْ أَئِمَّةً وَنَجْعَلَهُمُ الْوَارِثِينَ ، وَنُمَكِّنَ لَهُمْ فِي الْأَرْضِ وَنُرِيَ فِرْعَوْنَ وَهَامَانَ وَجُنُودَهُمَا مِنْهُمْ مَا كَانُوا يَحْذَرُونَ ﴾ [1] ، ﴿ وَأَوْرَثْنَا الْقَوْمَ الَّذِينَ كَانُوا يُسْتَضْعَفُونَ مَشَارِقَ الْأَرْضِ وَمَغَارِبَهَا الَّتِي بَارَكْنَا فِيهَا وَتَمَّتْ كَلِمَةُ رَبِّكَ الْحُسْنَىٰ عَلَىٰ بَنِي إِسْرَائِيلَ بِمَا صَبَرُوا وَدَمَّرْنَا مَا كَانَ يَصْنَعُ فِرْعَوْنُ وَقَوْمُهُ وَمَا كَانُوا يَعْرِشُونَ ﴾ [2] . ﴿ وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحًا إِلَىٰ قَوْمِهِ فَلَبِثَ فِيهِمْ أَلْفَ سَنَةٍ إِلَّا خَمْسِينَ عَامًا فَأَخَذَهُمُ الطُّوفَانُ وَهُمْ ظَالِمُونَ ﴾ [3] .

إن الله تبارك و تعالى لما أراد أن يرفع بني إسرائيل من الذلة و الهوان الذي وضعوا أنفسهم فيه حتى استعبدهم فرعون و زبانيته ، جعل عامل الزمن يقوم بدوره في تطهير النفوس و إعادة صياغتها من جديد يقول تعالى : ﴿ قَالُوا يَا مُوسَىٰ إِنَّا لَنْ نَدْخُلَهَا أَبَدًا مَا دَامُوا فِيهَا فَاذْهَبْ أَنْتَ وَرَبُّكَ فَقَاتِلَا إِنَّا هَاهُنَا قَاعِدُونَ قَالَ رَبِّ إِنِّي لَا أَمْلِكُ إِلَّا نَفْسِي وَأَخِي فَافْرُقْ بَيْنَنَا وَبَيْنَ الْقَوْمِ الْفَاسِقِينَ قَالَ فَإِنَّهَا مُحَرَّمَةٌ عَلَيْهِمْ أَرْبَعِينَ سَنَةً يَتِيهُونَ فِي الْأَرْضِ فَلَا تَأْسَ عَلَى الْقَوْمِ الْفَاسِقِينَ ﴾ [4] .

هذه الآيات و غيرها جعلت ابن خلدون يدرك مالعامل الزمن من دور في صقل النفوس و تطهيرها مما علق بها فصاغ نظريته في تطور الدولة مستنبطا مما ذكره الله في الآية السابقة فقال : « ..و يؤيده ما ذكرناه في حكمة التيه الذي وقع في بني إسرائيل ، و أن المقصود بالأربعين فيه فناء الجيل الأحياء و نشأة جيل آخر لم يعهدوا الذل و لا عرفوه ...» [5] ، و لما كان للزمن هذا الدور الفعال في تغير الأوضاع و تبدل الأحوال ، نهى رسول الله –ص– عن سبب الدهر فقال : « قَالَ اللهُ عَزَّ وَ جَلَّ يُؤْذِينِي ابْنُ آدَمَ يَسُبُّ الدَّهْرَ وَ أَنَا الدَّهْرُ أُقَلِّبُ اللَّيْلَ وَ النَّهَارَ » [6] ، و في رواية « لَا يَقُولَنَّ أَحَدُكُمْ يَا خَيْبَةَ الدَّهْرِ فَإِنَّ اللهَ هُوَ الدَّهْرُ » [7] ، فالزمن إذن عنصر من عناصر المعادلة الاجتماعية و إطار للتغيرات و التفاعلات الاجتماعية ،

---

[1] القصص الآية : 4-5

[2] الأعراف الآية : 137

[3] العنكبوت الآية : 14

[4] المائدة الآية : 24، 25

[5] عبد الرحمان بن خلدون المقدمة ص : 170

[6] مسلم بن الحجاج صحيح مسلم مج 4 كتاب الأدب ح رقم 2246 ص : 1762

[7] مسلم بن الحجاج صحيح مسلم مج 4 كتاب الأدب ح رقم 2246 ص : 1763

و سيادة ظواهر و اختفاء ظواهر أخرى ، لذلك عاتب الله نبيه عن أسرى بدر فنص على أنه لا ينبغي لرسول أن يكون له أسرى ، و هو بعد لم يكن في الأرض إذ ينبغي عليه التربص حتى يستكمل صورة المجتمع المتمكن في الأرض المخالف تماما لصورة المجتمع الجاهلي : ﴿وَمَا كَانَ لِنَبِيٍّ أَنْ يَكُونَ لَهُ أَسْرَىٰ حَتَّىٰ يُثْخِنَ فِي الْأَرْضِ ، تُرِيدُونَ عَرَضَ الدُّنْيَا وَاللَّهُ يُرِيدُ الْآخِرَةَ وَاللَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ﴾[1] .

أدرك الرسول ما لعامل الزمن من قيمة في قلب الموازين – و مع تيقنه من نصر الله له في معركته ضد الوثنية و صورها – فكان يقول للمؤمنين المعذبين المفتونين في دينهم إذا اشتكوه إليه شدة ما يلقون من عذاب و استبطاء نصر الله « ... ألا تستنصر لنا ؟ ألا تدعو لنا ؟ فقال : -ص- قَدْ كَانَ مَنْ قَبْلَكُمْ يُؤْخَذُ الرجل فيحفر له في الأرض فيجعل فيها : ثم يؤتى بالمنشار فيوضع على رأسه فيجعل نصفين ، و يمشط بِأَمْشَاطِ الحَدِيدِ مَا دُونَ لَحْمِهِ وَ عَظْمِهِ مَا يَصُدُّه ذَلِكَ عَنْ دِينِهِ ، وَ اللهِ لَيُتِمَنَّ اللهُ هَذَا الأَمْرَ حَتَّى يَسِيرَ الرَّاكِبُ مِنْ صَنْعَاءَ إِلَى حَضْرَمَوْتَ ، مَا يَخَافُ إِلاَّ اللهَ وَ الذِئْبَ عَلَى غَنَمِهِ ، وَ لَكِنَّكُمْ تَسْتَعْجِلُونَ » [2] .

إن التغير قادم لا محالة لكن في إطاره و في زمنه . لا يتقدم و لا يتأخر لما العجلة إذن ؟

لم يكن القرآن مجرد عقيدة فحسب بل شريعة تنتظم ميادين الحياة كلها ، و من ثم كان ثورة على الأوضاع القائمة ، و على الوثنية التي تشرب منها المجتمع الجاهلي ، و أصبغ بها حياته كلها ، حتى غدت الكعبة الشريفة تعج بثلاثمئة صنم و ترسخت عادات و تقاليد الوثنية في نفوس أصحابها و عمل الزمن على ترسيخها ﴿ ... فَطَالَ عَلَيْهِمُ الْأَمَدُ فَقَسَتْ قُلُوبُهُمْ ...﴾[3] و كادت عقيدة الوثنية تعم الإنسانية كلها . كان بإمكان المولى عز و جل –وهو القادر – على أن يقول للشيء كن فيكون ، فتتبدل الأوضاع و تتغير الأحوال ، و بمقدرة الله أن يترل القرآن جملة واحدة كما أراد كفار قريش .﴿ وَقَالُوا لَوْلَا نُزِّلَ هَذَا الْقُرْآنُ جُمْلَةً وَاحِدَةً ...﴾[4] إلا أن الغاية الإلهية اقتضت بأن يتم التغير وفق سنة التغير في إطار عنصر الزمن ، هذا

---

(1) الأنفال الآية : 67

(2) سليمان ابن الأشعث ( أبي داوود ) سنن أبي داوود مج 3 كتاب الجهاد باب الأسير يكره على الكفر دار الفكر بيروت لبنان .ص47.

(3) الحديد الآية : 16

(4) الفرقان : الآية : 32

العنصر الذي حوى خلق السماوات و الأرض و حوى خلق الإنسان و الحياة ، لا بد أن يحوي التغـــيرات الاجتماعية و أن تتم في إطاره .

أنزل الله القرآن منجما بحسب الأحداث و الوقائع ، في مدة عشرين سنة شهد خلالها المجتمع الجاهلي تحولا رهيبا ، من النقيض إلى النقيض ، من الوثنية إلى التوحيد ن لم يكن الرسول –ص- قبل هذا اليوم إلا في نزر قليل من المؤمنين ، تتكالب عليهم قوى الكفر و الطغيان ، يكاد الموت يختطفهم في كل لحظـــة ، و أصبح بعدها –بعد عام الفتح –في عشرة آلاف موحد يطوفون مكة من جميع الأبواب و الجهات .

يصور القرآن هذا التغير الذي أصاب واقع المسلمين من الذلة و الضعف إلى القوة و التمكن في أروع تصوير و أدق تعبير في قولـــه ﴿ وَ اذْكُرُوا إِذْ أَنْتُمْ قَلِيلٌ مُسْتَضْعَفُونَ فِي الأَرْضِ تَخَافُونَ أَنْ يَتَخَطَّفَكُمُ النَّاسُ فَأَوَاكُمْ وَ أَيَّدَكُمْ بِنَصْرِهِ وَ رَزَقَكُمْ مِنَ الطَّيِّبَاتِ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴾ [1] ، إن الآيات القرآنية ترسم لنا صورة بيانية للتغيرات التي حدثت في المجتمع العربي في تحوله من الوثنية إلى الإسلام ، فاختفت عادات و تقاليد و ظهرت عادات و تقاليد جديدة تتناسب مع خصائص المجتمع الجديد .

1- إن نجاح أي عملية تغيرية متوقف على مدى تمكنها من نفوس أصحابها ، و من ثم تصبح تغـــير سلوكاتهم و تصرفاتهم أمرا ميسورا يقوم الزمن على استكمال صورته ، هذه هي صورة العملية التغييرية التي قام بها الرسول –ص- في المجتمع العربي وصفها أحد أصحابه بقوله : « كان يفرغنـــا ثم يملأنـــا ...» ، يفرغهم من تصورات و أفكار الوثنية و يملأهم بتصورات و عقيدة التوحيد .

2- إن السلوكيات و التصرفات هي في الحقيقة ترجمة لأفكار و تصورات أصحابها ، و أن القضـــاء عليها ينطلق من القضاء على مرجعيتها .

لقد فقه الغرب عناصر العملية التغييرية فأعلنوها حربا على أفكار و تصورات العالم الإسلامي بمـــا يعرف الآن بالغزو الثقافي ، من خلال تدمير المرجعية الفكرية للمجتمع المسلم و خلق ما يسمى بالقابليـــة للإستعمار ..

إن فرنسا لما أرادت انتزاع المجتمع الجزائري من مرجعيته العربية الإســـلامية و إلصاقـــه بالمرجعيـــة الأوروبية المسيحية ، عملت على تجفيف منابعه الفكرية و ذلك بالقضاء على اللغة العربية و تحريم استعمالها و غلق المدارس و الكتاتيب القرآنية و كل تعليم عربي و فتح المدارس الفرنسية و التعليم بمرجعيات غربيـــة ...إلخ .

---

[1] الأنفال الآية : 26

3- من خلال التحليل السابق لأسس التغير الاجتماعي تبين لنا أن أي تغير وفق ثلاث أسس الفكرة و الإنسان ( المجتمع ) ، و الزمن و على ضوء هذه المعادلة أصبح إعداد البرامج الاجتماعية و التحكم في حجم التغيرات الاجتماعية و ما إلى ذلك أمر مألوفا و معروفا عند علماء الاجتماع و الأنتربولوجيا ، و أضحت المجتمعات النامية حقلا واسعا للتجارب و مختبرا لدراسة التغيرات الاجتماعية من خلال البرامج و الخطط الهادفة للإبقاء عليها عالة على الحضارة الغربية تستهلك منتجاتها لا غير .

**سادسا : مسار التغيير :**

إن التصور العام الذي يقدمه القرآن عن الكون و الإنسان ، و الحياة ، يحدد إبتداء مسار الحركة التغييرية ، التي تعتري الظاهرة الاجتماعية و المجتمع الإنساني عموما ، فهي إما عودة إلى المنهج الأصيل في عقيدته و سلوكه و تصوراته فتوصف بالإيجابية . و إما خروجا عن المنهج الأصيل في سلوكه و عقيدته فتوصف حينئذ بالسلبية .

إن القارئ لكتاب الله يقف على جملة من الحركات التغييرية ، شهدتها الإنسانية على مدار تاريخها الحافل ، تهدف إلى إعادة الناس إلى طريق الخير و الصلاح ، و تقويم الاعوجاج الذي أصاب السلوك و الأخلاق ، يقف على راس هذه الحركات الأنبياء و المرسلون ، لقد واجهت هذه الدعوات جميعا ظاهرة واحدة هي ظاهرة الشرك ، التي أصابت المجتمع الإنساني في فترات متفاوتة ، بيد أن هذه الظاهرة لم تمنع من بروز ظواهر أخرى غير أن اختلاف طرائق التغيير التي اعتمدها الأنبياء و المرسلون في تغيير مجتمعاتهم يعود أساسا إلى اختلاف المجتمعات الإنسانية ، و إلى حجم الظواهر الاجتماعية التي وقفت إزاءهم ، إن حجم الآيات القرآنية الواردة في بني إسرائيل —سوء باعتبارهم أتباع موسى و عيسى أو إزاء موقفهم من الدعوة الإسلامية —تعطينا صورة عن التعقيد و التشابك الذي وصل إليه المجتمع الإنساني في عهد كل من موسى و عيسى و محمد عليه السلام ، لكن الأمر جد مختلف بالنسبة إلى دعوة نوح عليه السلام ، إذ أنه كان على مقربة من ميلاد البشرية ، فلم يزل مجتمعه على بساطته و طهارته و لم يعكر صفوه إلا الإنحراف الذي أصاب العقيدة و التصور ، فاقتصرت حركته التغييرية بالقضاء على هذا الإنحراف و إعادة الناس إلى المنهج الصحيح ، إن أي تغير من هذا النوع يعتبره القرآن تغيرا إيجابيا بل إن آيات القرآن الكريم تطلب من المسلم صراحة الأنخراط في هذا النوع من التغير في عدة آيات منها ﴿وَلْتَكُن مِّنكُمْ أُمَّةٌ يَدْعُونَ إِلَى الْخَيْرِ وَيَأْمُرُونَ

بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ ...﴾ [1] ، ﴿ انْفِرُوا خِفَافًا وَثِقَالًا وَجَاهِدُوا بِأَمْوَالِكُمْ وَأَنْفُسِكُمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ ذَلِكُمْ خَيْرٌ لَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ ﴾ [2]

و على منوال الآيات القرآنية وردت الكثير من الأحاديث النبوية تدفع بالمسلم إلى أن يكون إيجابيا في مجتمعه يحارب كل الظواهر السلبية ، منها قوله –ص- : « مَنْ رَأَىٰ مِنْكُمْ مُنْكَرًا فَلْيُغَيِّرْهُ بِيَدِهِ فَإِنْ لَمْ يَسْتَطِعْ فَبِلِسَانِهِ فَإِنْ لَمْ يَسْتَطِعْ فَبِقَلْبِهِ وَذَٰلِكَ أَضْعَفُ الْإِيمَانِ » [3] ، « إِنَّ اللَّهَ يَبْعَثُ لِهَٰذِهِ الْأُمَّةِ عَلَىٰ رَأْسِ كُلِّ مِئَةِ سَنَةٍ مَنْ يُجَدِّدُ لَهَا دِينَهَا » [4] .

كما أن التاريخ الإسلامي حافل بحركات تغييرية قامت هنا و هناك في أرجاء الدولة الإسلامية تناهض الإوجاج الذي أصاب الأمة في جميع نواحيها تمسح ما علق بالعقيدة و تحارب كل انحراف في السلوك و الأخلاق ، و على النقيض من الإتجاه الأول ، يعرض علينا القرآن أيضا نماذج من التغيرات التي حدثت في المجتمع الإنساني غير أنها تأخذ طابعا سلبيا هدفها نشر الفساد و إشاعة الوثنية ، يقف على رأس هذه الحركات قوم نوح باعتبارهم أول إنحراف عن منهج التوحيد ، و قوم لوط كنموذج عن إنحراف الأخلاق ...إلخ ، شهد العالم الإسلامي ظهور حركات تغييرية قامت على أساس من الإنحراف في التصور و العقيدة خلد لنا التاريخ بعضا منها كالقرامطة و الحشاشين ...إلخ .

إن هذين المسارين لحركة التغير يظلان يصاحبان المجتمع الإنساني على مدار تواجده و تفاعله ، يصنعان بذلك معادلة التغير بجميع تفاصيلها و جزئياتها .

كما أن الحركة التغييرية بطبيعتها الثنائية هذه تأخذ أشكالا عدة بحسب المسار الذي تنتهجه، هذا الذي يجعلنا نتساءل عن شكلها في المسارين جميعا الإيجابي و السلبي ؟

**سابعا : أشكال التغير :**

أخذت قصة الخليقة –خلق آدم – مساحات واسعة من مواضيع القرآن الكريم ، و ذكرت في العديد من السور مها البقرة ، الأعراف ، الحجر ، النمل ... و في كل مرة يعرضها القرآن من زاوية تختلف عن سابقتها فتترآئ فيها معان جديدة لم تكن واضحة في الصور السابقة .

---

[1] آل عمران : الآية : 104

[2] التوبة الآية : 41.

[3] مسلم بن الحجاج صحيح مسلم مج 1 كتاب الإيمان ح رقم 78 تحقيق فؤاد محمد عبد الباقي ، دار الكتاب المصري و اللبناني ص69.

[4] أبو داود السنن مج 4 الملاحم ح رقم 1 دار الفكر بيروت لبنان ص : 109 .

إن المتأمل لهذه القصة يدرك بداهة –دون أي عناء – الدور الذي خلق لأجله الإنسان، كما يدرك الدور الذي سيؤديه "إبليس" في حياة الإنسان

﴿ وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَائِكَةِ إِنِّي جَاعِلٌ فِي الْأَرْضِ خَلِيفَةً ... ﴾[1] ، ﴿ فَإِذَا سَوَّيْتُهُ وَنَفَخْتُ فِيهِ مِنْ رُوحِي فَقَعُوا لَهُ سَاجِدِينَ فَسَجَدَ الْمَلَائِكَةُ كُلُّهُمْ أَجْمَعُونَ إِلَّا إِبْلِيسَ أَبَىٰ أَنْ يَكُونَ مَعَ السَّاجِدِينَ ... ﴾[2] .

خلق الله تبارك و تعالى الإنسان و ركب فيه نوازع الخير و الشر على السواء ، يميل للخير أحيانا إذا دعته نوازع الخير و يميل تارة أخرى للشر إذا تبع نفسه وتوفرت له أسبابه.

﴿ وَنَفْسٍ وَمَا سَوَّاهَا فَأَلْهَمَهَا فُجُورَهَا وَتَقْوَاهَا قَدْ أَفْلَحَ مَنْ زَكَّاهَا وَقَدْ خَابَ مَنْ دَسَّاهَا ﴾[3]

يمارس الخير و الشر بإرادته ، لا سلطان لإبليس عليه إلا من قبيل الغواية و تزين عمل الشر و التثبيط عن الخير ، ﴿ قَالَ رَبِّ بِمَا أَغْوَيْتَنِي لَأُزَيِّنَنَّ لَهُمْ فِي الْأَرْضِ وَلَأُغْوِيَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ ﴾[4]

---

(1) البقرة الآية : 30.

(2) الحجر الآية : 29..31.

(3) الشمس الآية : 7..10

(4) الحجر الآية : 39.

جامعة الأمير عبد القادر للعلوم الإسلامية

﴿ إِنَّ عِبَادِي لَيْسَ لَكَ عَلَيْهِمْ سُلْطَانٌ إِلَّا مَنِ اتَّبَعَكَ مِنَ الْغَاوِينَ ﴾[1]

جاءت في الحديث :« لَمَّا صَوَّرَ اللهُ أَدَمَ فِي الْجَنَّةِ تَرَكَهُ مَا شَاءَ أَنْ يَتْرُكَهُ فَجَعَلَ إِبْلِيسُ، يُطِيفُ بِهِ، يَنْظُرُ مَا هُوَ. فَلَمَّا رَأَى أَجْوَفَ عَرَفَ أَنَّهُ خُلِقَ خَلْقًا لَا يَتَمَالَكُ...»[2]

يعلق العلامة النووي على هذا الحديث بقوله : « و الأجوف صاحب الجوف و قيل الذي داخله خال ، و معنى لا يتمالك نفسه لا يملك نفسه و يحبسها من الشهوات و قيل لا يملك دفع الوسواس عنه عند الغضب و المراد جنس بني آدم »[4]

شاءت إرادة الله لهذا المخلوق الإنساني أن تكون عداوة إبليس له قدرا محتوما و شاءت إرادته أيضا أن يكون خليفته على الأرض يقيم فيها العدل و القسطاس بما يكفل تحقيق الخلافة التي أنيطت به .

إن مسألة تنازع الخير و الشر قديمة قدم الإنسان ، و ستظل ما ظل عنصر الإنسان على وجه الأرض يمارس إرادته سلبا و إيجابا ، تقوده نوازع الخير أحيانا و تقوده نوازع الشر أحيانا أخرى ، يستقيم و يفجر ، يرشد و يغوي ، و من ثم يشكل مسار حياته بما يمارسه من أعمال و تصرفات ، فإذا ارتفع بنفسه و تسامى في أجواء الطهر و العفاف كان قاب قوسين أو أدنى من الملائكة ، و كلما تبع نفسه هواها و انغمس في شهواتها ، نزل بها إلى الحضيض .

إن هذا التنازع سنة أبدية تصاحب الإنسان في نفسه و محيطه و تشكل حياته و تصنع تاريخه بحسناته و سيئاته ، يعبر القرآن عن هذه السنة بمصطلح " التدافع " تدافع بين نوازع الخير و الشر المتأصلة في الإنسان ، بين الحق و الباطل في جميع مظاهره و صوره .

﴿ إِنَّ اللَّهَ يُدَافِعُ عَنِ الَّذِينَ آمَنُوا إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ كُلَّ خَوَّانٍ كَفُورٍ ﴾[5]

---

[1] الحجر الآية : 42.

[2] مسلم بن الحجاج صحيح مسلم مج 4 كتاب البر و الصلة ح رقم : 2611 ص: 2016 .

[4] محي الدين يحي النووي شرح النووي على صحيح مسلم مج 8 دار الفكر سنة 1981 بيروت لبنان ص: 164.

[5] الحج الآية : 38.

﴿ وَلَوْلَا دِفَاعُ اللَّهِ النَّاسَ بَعْضَهُمْ بِبَعْضٍ لَهُدِّمَتْ صَوَامِعُ وَبِيَعٌ وَصَلَوَاتٌ وَمَسَاجِدُ يُذْكَرُ فِيهَا اسْمُ اللَّهِ كَثِيرًا ﴾ ، ﴿ وَلَوْلَا دِفَاعُ اللَّهِ النَّاسَ بَعْضَهُمْ بِبَعْضٍ لَفَسَدَتِ الْأَرْضُ ... ﴾ [2]

يقول محمد عبده : «.دفع الله الناس بعضهم ببعض من السنن العامة و هو ما يعبر عنه علماء الحكمة في هذا العصر بتنازع البقاء ... » [3] .

إن القارئ لكتاب الله يقف على فترات في تاريخ الإنسانية يتعاقب فيها الخير و الشر يأخذ فيها الخير بجميع أشكاله و مظاهره بناصية الإنسان حتى يخيل إليك أن نوازع الشر قد انتزعت من الإنسان و للأبد فإذا بها تثور لتزيح بكل مظاهر الخير ، فتأخذ بناصية الإنسان و مقود البشرية فترات من الزمن حتى يخيل للإنسان أنه المسار الطبيعي ، و لم يعد هناك مصطلح يعني الخير و الشر ، فتعود مظاهر الخير من جديد فتأخذ بزمام الإنسان و هكذا دواليك ... و في هذا يقول الدكتور عبد المجيد النجار : « إن تاريخ الإنسان ينبئنا أن البشرية منذ خلقها و في متقلباتها ، توحشا و تحضرا و تنقلا و استقرارا ، ظلت تتدين بتعبد اله أعظم يحقق الخير و السعادة ، و يدفع السوء و الشقاوة ، و كانت تهتدي إلى الله أحيانا و تظل أحيانا أخرى ..» [4]

إن هذا التعاقب بين الخير و الشر ، بين التيه و الرشد ، سنة أبدية تحكم حياة الإنسان النفسية و الاجتماعية ،اصطلح القرآن على تسميتها" بالتداول " و"الاستخلاف "

﴿ ...وَتِلْكَ الْأَيَّامُ نُدَاوِلُهَا بَيْنَ النَّاسِ... ﴾ [5]

---

[1] الحج : الآية 40 .

[2] البقرة : الآية : 251 .

[3] محمد رشيد رضا المنار مج :2 دار المعرفة ، ط2 ، بيروت ، لبنان . ص140

[4] عبد المجيد النجار : خلافة الإنسان بين الوحي و العقل دار الزيتونة للنشر ط/1 سنة 1996 الرباط المغرب ص: 23.

[5] آل عمران : الآية 140 .

﴿ وَعَدَ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا مِنكُمْ وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَيَسْتَخْلِفَنَّهُمْ فِي الْأَرْضِ كَمَا اسْتَخْلَفَ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ وَ لَيُمَكِّنَنَّ لَهُمْ دِينَهُمُ الَّذِي ارْتَضَىٰ لَهُمْ وَلَيُبَدِّلَنَّهُم مِّن بَعْدِ خَوْفِهِمْ أَمْنًا ... ﴾ [1]

قال الإمام الأستاذ : « ... هذه قاعدة كقاعدة قد خلت من قبلكم سنن أي هذه سنة من تلك السنن وهي ظاهرة بين الناس بصرف النظر عن المحقين و المبطلين ، و المداولة في الواقع تكون مبنية على أعمال الناس فلا تكون الدولة لفريق دون الآخر ... » [2]

أن مسار الحركة التغييرية كما يعرضها القرآن الكريم تأخذ شكلين أساسين ، تأخذ شكل سنة التدافع تارة و سنة التداول تارة أخرى أو تسير في الشكلين معا

ما هي مظاهر هذه السنن ؟ كيف يراها دارسوا الإنسان و الحياة الاجتماعية ؟

**هذه بعض الأسئلة التي ستكون الإجابة عنها هي محور مباحثنا في الفصول القادمة.**

---

[1] النور ك الآية 55.

[2] محمد رشيد رضا المنار مج 4 ص: 148 .

جامعة الأمير عبد القادر للعلوم الإسلامية

# الفصل الثالث : سنة التدافع .

- تعريف التدافع .

- المدلول القرآني للتدافع .

- تدافع الخير و الشر .

- منهج القرآن في التخفيف من حدة التدافع النفسي

- التدافع الفكري .

- التدافع المادي .

جامعة الأمير عبد القادر للعلوم الإسلامية

**تمهيد :**

تبين لنا من خلال المباحث السابقة أن التغير سنة تنتظم الاجتماع البشري ، غير أن الإشكال الذي يطرح نفسه كيف تتم هذه السنة و ما هي آليات عملها ؟

تعددت آراء الباحثين و اختلفت فمنهم من يرى أن التغير يعود في أصله إلى التنازع و التصادم ، وما سلوك الناس إلا ترجمة لصراع الأفكار و الرؤى، بينما يذهب آخرون إلى القول بأن التغيير هو نتيجة لتنازع الناس حول وسائل الإنتاج و ما إلى ذلك .

والسؤال الذي يطرح نفسه هل الصراع وحده هو الآلية التي تتم بها سنة التغير أم أن هناك آليات أخر.

بجانب هذه الآراء يقف الطرح القرآني متميزا لا يجعل من اختلاف الأفكار و لا تنازع أسباب العيش هما العاملان الوحيدان في إحداث التغير و تجسيد هذه السنة بل يعزوه إلى عوامل و أسباب عدة يشملها مصطلح التدافع و التداول .

ماذا نعني بالتدافع و ما هي علاقته بسنة التغير ؟.

جامعة الأمير عبد القادر للعلوم الإسلامية

## أولا : تعريف التدافع :

جاء في لسان العرب: « الدفع الإزالة بقوة، نقول دفعه دفعا ودفاعا ودافعه ...و تدافعوا الشيء دفعه كل واحد منهم عن صاحبه، وتدافع القوم بعضهم بعضا... ومنه قولهم ادفع الشر و لو إصبعا ... » [1] .

و في المعجم الوسيط : « دفع الشيء إذا نحاه و أزاله بقوة و في القرآن قوله تعالى: ﴿وَلَوْلَا دَفْعُ اللَّهِ النَّاسَ بَعْضَهُم بِبَعْضٍ لَّفَسَدَتِ الْأَرْضُ ...﴾ [2] .

و دفع القول رده بالحجة ، و دفع فلانا إلى كذا إذا اضطره ، و دافع عنه مدافعه ، ودفاعا حامى عنه و انتصر له ، و دافعه زاحمه ... » [3] .

ترددت هذه الكلمة في القرآن الكريم أكثر ممن مرة بصيغ مختلفة في دلالات متباينة ، غير أن المعنى الغالب عليها يتوجه ضمن مفهوم الإزالة و التنحية و المزاحمة و الآيات الواردة هي قوله تعالى : ﴿وَلَوْلَا دِفَاعُ اللَّهِ النَّاسَ بَعْضَهُم بِبَعْضٍ لَّفَسَدَتِ الْأَرْضُ وَلَٰكِنَّ اللَّهَ ذُو فَضْلٍ عَلَى الْعَالَمِينَ﴾ [4] . ﴿ ... ادْفَعْ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ السَّيِّئَةَ نَحْنُ أَعْلَمُ بِمَا يَصِفُونَ﴾ [5] .

﴿إِنَّ اللَّهَ يُدَافِعُ عَنِ الَّذِينَ آمَنُوا إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ كُلَّ خَوَّانٍ كَفُورٍ أُذِنَ لِلَّذِينَ يُقَاتَلُونَ بِأَنَّهُمْ ظُلِمُوا وَإِنَّ اللَّهَ عَلَىٰ نَصْرِهِمْ لَقَدِيرٌ الَّذِينَ أُخْرِجُوا مِن دِيَارِهِم بِغَيْرِ حَقٍّ إِلَّا أَن يَقُولُوا رَبُّنَا اللَّهُ وَلَوْلَا دَفْعُ اللَّهِ النَّاسَ بَعْضَهُم بِبَعْضٍ لَّهُدِّمَتْ صَوَامِعُ وَبِيَعٌ وَصَلَوَاتٌ وَمَسَاجِدُ يُذْكَرُ فِيهَا اسْمُ اللَّهِ كَثِيرًا ..

---

[1] ابن منظور لسان العرب مج1 ( مصدر سابق ) ص 991 ، 992 .

[2] البقرة : الآية 251 .

[3] إبراهيم أنيس و آخرون المعجم الوسيط ج1 دار المعارف القاهرة مصر ص 288 .

[4] البقرة : الآية 251 .

[5] المؤمنون : الآية 96 .



جامعة الأمير عبد القادر للعلوم الإسلامية

وَ لَيَنْصُرَنَّ اللهُ مَنْ يَنْصُرُهُ إِنَّ اللهَ لَقَوِيٌّ عَزِيزٌ﴾[1] . ﴿إِنَّ عَذَابَ رَبِّكَ لَوَاقِعٌ مَا لَهُ مِنْ دَافِعٍ...﴾[2].

من خلال التحليل اللغوي لكلمة التدافع و المدافعة السياقات و البيانات التي وردت بها في القرآن الكريم. ندرك أنها تحمل كل معاني التنازع و الاختلاف و التصارع. كما أن ورودها على وزن مفاعلة و تفاعل و ما يقتضيه هذا النوع من الأوزان من مشاركة في ذات الفعل. بكل صور المشاركة المادية و المعنوية، تسير في ذات التوجه فالحرب مدافعة لأن كل فريق يدفع عدوه ليزيحه عن مكانه و الفكرة تدفع الأخرى و تزيحها بما تحمله من حجج و براهين دامغة. كما أن الإقدام والإحجام، الإقبال و الإدبار شكل من أشكال هذه المدافعة و الصراع والتنازع. كما أن اختلاف الميولات في النفس البشرية وكذا و الرغبات و الألوان و الألسنة، يجعل التنازع و التدافع قدرا مقدورا و سنة أبدية تحكم الاجتماع البشري .

«إن قيمة الحياة الدنيا و صيرورتها الحضارية الدائمة تكمن في هذا الصراع القائم بين كتل البشرية المختلفة المتضادة المتصارعة الموزعة...وإن حكمة الله شاءت حتى بالنسبة للكتلة أو المعسكر الواحد، أن تشهد انقساما مادامت تمارس حريتها في الأخذ و العطاء و تلك هي إرادة الله المسبقة في أن تكون حياة الناس مغايرة نوعيا لحياة الخلائق الأخرى الأعلى مرتبة أو الأدنى سلما...»[3].

---

[1] الحج: الآية 38_39_40.

[2] الطور: الآية 8.

[3] عماد الدين خليل التفسير الإسلامي للتاريخ دار العلم للملايين ط1. سنة 1975 بيروت-لبنان ص239

**ثانيا: المدلول القرآني للتدافع:**

إن سنة الصراع و التدافع حقيقة قرآنية أقر بها القرآن في العديد من الآيات منها قوله تعالى: ﴿لِكُلٍّ جَعَلْنَا مِنْكُمْ شِرْعَةً وَمِنْهَاجًا وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ لَجَعَلَكُمْ أُمَّةً وَاحِدَةً وَلَكِنْ لِيَبْلُوَكُمْ فِيمَا آتَاكُمْ فَاسْتَبِقُوا الْخَيْرَاتِ إِلَى اللَّهِ مَرْجِعُكُمْ جَمِيعًا فَيُنَبِّئُكُمْ بِمَا كُنْتُمْ فِيهِ تَخْتَلِفُونَ﴾[1]. ﴿وَجَعَلْنَا بَعْضَكُمْ لِبَعْضٍ فِتْنَةً أَتَصْبِرُونَ وَكَانَ رَبُّكَ بَصِيرًا﴾[2]. ﴿الم أَحَسِبَ النَّاسُ أَنْ يُتْرَكُوا أَنْ يَقُولُوا آمَنَّا وَهُمْ لَا يُفْتَنُونَ وَلَقَدْ فَتَنَّا الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ فَلَيَعْلَمَنَّ اللَّهُ الَّذِينَ صَدَقُوا وَلَيَعْلَمَنَّ الْكَاذِبِينَ﴾[3].

﴿نَحْنُ قَسَمْنَا بَيْنَهُمْ مَعِيشَتَهُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَرَفَعْنَا بَعْضَهُمْ فَوْقَ بَعْضٍ دَرَجَاتٍ لِيَتَّخِذَ بَعْضُهُمْ بَعْضًا سُخْرِيًّا وَرَحْمَةُ رَبِّكَ خَيْرٌ مِمَّا يَجْمَعُونَ﴾[4]. ﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنْسَانَ فِي كَبَدٍ﴾[5].

شاءت إرادة الله أن تكون سنة التدافع شكلا من أشكال عمارة الأرض ومظهرا من مظاهر التغيير، وأداة من أدواته تصبغ حياة الإنسان كلها، النفسية و الاجتماعية والحضارية، غير أن القرآن في تقريره لحقيقة هذه السنة يؤكد على مصطلحات الخير والشر، الحق والباطل ؛ ليشير بذلك إلى تنوع و تعدد مساحات عمل هذه السنة و ارتباطها بالمفهوم العام الذي يقدمه القرآن عن الكون والإنسان و الحياة، بدليل قوله تعالى ﴿بَلْ نَقْذِفُ بِالْحَقِّ عَلَى الْبَاطِلِ فَيَدْمَغُهُ فَإِذَا هُوَ زَاهِقٌ وَلَكُمُ الْوَيْلُ مِمَّا تَصِفُونَ..﴾[6]. ﴿وَيُجَادِلُ الَّذِينَ كَفَرُوا بِالْبَاطِلِ لِيُدْحِضُوا بِهِ الْحَقَّ وَاتَّخَذُوا آيَاتِي وَمَا أُنْذِرُوا هُزُوًا﴾[7].

---

(1) المائدة: الآية 48.

(2) الفرقان :الآية 20 .

(3) العنكبوت: الآية 1،2،3.

(4) الزخرف: الآية 32 .

(5) البلد: الآية 4.

(6) الأنبياء: الآية 18.

(7) الكهف: الآية 56.

-القضية الأولى :

«إن الحق ما هو ثابت وصحيح وواجب فعله وبقاؤه وهو الخير كل الخير وأن الباطل ما لا ثبات ولا اعتبار له،ولا يوصف بالصحة، ولا يستحق البقاء و هو الشر كل الشر»[1] وأفضل تصوير للحق و الباطل هو ما ورد في قوله تعالى : ﴿أَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَسَالَتْ أَوْدِيَةٌ بِقَدَرِهَا فَاحْتَمَلَ السَّيْلُ زَبَدًا رَابِيًا وَمِمَّا يُوقِدُونَ عَلَيْهِ فِي النَّارِ ابْتِغَاءَ حِلْيَةٍ أَوْ مَتَاعٍ زَبَدٌ مِثْلُهُ كَذَلِكَ يَضْرِبُ اللَّهُ الْحَقَّ وَالْبَاطِلَ فَأَمَّا الزَّبَدُ فَيَذْهَبُ جُفَاءً وَأَمَّا مَا يَنْفَعُ النَّاسَ فَيَمْكُثُ فِي الْأَرْضِ كَذَلِكَ يَضْرِبُ اللَّهُ الْأَمْثَالَ...﴾[2]

يعلق العلامة الزمخشري على الآية بقوله : « هذا مثل ضربه الله للحق و أهله و الباطل وحزبه، كما ضرب الأعمى والبصير ، و الظلمات و النور ، مثلا لهما ، فمثل الحق و أهله بالماء الذي يترل من السماء فتسيل به أودية الناس فيحيون به و ينفعهم أنواع المنافع ... و إن ذلك ماكث في الأرض باق بقاء ظاهرا ، بثبت الماء في منافعه ، و تبقى آثاره في العيون و البئار والجبوب...وشبه الباطل في سرعة اضمحلاله و وشك زواله وانسلاخه عن المنفعة بزبد السيل الذي يرمي به ...» [3] .

-القضية الثانية :

إن الإنسان زود بنوازع الخير و الشر على السواء ميالا للخير إذا توفرت له أسبابه ونزاعا للشر إذا أثيرت فيه نوازع الشر، يقول ابن خلدون:« اعلم أن الله ركب في طبائع البشر الخير و الشر كما قال تعالى : ﴿وَهَدَيْنَاهُ النَّجْدَيْنِ﴾[4] .

و قال: ﴿فَأَلْهَمَهَا فُجُورَهَا وَتَقْوَاهَا﴾[5] و الشر أقرب الخلال إليه إذ أهمل في مرعى

---

[1] عبد الكريم زيدان السنن الإلهية في الأمم و الجماعات مؤسسة الرسالة ط2 سنة 1987 بيروت –لبنان ص:44-45

[2] الرعد الآية : 17.

[3] محمود بن عمر الزمخشري الكشاف دار الكتاب العربي ط3 سنة 1987 بيروت –لبنان ص: 523 .

[4] البلد : الآية 17.

[5] الشمس : الآية 8.

-القضية الأولى :

«إن الحق ما هو ثابت وصحيح وواجب فعله وبقاؤه وهو الخير كل الخير وأن الباطل ما لا ثبات ولا اعتبار له،ولا يوصف بالصحة، ولا يستحق البقاء و هو الشر كل الشر»[1] وأفضل تصوير للحق و الباطل هو ما ورد في قوله تعالى : ﴿أَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَسَالَتْ أَوْدِيَةٌ بِقَدَرِهَا فَاحْتَمَلَ السَّيْلُ زَبَدًا رَابِيًا وَمِمَّا يُوقِدُونَ عَلَيْهِ فِي النَّارِ ابْتِغَاءَ حِلْيَةٍ أَوْ مَتَاعٍ زَبَدٌ مِثْلُهُ كَذَلِكَ يَضْرِبُ اللَّهُ الْحَقَّ وَالْبَاطِلَ فَأَمَّا الزَّبَدُ فَيَذْهَبُ جُفَاءً وَأَمَّا مَا يَنْفَعُ النَّاسَ فَيَمْكُثُ فِي الْأَرْضِ كَذَلِكَ يَضْرِبُ اللَّهُ الْأَمْثَالَ...﴾[2]

يعلق العلامة الزمخشري على الآية بقوله : « هذا مثل ضربه الله للحق و أهله و الباطل وحزبه، كما ضرب الأعمى والبصير ، و الظلمات و النور ، مثلا لهما ، فمثل الحق و أهله بالماء الذي يترل من السماء فتسيل به أودية الناس فيحيون به و ينفعهم أنواع المنافع ... و إن ذلك ماكث في الأرض باق بقاء ظاهرا ، بثبت الماء في منافعه ، و تبقى آثاره في العيون و البئار والجبوب...وشبه الباطل في سرعة اضمحلاله و وشك زواله وانسلاخه عن المنفعة بزبد السيل الذي يرمي به ...» [3] .

-القضية الثانية :

إن الإنسان زود بنوازع الخير و الشر على السواء ميالا للخير إذا توفرت له أسبابه ونزاعا للشر إذا أثيرت فيه نوازع الشر، يقول ابن خلدون:« اعلم أن الله ركب في طبائع البشر الخير و الشر كما قال تعالى : ﴿وَهَدَيْنَاهُ النَّجْدَيْنِ﴾[4] .

و قال: ﴿فَأَلْهَمَهَا فُجُورَهَا وَتَقْوَاهَا﴾[5] و الشر أقرب الخلال إليه إذ أهمل في مرعى

---

[1] عبد الكريم زيدان السنن الإلهية في الأمم و الجماعات مؤسسة الرسالة ط2 سنة 1987 بيروت -لبنان ص:44-45

[2] الرعد الآية : 17.

[3] محمود بن عمر الزمخشري الكشاف دار الكتاب العربي ط3 سنة 1987 بيروت -لبنان ص: 523 .

[4] البلد : الآية 17.

[5] الشمس : الآية 8.

عوائده و لم يهذبه الإقتداء بالدين وعلى ذلكم الجم الغفير إلا من رحم الله...»[1].

بين نوازع الخير و الشر ترسم حياة الإنسان. يصنع حضارته و يكتب تاريخه يصبغها بلون الخير حينا و الشر أحيانا أخرى، تدفع نوازع الخير نوازع الشر، ويدفع الشر الخير وهكذا دواليك...يظل التدافع بين الحق والباطل بين قوى الخير والشر قائما في الحياة مادام الإنسان يغوي ويرشد، يهتدي و يظل يستقيم و يفجر.

إن التدافع والصراع المجبول في الإنسان هو الذي يقود في الواقع إلى «تحريك الحياة نحو الأحسن. و تخطي موانع الركود و السكون و الفساد، ومنح القدرة للقوى الإنسانية الخيرة كي تشد عزائمها و تصقل قدراتها المقاومة في غمرات التحديات المتعاقبة التي يطرحها الصراع...»[2].

إن الآيات القرآنية و هي تصاحب البشرية من ميلادها إلى منتهاها ترسم صورة التدافع و التنازع و الصراع لتقرر بذلك حقيقة الصراع وسنة التدافع الأبدي بين الحق والباطل بين قوى الخير والشر. إن مظاهر هذا التدافع الذي يقرره القرآن تختلف أشكاله وتتنوع مجالاته باختلاف وتنوع مجالات تحرك الإنسان. فحياة الإنسان الاجتماعية هي انعكاس لحياته النفسية و الفكرية وأن أي تغير يصيب المجتمع وعلاقاته الاجتماعية هو في حقيقته التغير الذي أصاب فكره ومزاجه.

وفي هذا يقول الأستاذ مالك بن نبي رحمه الله: «فإذا ما حدث في المجتمع حالة جديدة غيرت هذه الأوضاع كلها، فإن موقف الإنسان يتغير أمام الحوادث و الأشياء وبالتالي يتغير مجرى التاريخ.

ولو أننا أخذنا بالتحليل لهذه الحالات لوجدنا أنها أولا وقبل كل شيء حالة قلق يسودها الشعور بالخطر، سواء أكان الخطر واقعيا أم مجرد فكرة خامرت العقول وهكذا يسود المجتمع وضع جديد نستطيع تسميته حالة انقاد، وأول ما يكون من أثر هذه الحالة في نفس الفرد أنها

---

[1] عبد الرحمان بن خلدون المقدمة (مرجع سابق) ص127.

[2] عماد الدين خليل التفسير الإسلامي للتاريخ (مرجع سابق) ص243.

تحرمه الشعور بالاستقرار بما يعتريه و يسيطر على مشاعره من قلق لا يمكن دفعه إلا بتغير الوضع، بتغير الأشياء، بالوقوف أمام الحوادث لتوجيهها لغايات واضحة وقريبة في شعور الفرد سواء أكان الواقع يؤيد هذا الشعور أم لا يؤيده...»[1] ولما كان التدافع ينطلق ابتداء من الباطن مما يكتنزه الإنسان من أفكار و تصورات عقدية وما يرتكز عليه مزاجه النفسي. يتبين من كل ما سبق أن دراسة هذه السنة بالمفهوم الشامل الذي يقدمه (القرآن) أمر من الأهمية بمكان ومن خلاله يتضح الاختلاف بين المدلول القرآني للتدافع وما تعرضه المدارس السوسيولوجيا التي اهتمت بهذا الموضوع ومن ثم نقف على مظاهرها في حياة الإنسان و المجتمع .

**رابعا: التدافع النفسي:**

إن التغير الذي يعتري حياة الإنسان ينطلق ابتداء من التغير الحاصل في كيانه بدليل قوله تعالى: ﴿إِنَّ اللهَ لَا يُغَيِّرُ مَا بِقَوْمٍ حَتَّى يُغَيِّرُوا مَا بِأَنْفُسِهِمْ﴾[2].

و الواقع أن التغير الذي يصيب الناس هو نتيجة حتمية لسنة التدافع والصراع، تدافع بين نوازع الخير والشر بين الحق والباطل المتأصلة في الإنسان.

يتجسد هذا النوع من التدافع في آيات كثيرة وبأشكال متعددة ولعل أبرزها على الإطلاق ما تجسد في قصة ابني آدم عليه السلام و الوليد بن المغيرة وغيرها من النماذج القرآنية التي يبرز بين ثناياها مشاهد التدافع و الصراع النفسي.

---

[1] مالك بن نبي تأملات دار الفكر ط1 سنة 1987 بيروت لبنان- دار الفكر الجزائر سنة1992 ص138.

[2] الرعد: الآية 11.

## 1-التدافع النفسي في قصة ابني آدم:

إن المتأمل في قول الله تعالى وهو يستعرض دوافع أول جريمة على الأرض، يجعل الإنسان يعيش و يتحسس لحظات الصراع و التدفع التي كان يعيشها الابن القاتل حين أراد ارتكاب الجريمة، والآيات الكريمة تصور لحظات هذا الصراع في أدق وأبلغ صورة. قال تعالى: ﴿..وَاتْلُ عَلَيْهِمْ نَبَأَ ابْنَيْ آدَمَ بِالْحَقِّ إِذْ قَرَّبَا قُرْبَانًا فَتُقُبِّلَ مِنْ أَحَدِهِمَا وَلَمْ يُتَقَبَّلْ مِنَ الْآخَرِ قَالَ لَأَقْتُلَنَّكَ قَالَ إِنَّمَا يَتَقَبَّلُ اللَّهُ مِنَ الْمُتَّقِينَ. لَئِنْ بَسَطْتَ إِلَيَّ يَدَكَ لِتَقْتُلَنِي مَا أَنَا بِبَاسِطٍ يَدِيَ إِلَيْكَ لِأَقْتُلَكَ إِنِّي أَخَافُ اللَّهَ رَبَّ الْعَالَمِينَ. إِنِّي أُرِيدُ أَنْ تَبُوءَ بِإِثْمِي وَإِثْمِكَ فَتَكُونَ مِنْ أَصْحَابِ النَّارِ وَذَلِكَ جَزَاءُ الظَّالِمِينَ. فَطَوَّعَتْ لَهُ نَفْسُهُ قَتْلَ أَخِيهِ فَقَتَلَهُ فَأَصْبَحَ مِنَ الْخَاسِرِينَ﴾[1].

إن هذه الآيات تصوير للحظات الصراع المنبعث في نفس -قابيل- بين نوازع الخير والشر، قوى تدفع وأخرى تكبح، بين دوافع الحسد والغيرة ودوافع الخشية والرهبة، جعلت الابن القاتل يعاني صراعا مريرا قبل أن ينفذ جريمته ويحسم الصراع. «صراع انفعالي متوقد متواصل شغل كل حياته وأفسد سلوكه واستقامة تفكيره، وقديما قيل لله در الحسد ما أعدله بدأ بصاحبه فقتله، فالحسد من جهة الانحراف النفسي يتضمن-في حد ذاته-صراعا بين تضخم "أنا" وتهديد "أنا" في نفسية الحاقد»[2].

إن هذا التدافع والصراع المشتعل في كيانه جعله يتردد و يتربص ولا ينفذ أمر القتل حتى قيل أنه بقي زمانا يتربص بأخيه إلى أن تمكنت نوازع الشر منه لتترجم في سلوكه فيزهق روح أخيه، لم تستطع دوافع الشر السيطرة على جوانح قابيل وتجاوز نوازع الخير إلا بالاستعانة والمدد[3] ، وهذا ما يفهم من الاستعارة التمثيلية الواردة في الآية الكريمة ﴿فَطَوَّعَتْ لَهُ نَفْسُهُ قَتْلَ

---

(1) المائدة: 27...30.

(2) عبد الحميد محمد الهاشمي نفحات نفسية في القرآن الكريم مكتبة الرحاب الجزائر ص142.

(3) ورد في الحديث الذي أخرجه ابن جريرعن مجاهد عن ابن جريج: أن قابيل لم يدر كيف يقتل هابيل فتمثل له إبليس اللعين بهيئة طير فأخذ طيرا فوضع رأسه فشدخه فعلمه القتل كذلك وهو مستسلم.

أخيه﴾ يقول العلامة محمد الطاهر بن عاشور:«و الطواعية ضد الإكراه: محاولة الطوع فشبه قتل أخيه بشيء متعاص عن قابيل بسبب معارضة التعقل والخشية-قوى الخير- و شبهت داعية القتل في نفس قابيل بشخص يعينه و يذلل له القتل المتعاص فكان "طوعت" استعارة تمثيلية، و المعنى الحاصل من هذا التمثيل أن نفس قابيل سولت له قتل أخيه بعد ممانعة...»[1] .

إن سلوك ابن آدم القاتل و تصرفه هذا يجعلنا نقف مليا عند قول الملائكة﴿أَتَجْعَلُ فِيهَا مَنْ يُفْسِدُ فِيهَا وَيَسْفِكُ الدِّمَاءَ وَنَحْنُ نُسَبِّحُ بِحَمْدِكَ وَنُقَدِّسُ لَكَ...﴾[2] يرجع الرأي القائل أن الملائكة كانت تعلم أن الجنس الآدمي مخلوق ضعيف لا يتمالك نفسه عن الموبقات ولا يتحرج حتى من سفك الدماء. كما أن قول الله تعالى على لسان الإبن القاتل:﴿..يَا وَيْلَتَىٰ أَعَجَزْتُ أَنْ أَكُونَ مِثْلَ هَٰذَا الْغُرَابِ فَأُوَارِيَ سَوْءَةَ أَخِي فَأَصْبَحَ مِنَ النَّادِمِينَ...﴾[3] ينبئنا أن قوى الخير لم تمت و لم تتلاشى، بل تعود إلى طبيعتها و إلى عملها بمجرد زوال المعوق أو بالتذكير والإثارة فتنكشف الغشاوة ويتجلى الأمر.

كان الغراب الذي بعثه الله بمثابة الحافز والمنبه الذي أثار نوازع الخير عند قابيل، وأدرك فيما أدرك عظم الجرم و الشعور بالعجز و الضعف و المهانة «رأى الغراب يحتفل بإكرام أخيه الميت ورأى نفسه يجترئ على قتل أخيه وما إسراعه على دفن أخيه إلا مبدأ الندامة وحب الكرامة لأخيه...»[4] .

كانت الغيرة والحسد بمثابة شحنات إضافية أذكى بها الشيطان هذا الصراع فمالت الكفة لنوازع الشر، و لم يكن سلوك قابيل إلا صورة تطبيقية للشر الذي ملأ جوانحه وتمكن من ناصيته.

---

(1) محمد الطاهر بن عاشور التحرير و التنوير ج6 ( مرجع سابق) ص172.

(2) البقرة: الآية 30.

(3) المائدة: الآية 31.

(4) محمد الطاهر بن عاشور التحرير والتنوير ج6 ص174.

نجحت قوى الشر في سفك دم هابيل إلا أن قوى الخير تداركت الأمر فأكرمته ودفنته وهذه سنة الصراع.

## 2-نموذج الوليد بن المغيرة:[1]

يترك القرآن الكريم أثرا بالغا في نفسية الإنسان بما يحمله من حقائق وحجج تخترق الإنسان وتغمر جوانبه لا يستطيع دفعها، ولا الوقوف حيالها، وإنما يستسلم لها استسلام الخاضع الخانع الذي لا يملك من أمره شيئا.

هذه الصورة لتأثير القرآن هي ببساطة صورة الوليد بن المغيرة من أعدا أعداء الإسلام في صدر الدعوة- وهو يستمع للنبي صلى الله عليه وسلم يتلوا آيات من القرآن الكريم فتتحرك جوانحه، فيصف القرآن بما هو أهل له، روى ابن عباس قوله: «جاء الوليد بن المغيرة إلى النبي -صلى الله عليه وسلم- فقرأ عليه القرآن فكأنه رق له، فبلغ ذلك أبا جهل فأتاه فقال: يا عم، إن قومك يرون أن يجمعوا لك ما لا قال: لم؟ قال ليعطوك. فإنك أتيت محمدا لتعرض لما قبله، قال: قد علمت قريش أني من أكثرها مالا قال: فقل فيه قولا يبلغ قومك أنك منكر لها أو أنك كاره له قال: وماذا أقول؟ فوالله ما فيكم رجل أعلم بالأشعار مني ولا أعلم برجزه ولا بقصيده مني ولا بأشعار الجن. والله ما يشبه الذي يقول شيئا من هذا والله إن لقوله الذي يقول حلاوة وإن عليه لطلاوة، وإنه لمثمر أعلاه مغدق أسفله وإنه ليعلو وما يعلى وإنه ليحطم ما تحته قال: لا يرضى عنك قومك حتى تقول فيه: فدعني حتى أفكر فيه، فلما فكر قال: هذا سحر يؤثر، يأثره عن غيره فنزلت الآية ﴿ذَرْنِي وَمَنْ خَلَقْتُ وَحِيدًا﴾[2]»[3].

---

[1] الوليد بن المغيرة بن عبد الله بن عمر بن مخزوم أبو عبد شمس، ولد سنة 95 ق هـ – 530م من قضاة العرب في الجاهلية ومن زعماء قريش اشتهر بوصف العدل لأنه كان لوحده يكسو الكعبة بينما قريش تكسوها مجتمعة، حرم على نفسه الخمر، أدرك الإسلام وهو شيخ هرم فعاداه وحاربه توفي في السنة الأولى للهجرة سنة 1ه الموافق لـ 622م.

[2] المدثر: الآية 11.

[3] الحاكم أبي عبد الله "النيسابو ري" المستدرك على الصحيحين مج2 كتاب التفسير سورة المدثر دار الكتاب العربي، بيروت لبنان، ص506 ، 507.

أدركت قريش أن انتصار قوى الخير على قوى الشر و الحق على الباطل في نفسية الوليد إعلان عن نهايتها على اعتبار أن الوليد من أكابر قريش الذين لا يعصى لهم أمر ولا يرد لهم قضاء. وبالتالي فقدان كل الامتيازات التي تخولها لهم الجاهلية.

لمست قريش هذا التحول من خلال الوصف الذي وصف به القرآن الكريم واستشرفت الأثر البعيد الذي سيتركه تحول الوليد عن الجاهلية في واقع المجتمع القريشي و العلاقات الاجتماعية التي تنتظمه، فسارعت إلى تدارك الأمر قبل فواته.

ندرك حالة الاستنفار القصوى التي أعلنتها قريش ونستشف حالة الذعر و الخوف التي أصابتها وقولهم هذا « صبأ وا لله الوليد: وا لله لتصبأن قريش كلهم» تعبير عن مكنوناتهم، ومن ثم لابد لقوى الشر أن تمنع قوى الخير من الزحف والتقدم، وتحول دون تحقيق الخير لأهدافه فتحركت في شخصية أبي جهل.

كان أبو جهل على علم بمكامن الضعف في شخصية الوليد من خلال معاشرته له، فكان واثقا من قدرته على إعادة ترتيب قوى الشر في نفسية الوليد والحيلولة دون تقدم الخير، وإعادة المياه إلى مجاريها. إن الطمع هو نقطة الضعف في شخصية الوليد رغم غناه وامتلاكه ما لا تملكه قريش (إن قومك يرون أن يجمعوا لك..) لم يكن ذهابك لمحمد سوى طمعا فيما سيعطيك؟ الوليد أغنى قريش يطمع في محمد؟ إنه الحط من شخصية و إهانة لكبريائه، هذه الشخصية التي ما فتئ يجهد نفسه في إظهارها والافتخار بها على أقرانه وأترابه، (لقد علمت قريش إني أكثرها مالا).

إن مكانة الوليد الاجتماعية بين أشراف مكة و أرومتها مهددة بالسقوط كما أن هيبته معرضة للدنس و التشويه، هذه هي الرسالة التي أراد أبو جهل إبلاغها للوليد.

إن الصراع بين قوى الخير و الشر وتدافع الحق والباطل يبعث من جديد، في جولة جديدة على مستوى كيان الوليد، تزودت فيه نوازع الشر شحنات إضافية من واقع المجتمع الجاهلي تسترد ما افتقده من مواقع.

صور القرآن هذا التدافع و الصراع في جمل قصيرة بأسلوب يحيط بمساحات هذا الصراع

بكل جوانبه في الآية الكريمة: ﴿إِنَّهُ فَكَّرَ وَقَدَّرَ، فَقُتِلَ كَيْفَ قَدَّرَ، ثُمَّ قُتِلَ كَيْفَ قَدَّرَ ثُمَّ نَظَرَ ثُمَّ عَبَسَ وَبَسَرَ، ثُمَّ أَدْبَرَ وَاسْتَكْبَرَ فَقَالَ إِنْ هَذَا إِلَّا سِحْرٌ يُؤْثَرُ إِنْ هَذَا إِلَّا قَوْلُ الْبَشَرِ..﴾[1].

إن مراحل هذا التدافع من أوله إلى منتهاه مرسومة كأنها لوحة فنان. « الرجل يكد ذهنه ويعصر أعصابه، ويقبض جبينه وتكلح ملامحه وقسماته كل ذلك ليجد عيبا يعيب به هذا القرآن و ليجد قولا يقول فيه لتنتصر قوى الشر على قوى الخير.

لقد تشكلت ذاته بأشكال مختلفة تبعا لمراحل هذا التدافع وأنه (فكر و قدر فقتل)، لمحة لمحة، وخطرة خطرة، وحركة يرسمها التعبير كما لو كانت ريشة تصور لا كلمات تعبر كما لو كانت فيلما متحركا يلتقط المشهد لمحة لمحة.....!!!»[2].

إن الشحنات الإضافية التي زود بها الوليد كانت لها أثرا كبيرا على مجرى الصراع وإعادة صياغة التدافع.

أخذ بريق الكبرياء والرياسة والشرف بلب الوليد وجنحت به بعيدا عن الحقيقة ﴿إِنْ هَذَا إِلَّا سِحْرٌ يُؤْثَرُ﴾ هذا البريق هو ذاته الذي أخذ ببصر أبا طالب وحجب عنه الحقيقة رغم إلحاح النبي -صلى الله عليه وسلم- وتوسلاته فقال للنبي وهو يودعه «يا بن أخي، والله لولا مخافة السبة عليك وعلى بني أبيك من بعدي وأن تظن قريش أني قلتها جزعا من الموت لقلتها، لا أقولها إلا لأسرك بها..»[3].

سبر القرآن الكريم أغوار النفس الإنسانية، وكشف عن دقائقها ووقف معها في مسراتها وأحزانها، في حركاتها وسكناتها ، وفي صراعاتها وودعتها، و استعمل للدلالة على ذلك ألفاظا و كلمات في غاية الدقة ترسم المعنى المراد في نفس الإنسان، من هذه الألفاظ

---

(1) المدثر: الآية 18...25.

(2) سيد قطب في ظلال القرآن مج6 ( مرجع سابق) ص: 3756.

(3) محمد عفيف الزعبي مختصر سيرة ابن هشام مراجعة عبد الحميد الأحدب دار النفائس ط6 سنة 1985 بيروت- لبنان ص:80.

والكلمات:" الغم، اللوم، الحسرة،الاطمئنان..." و لم يستثن في ذلك أي إنسان، سواء أكان نبيا أو إنسانا عاديا، رجلا أو امرأة في رسم معالم هذا التدافع والصراع.

### 3-نموذج نبي الله موسى عليه السلام:

من الله على نبيه موسى عليه السلام إذ أخرجه من الغم والنكد الذي اعتراه بسبب الخطأ الذي ارتكبه، وعظم ذلك في نفسه و أصبح شريدا طريدا يتبعه الغم والأسى والحسرة أينما حل صور القرآن كيان موسى مسرحا لقوى الخير تؤدي دورها على أحسن و أكمل وجه في تطهير نفسه وجوارحه من آثار قوى الشر و الخطيئة المرتكبة في قوله﴿...وَقَتَلْتَ نَفْسًا فَنَجَّيْنَاكَ مِنَ الْغَمِّ وَفَتَنَّاكَ فُتُونًا...﴾[1]. والأمر ذاته يتكرر مع نبي الله يونس عليه السلام، لما خرج مغاضبا مخالفا لأمر الله فأصابه غم وكرب شديد وهو في بطن الحوت فتدخلت العناية الإلهية لإخراجه من الحسرة و الألم والصراع الذي اعتراه، يصور الله ذلك في قوله:﴿وَذَا النُّونِ إِذْ ذَهَبَ مُغَاضِبًا فَظَنَّ أَنْ لَنْ نَقْدِرَ عَلَيْهِ فَنَادَىٰ فِي الظُّلُمَاتِ أَنْ لَا إِلَٰهَ إِلَّا أَنْتَ سُبْحَانَكَ إِنِّي كُنْتُ مِنَ الظَّالِمِينَ فَاسْتَجَبْنَا لَهُ وَنَجَّيْنَاهُ مِنَ الْغَمِّ وَكَذَٰلِكَ نُنْجِي الْمُؤْمِنِينَ﴾[2].

### خامسا: منهج القرآن في التخفيف من حدة التدافع النفسي:

إن الصراع و التدافع في كيان الإنسان حقيقة قرآنية، كما أن سلوك الإنسان في واقعة ومحيطه هو ترجمة لهذا التدافع، هذا الأثر البالغ للتدافع النفسي ترك المولى عز وجل يقسم بالنفس الإنسانية ووظيفتها وما أقسم الله بشيء إلا لعظمته في قوله: ﴿لَا أُقْسِمُ بِيَوْمِ الْقِيَامَةِ وَلَا أُقْسِمُ بِالنَّفْسِ اللَّوَّامَةِ﴾[3] ، واللوامة هي التي تلوم صاحبها على الخير والشر على السواء.

قال الفراء: «..ليس من نفس برة ولا فاجرة إلا وهي تلوم نفسها إن كانت عملت خيرا

---

[1] طه الآية 40 .

[2] الأنبياء: الآية 88.

[3] القيامة: الآية 1-2.

قال: هل زدت وإن عملت سوء قال ليتني لم أفعل، و قال ابن جرير و المعنى الأشبه بظاهر التنزيل أنها التي تلوم صاحبها على الخير والشر وتندم على ما فات..»[1]

«إن الإنسان بطبيعته التي خلق عليها قابلا قبولا طبيعيا أن يتخذ هذا الوضع أو ذاك و ضع سيطرة الجسم على الكيان الممتزج، أو سيطرة الروح أي أنه مشتمل بصورة طبيعية على استعداد للخير واستعداد للشر.»[2] غير أنه « أقرب للخير منه في أصل فطرته وقوته الناطقة العاقلة من جهة ومن جهة أخرى أقرب لخلال الشر منه للخير بأصل قوته الحيوانية التي ركبت فيه»[3] ،بل إنه حينما يترك وشأنه أكثر ميلا لأن يستجيب لثقلة الطين مصداقا لقوله تعالى: ﴿وَخُلِقَ الْإِنسَانُ ضَعِيفًا﴾[4] .

إن الإقلال من الشهوات والمتع يضعف ويقلل تأثير نوازع الشر على الإنسان كما أن الانغماس فيها يقويها ويعطيها السلطة عليه، ومن ثم لم يكن سلوك ابن آدم القاتل وتصرفه هذا ليكون لو لم يركن إلى الأرض وتتحكم فيه النوازع الحيوانية كما أن حب الوليد للمال و طمعه في الرفعة والسؤدد جعل قوى الشر تتمكن من ناصيته وتحول وجهته.

إن نوازع الشر إذا تمكنت من الإنسان وملكت جوانحه تجعله يفسد في الأرض ويسفك الدماء ويصد عن ذكر الله و عن الصلاة ولا يمكن لها ذلك إلا إذا ركن الإنسان إلى الأرض وأسرف في الشهوات، ومن ثم يعطيها المقدرة على قهر نوازع الخير و السيطرة عليها.

إن أحكام القرآن وتعاليمه تعمل على توقيف زحف الشر و التقليل من آثاره وذلك بالإقبال على الآخرة والاقتصاد من الشهوات بما يحقق السير الطبيعي للحياة فحسب، بدليل الآيات القرآنية الواردة منها قوله تعالى ﴿ وَابْتَغِ فِيمَا آتَاكَ اللَّهُ الدَّارَ الْآخِرَةَ وَلَا تَنسَ نَصِيبَكَ مِنَ

---

[1] عبد الرحمان ابن الجوزي زاد المسير في علم التفسير مج8 المكتب الإسلامي للطباعة والنشر ط1 بيروت-لبنان ص: 416.

[2] محمد قطب دراسات في النفس الإنسانية دار الشروق سنة 1974 بيروت -لبنان ص: 338.

[3] عبد الرحمان ابن خلدون المقدمة (مرجع سابق) ص142.

[4] النساء: الآية 28.

الدُّنْيَا وَأَحْسِنْ كَمَا أَحْسَنَ اللَّهُ إِلَيْكَ وَلَا تَبْغِ الْفَسَادَ فِي الْأَرْضِ إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ الْمُفْسِدِينَ﴾[1]
ووردت أحاديث كثيرة منها عن ابن عمر أنه قال: «كُنْ فِي الدُّنْيَا كَأَنَّكَ غَرِيبٌ أَوْ عَابِرُ سَبِيلٍ»[2]، و قال صلى الله عليه وسلم «مَا أَنَا وَالدُّنْيَا، إِنَّمَا أَنَا وَالدُّنْيَا كَرَاكِبٍ اسْتَظَلَّ تَحْتَ شَجَرَةٍ ثُمَّ رَاحَ وَتَرَكَهَا »[3].

إن التدافع الذاتي العمودي الباطني الذي سماه النبي في حديثه بـ"الجهاد الأكبر"[4] لايتحقق ولا يصل إلى هدفه إلا بالتجرد والمراقبة والقدرة على المقاومة والحذر، لأن مواجهة الإنسان لذاته و تغييرها تغييرا إيجابيا وتطهيرها من الشهوات والنزاعات والممارسات السلبية ليس بالأمر الهين لاسيما وأن نوازع الشر تقف له بالمرصاد ويذلل لها الواقع كل الصعوبات.

كان النبي صلى الله عليه وسلم على علم بما لأهواء النفوس من قدرة على تغيير المواقف وتحويل الوجهات، فنص على ضرورة تطهير القلوب و الجنان، وإخلاص النية، من آثاره و أقواله:«أَلَا وَإِنَّ فِي الْجَسَدِ مُضْغَةً إِذَا صَلُحَتْ صَلُحَ الْجَسَدُ كُلُّهُ وَإِذَا فَسَدَتْ فَسَدَ الْجَسَدُ كُلُّهُ أَلَا وَهِيَ الْقَلْبُ»[5] . فكان عليه الصلاة والسلام يوصي خاصة قواد الجيوش بتقوى الله و الابتعاد عن كل ما يثير نوازع الشر حتى لا تتغير النيات ومن ثم يتغير الموقف، فجاء عنه في الحديث أنه كان «إذا مر على أمير جيش أو سرية أوصاه في خاصته بتقوى الله ومن معه من المسلمين خيرا قال: «..أُغْزُوا بِاسْمِ اللَّهِ فِي سَبِيلِ اللَّهِ، قَاتِلُوا مَنْ كَفَرَ بِاللَّهِ، أُغْزُوا وَلَا تَغُلُّوا وَلَا تَعْتَدُوا، وَلَا تُمَثِّلُوا وَلَا تَقْتُلُوا وَلِيدًا...»[6] ، وسار على منهاجه الخلفاء من بعده ولذات الغاية ظهرت في التاريخ الإسلامي مدارس تعنى بهذا الجانب من الإنسان عرفت بالمدارس الصوفية.

---

(1) القصص: الآية 77.

(2) محمد بن اسماعيل البخاري الجامع الصحيح مج4 كتاب الرقاق ج 5 دار الفكر سنة 1981 بيروت-لبنان ص: 170.

(3) ابن ماجة سنن ابن ماجة مج 3 كتاب الزهد ح رقم 4109 دار الكتاب المصري تحقيق محمد فؤاد عبد الباقي دار الفكر ط1 سنة 1981 بيروت- لبنان ص1376.

(4) ذكره ابن حجر في تخريج أحاديث الأحياء مج4 ص6 والبيهقي في الزهد.

(5) مسلم بن الحجاج صحيح مسلم مج3 كتاب المساقاة ح رقم 107 ص: 1219-1220.

(6) مسلم بن الحجاج صحيح مسلم مج3 كتاب الجهاد والسير ح رقم 1730 ص:1357.

يقول العلامة أبو الحسن الندوي: «قيض الله للمسلمين في كل عصر وجيل من ينفون عن هذا الدين تحريف الغالين، وانتحال المبطلين وتأويل الجاهلين، ويدعون إلى التزكية الخالصة من شوائب العجمية والفلسفية وإلى الإحسان وفقه الباطن من غير تحريف ولا انتحال و تأويل، ويجددون هذا الطب النبوي لكل عصر، وينفخون في الأمة روحا جديدة من الإيمان والإحسان و يجددون صلة القلوب بالله والأجسام بالأرواح...والعلماء بالربانية، ويوجدون في الجمهور قوة مقاومة الشهوات وفتنة المال والولد، وزينة الحياة الدنيا، وفي الخواص قوة مقاومة صلات الملوك وسياطهم ووعدهم ووعيدهم، والاستهانة بالمظاهر والزخارف والقناعة باليسر....»[1]

إن منهج التوسط الذي رسمته آيات القرآن الكريم في تعاملها مع طبيعة الإنسان المزدوجة، ضيق من حجم الصراع والتدافع النفسي الذي يعتري الإنسان ووجهته بما يخدم صالح الإنسان في نفسه ومجتمعه، ﴿إِنَّ الَّذِينَ اتَّقَوْا إِذَا مَسَّهُمْ طَائِفٌ مِنَ الشَّيْطَانِ تَذَكَّرُوا فَإِذَا هُمْ مُبْصِرُونَ﴾[2] ، ﴿الَّذِينَ آمَنُوا وَتَطْمَئِنُّ قُلُوبُهُمْ بِذِكْرِ اللَّهِ أَلَا بِذِكْرِ اللَّهِ تَطْمَئِنُّ الْقُلُوبُ﴾[3] ، ﴿وَذَكِّرْ فَإِنَّ الذِّكْرَى تَنْفَعُ الْمُؤْمِنِينَ...[4]﴾.

هذا المنهج هو الذي أخرج للإنسانية أفضل حضارة عرفها التاريخ البشري، عرف الإنسان فيها حقيقة نفسه وأدرك هدفه، ولم يشعر خلالها غربة في نفسه وواقعه.

---

[1] أبو الحسن علي الحسيني الندوي ربانية لا رهبانية مؤسسة الرسالة ط4 سنة 1986 بيروت- لبنان ص13.

[2] الأعراف: الآية 201.

[3] الرعد: الآية 28.

[4] الذاريات: الآية 55.

**سادسا : التدافع الفكري :**

الصراع بين الحق والباطل، بين الخير والشر، يأخذ أشكالا عدة بحسب طبيعة وزمن هـــذا الصـــراع والتدافع، فهو تارة يأخذ شكل الحوار الهادئ الرزين والمعتمد على الحجة والبرهان، المعبرعنه بالجدل،وتـــارة يأخذ شكل القوة والعنف،إذا ما عجزت الحجة والبرهان أن على أن تجد لها طريقا لكيان الإنسان وواقعه .

سلك القرآن الكريم في عمليته التغييرية للجاهلية بكل مظاهرها المسلكين جميعا، إلا أنه لما كان للكلمة الطيبة الرزينة من أثر فعال في نفسية الإنسان كان الحوار والجدال هو الطريق الأمثل لعرض الأفكار والـرؤى، ومناقشتها مناقشة موضوعية علمية يتبين فيها أولا الحق من الباطل وليتخذ بعدها الإنسان العاقل أي الطريقين يختار، إما طريق الخير على اعتبار أنه صاحب الحجة والبرهان أو طريق الشر الذي أصبح مهزوما في نفســـه وواقعه لا يجد مستندا يقف عليه.

إن الهدف من الجدال والحوار أن تدخل الفكرة في وعي الإنسان بعمق وتقتحم عليه عـــالم أفكـــاره، وأحاسيسه ولتحدث فيه تدافعا نفسيا ذاتيا تزعزع مسلماته التي يعتمد عليها، وإلى هذا المعنى يشير القـــرآن الكريم بقوله: ﴿أَفَلَا يَتَدَبَّرُونَ الْقُرْآنَ أَمْ عَلَىٰ قُلُوبٍ أَقْفَالُهَا ...﴾[1]

**أ-الجدل القرآني :**

أخذت آيات الجدل والحوار مساحات واسعة من القرآن الكريم و كلمة الجدل لوحدهـــا وردت في سبعة وعشرين موضعا نذكر منها قوله تعالى :

﴿وَجَادَلُوا بِالْبَاطِلِ لِيُدْحِضُوا بِهِ الْحَقَّ فَأَخَذْتُهُمْ ...﴾[2] ﴿فَإِنْ جَادَلُوكَ فَقُلِ اللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا تَعْمَلُونَ...﴾[3] ﴿وَلَا تُجَادِلُوا أَهْلَ الْكِتَابِ إِلَّا بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ...﴾[4]، ﴿وَكَانَ الْإِنسَانُ أَكْثَرَ شَيْءٍ جَدَلًا...﴾[5]

«ولعل السر في ذلك ما واجهه الإسلام من قضايا أو ما عاش فيها الإنسان من مواقـــف، فقـــد واجه التحديات الفكرية والتقليدية التي تعيش داخل وعي الإنسان وفكره،مما يدخل في حركة التغيير الـتي يريد لها الإسلام أن تغزوا أعماق الإنسان و فكره، لتنقله من ظلمات الشك

---

[1] محمد : الآية 24 .

[2] غافر : الآية 05 .

[3] الحج : الآية 28 .

[4] العنكبوت : الآية 46 .

[5] الكهف : الآية 54 .

والكفر والضلال إلى نور الإيمان والتوحيد .

كما أنه أيضا واجه التحديات الخارجية من القوى الدينية والاجتماعية والسياسية التي كانت تسيطر على حياة الإنسان في المجتمعات التي لا تؤمن بالإسلام»[1] .

إن مدلول كلمة الجدل يبرز أن أي فكرة ماكان لها أن تلج إلى ذاتية الإنسان وتستقر في عمق أحاسيسه ومخزونه الفكري إلا بعد أن تخوض حربا ضروسا وصراعا ضد الأفكار المسبقة التي يتبناها الإنسان.

« فكلمة الجدل تعني اللدد في الخصومة، وفي الحديث "مَا أُوْتِيَ قَوْمٌ الجَدَلَ ألاَ ضَلُّوا"[2] والجدل مقابلة الحجة بالحجة، والمجادلة المخاصمة، والمراد بالجدل في الحديث الجدل على الباطل و طلب المغالبة ..» [3]

إن مقابلة الأفكار بعضها ببعض و عرضها على محك العقل، يعطيها قوة ويقينا لاسيما إذا كانت تستند على الحجة والبرهان .

إن طبيعة الإنسان العناد حتى أضحت هذه الصفة من الصفات الفطرية لديه ﴿وَكَانَ الإِنسَانُ أَكْثَرَ شَيْءٍ جَدَلًا﴾ [4] ، « و معنى هذا أن الإنسان بحكم كونه يملك مؤهلات ذهنية، إلى جانب ما يحمله من ميول ونوازع تحرص كل الحرص على توفير رغباتها، والظفر بمبتغاها، نراه قادرا على الدفاع عن كيانه، و عن ذاتيته بشكل تلقائي وهو ما يولد فيه-جبلة- الميل ..للخصام وحب المراد، فهو ينازع ويعاند ويجادل إثباتا لوجوده وتأكيدا لبقائه وإظهارا لشخصيته..» [5] .

« .. فطر الإنسان على مواجهة الحياة بكل ما فيها من أوضاع و أحداث و ملابسات

---

(1) محمد حسين فضل الله الحوار في القرآن المؤسسة الجامعية للدراسات والنشر ط 3 سنة 1985 بيروت – لبنان ص 16 .

(2) ابن ماجة سنن ابن ماجة مج1 المقدمة ح رقم 48 تحقيق محمد فؤاد عبد الباقي دار الكتاب المصري واللبناني ص 19.

(3) ابن منظور لسان العرب مج 1 ص 420 .

(4) الكهف : الآية 54.

(5) محمد التومي الجدل في القرآن دار الشهاب الجزائر ص:12 .



جامعة الأمير عبد القادر للعلوم الإسلامية

وأفكار- بعقلية متفتحة قلقة- لا تستقر على حال، فتراه يفتش على الشيء وضده وعن الحق والباطل، ليجادل في هذا ويحاور في ذلك فلا يتيقن إلا ليتململ في رحلة جديدة نحو الشك ولا شك إلا ليبدأ رحلة نحو اليقين...»[1]

## ب-نماذج من الجدل القرآني:

سجل القرآن الكريم تلك الحوارات والمجادلات التي قادها الأنبياء والرسل برغبة منهم حينا ومفروضة عليهم أحيانا أخرى، إبان حركتهم التغييرية وتدافعهم مع الباطل في سور عديدة ومواقع مختلفة، يقف نوح عليه السلام في طليعة الرسل الكرام، الذين وضعوا قواعد وأسس الجدال المبني على الحجة والبرهان.

إن المتأمل لما ذكره القرآن في حجاج نوح وجداله مع قومه، ليقف مشدوها لقدرته العجيبة على إيضاح الفكرة و دحض الشبهات، وتقديمها في أسلوب لا يترك مجالا للشك والريب، كما يقف أيضا على نموذج من العقلية الضيقة المستبدة التي ركبها العناد والغرور فتشبثت بالباطل وتذرعت بكل ذريعة حتى ولو لم تكن لها علاقة البتة بموضوع الجدل إلا تهربا من الحق ومحاولة التمويه والخداع وإمعانا في العناد، وهذه الآيات تصور مشاهد الجدال وخلفياته ودقائقه، قال الله تعالى: ﴿ وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحًا إِلَىٰ قَوْمِهِ، إِنِي لَكُمْ نَذِيرٌ مُبِينٌ أَنْ لَا تَعْبُدُوا إِلَّا اللَّهَ إِنِي أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ أَلِيمٍ فَقَالَ الْمَلَأُ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ قَوْمِهِ، مَا نَرَاكَ إِلَّا بَشَرًا مِثْلَنَا وَمَا نَرَاكَ اتَّبَعَكَ إِلَّا الَّذِينَ هُمْ أَرَاذِلُنَا بَادِيَ الرَّأْيِ وَمَا نَرَىٰ لَكُمْ عَلَيْنَا مِنْ فَضْلٍ بَلْ نَظُنُّكُمْ كَاذِبِينَ قَالَ يَا قَوْمِ أَرَأَيْتُمْ إِنْ كُنْتُ عَلَىٰ بَيِّنَةٍ مِنْ رَبِي وَآتَانِي رَحْمَةً مِنْ عِنْدِهِ فَعُمِّيَتْ عَلَيْكُمْ أَنُلْزِمُكُمُوهَا وَأَنْتُمْ لَهَا كَارِهُونَ، وَيَا قَوْمِ لَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ مَالًا إِنْ أَجْرِيَ إِلَّا عَلَى اللَّهِ وَمَا أَنَا بِطَارِدِ الَّذِينَ آمَنُوا إِنَّهُمْ مُلَاقُوا رَبِّهِمْ وَلَٰكِنِي أَرَاكُمْ قَوْمًا تَجْهَلُونَ، وَيَا قَوْمِ مَنْ يَنْصُرُنِي مِنَ اللَّهِ إِنْ طَرَدْتُهُمْ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ، وَلَا أَقُولُ لَكُمْ عِنْدِي خَزَائِنُ اللَّهِ وَلَا أَعْلَمُ الْغَيْبَ وَلَا أَقُولُ إِنِي مَلَكٌ وَلَا أَقُولُ لِلَّذِينَ تَزْدَرِي أَعْيُنُكُمْ لَنْ

---

[1] محمد حسين فضل الله الحوار في القرآن (مرجع سابق) ص: 21.

يُؤْتِيَهُمُ اللَّهُ خَيْرًا اللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا فِي أَنْفُسِهِمْ إِنِّي إِذًا لَمِنَ الظَّالِمِينَ﴾ [1]

لم يترك نوح عليه السلام أي ثغرة في دعوته يستطيع قومه من خلالها جداله أو دحض حججه، بل على العكس من ذلك استطاع أن يهز مسلماتهم الفكرية و العقدية ويدخل الشك إلى عقولهم، فلم يقدروا على مجابهته ولا أسعفتهم عقولهم ولا آلهتهم بأية حيلة أو مخرج إلا أن قالوا : ﴿ ..يَا نُوحُ قَدْ جَادَلْتَنَا فَأَكْثَرْتَ جِدَالَنَا فَأْتِنَا بِمَا تَعِدُنَا إِنْ كُنْتَ مِنَ الصَّادِقِينَ﴾[2].

يعلق صاحب المنار على الآية فيقول: «.. يا نوح قد خاصمتنا وجادلتنا فأكثرت جدالنا واستقصيت فيه فلم تدع لنا حجة إلا دحضتها حتى مللنا وسئمنا و لم يبق عندنا شيء نقوله يدل على هذا قوله في سورة نوح ﴿قَالَ رَبِّ إِنِّي دَعَوْتُ قَوْمِي لَيْلًا وَنَهَارًا فَلَمْ يَزِدْهُمْ دُعَائِي إِلَّا فِرَارًا﴾[3] »[4]

لقد أقروا بعجزهم وفشلهم عن مواجهة ومجابهة نوح فيما يعرضه من أفكار ومع ذلك أبو إلا التشبث بالباطل والاستمساك به ﴿فَأْتِنَا بِمَا تَعِدُنَا إِنْ كُنْتَ مِنَ الصَّادِقِينَ﴾[5] .

لقد انتصر الحق مع نوح بلسان الجدال ومدافعة الأفكار إلا أن الباطل لم يكن ييسره أن ير الحق منتصرا، فلا بد أن يتخذ أسلوبا آخر يواجه به الحق ويقهر به نوحا ودعوته، إنه ميدان القوة والإرهاب لعله يجدي ويردع نوحا ﴿لَئِنْ لَمْ تَنْتَهِ يَا نُوحُ لَتَكُونَنَّ مِنَ الْمَرْجُومِينَ﴾[6]

يعرض علينا القرآن نموذجا آخر للجدال في شخصية نبي من أعظم الأنبياء مكانة ألا وهو إبراهيم الخليل عليه السلام، فالمتأمل للحوارات والمجادلات التي دارت بينه وبين قومه يدرك

---

[1] هود: الآية 24...31.

[2] هود: الآية 32.

[3] نوح : الآية 5-6

[4] محمد رشيد رضا المنار مج 12 ص :69

[5] هود الآية32.

[6] الشعراء: الآية 116.

المنهجية العلمية التي امتاز بها إبراهيم عليه السلام في إدارة هذا الجدال أو ذاك، وما يتركه مثل هذا النوع من الصراع الفكري المبني على المقدمات والتسليم بجميع الأفكار والرؤى ثم عرضها للمناقشة والنظر والمنطق من أثر في النفوس. إن أي فكرة صحيحة تقوم على الحجة والبرهان لا تخشى كل جدال وحوار من هذا القبيل ، وبالمقابل فإن أي فكرة لا تستند إلى منطق، لا تلبث أن تسقط في ميدان الجدال والتدافع ولن تقوم لها قائمة بعد، تلك هي مواصفات جدال إبراهيم الخليل كما تعرضه آيات القرآن الكريم ولنتأمل قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ آتَيْنَا إِبْرَاهِيمَ رُشْدَهُ مِنْ قَبْلُ وَكُنَّا بِهِ عَالِمِينَ إِذْ قَالَ لِأَبِيهِ وَقَوْمِهِ مَا هَذِهِ التَّمَاثِيلُ الَّتِي أَنْتُمْ لَهَا عَاكِفُونَ قَالُوا وَجَدْنَا آبَاءَنَا لَهَا عَابِدِينَ، قَالَ لَقَدْ كُنْتُمْ أَنْتُمْ وَآبَاؤُكُمْ فِي ضَلَالٍ مُبِينٍ قَالُوا أَجِئْتَنَا بِالْحَقِّ أَمْ أَنْتَ مِنَ اللَّاعِبِينَ قَالَ بَلْ رَبُّكُمْ رَبُّ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ الَّذِي فَطَرَهُنَّ وَأَنَا عَلَى ذَلِكُمْ مِنَ الشَّاهِدِينَ وَتَاللَّهِ لَأَكِيدَنَّ أَصْنَامَكُمْ بَعْدَ أَنْ تُوَلُّوا مُدْبِرِينَ، فَجَعَلَهُمْ جُذَاذًا إِلَّا كَبِيرًا لَهُمْ لَعَلَّهُمْ إِلَيْهِ يَرْجِعُونَ قَالُوا مَنْ فَعَلَ هَذَا بِآلِهَتِنَا إِنَّهُ لَمِنَ الظَّالِمِينَ قَالُوا سَمِعْنَا فَتًى يَذْكُرُهُمْ يُقَالُ لَهُ إِبْرَاهِيمُ، قَالُوا فَأْتُوا بِهِ عَلَى أَعْيُنِ النَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَشْهَدُونَ، قَالُوا أَأَنْتَ فَعَلْتَ هَذَا بِآلِهَتِنَا يَا إِبْرَاهِيمُ، قَالَ بَلْ فَعَلَهُ كَبِيرُهُمْ هَذَا فَاسْأَلُوهُمْ ، إِنْ كَانُوا يَنْطِقُونَ فَرَجَعُوا إِلَى أَنْفُسِهِمْ فَقَالُوا إِنَّكُمْ أَنْتُمُ الظَّالِمُونَ ثُمَّ نُكِسُوا عَلَى رُءُوسِهِمْ لَقَدْ عَلِمْتَ مَا هَؤُلَاءِ يَنْطِقُونَ قَالَ أَفَتَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ مَا لَا يَنْفَعُكُمْ شَيْئًا وَلَا يَضُرُّكُمْ أُفٍّ لَكُمْ وَلِمَا تَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ أَفَلَا تَعْقِلُونَ﴾[1]

إن هذه الآيات تصوير حقيقي لمراحل الجدال. وتصارع الأفكار من مبدئه إلى منتهاه ترسم في الذهن صورة إبراهيم وهو يحاجج و يجادل، كما ترسم صورة القوم ﴿الَّذِينَ سُقِطَ فِي أَيْدِيهِمْ وَرَأَوْا أَنَّهُمْ قَدْ ضَلُّوا﴾[2]

---

[1] الأنبياء: الآية 51...67.

[2] الأعراف: الآية 149.

تركت أفكار إبراهيم عليه السلام أثرا بالغا في القوم وأحدثت في نفوسهم رجة كبيرة وزعزعت منظوماتهم الفكرية والعقدية، إذ أدخل الشك في نفوسهم وأثبت العجز لأصنامهم، وما يترتب عن هذا العجز من نقص والنقص ليس من صفات الإله الكامل القادر، وهذه أولى علامات النجاح في دعوته وحركته التغييرية.

إن عودة القوم إلى أنفسهم واتهامها بالظلم هي بداية الطريق للعملية التغييرية وهو الطريق الصحيح للتغيير لأن أي تغيير ينطلق ابتداء من الأنفس والذوات، إلا أن الأمر لم يدم طويلا إذ تداركت داعية الشر في الإنسان الأمر ووجهت الجدال والصراع إلى موضوع آخر ومجال آخر، ﴿ ثُمَّ نُكِسُوا عَلَىٰ رُءُوسِهِمْ لَقَدْ عَلِمْتَ مَا هَٰؤُلَاءِ يَنطِقُونَ﴾ [1] .

« لقد استقام القوم حين رجعوا إلى أنفسهم وجاءوا بالفكرة الصالحة ثم انتكسوا وانقلبوا عن تلك الحالة فأخذوا في المجادلة بالباطل والمكابرة» [2] .

إن هذه طبيعة الباطل كلما انهزم في ميدان إلا وتحول إلى ميدان آخر بأسلوب جديد وفي ثوب فضفاض، ليقارع الحق ويحاول دحضه إن استطاع.

«لقد غلبهم إبراهيم في ميدان الجدل بالحجة القاهرة و لم يجدوا لها مخلصا إلا بإهلاكه، وكذلك المبطل إذا قرعت باطله حجة فساده غضب على الحق و لم يدع له مفزعا إلا مناصبته العداء والتشفي منه...»[2] ﴿ قَالُوا حَرِّقُوهُ وَانصُرُوا آلِهَتَكُمْ إِن كُنتُمْ فَاعِلِينَ﴾[4] .

لقد سلك قومه الطريق ذاته الذي سلكه قوم نوح من قبل في تشبثهم بالباطل ومناصرتهم له بشتى السبل، إن الباطل لن يدخر أي جهد لمقاومة الحق حتى ولو تطلب الأمر استعمال القوة والجبروت.

---

[1] الأنبياء: الآية 65.

[2] الزمخشري الكشاف مج3 ص:125.

[3] محمد الطاهر بن عاشور التحرير والتنوير مج 17 ص: 105.

[4] الأنبياء: الآية 68.

أبرز جدال إبراهيم لقومه التطور المعرفي الذي شهده المجتمع الإنساني في عصره، إذ لم يقتصر على جدال سادة وعبيد، ورفض للأفكار من غير مناقشة ولا إعمال للفكر والعقل كما كان عليه قوم نوح، وإنما تنوعت أساليب الجدال واتسعت مجالاته واستخدمت فيه كل عناصر الجدال بما فيها أساليب التمويه والخداع والمغالطة، وتتضح الصورة أكثر فيما يعرضه القرآن من جدال إبراهيم مع الملك الذي سمي بالنمرود:

﴿ أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِي حَاجَّ إِبْرَاهِيمَ فِي رَبِّهِ أَنْ آتَاهُ اللَّهُ الْمُلْكَ إِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ رَبِّيَ الَّذِي يُحْيِي وَيُمِيتُ قَالَ أَنَا أُحْيِي وَأُمِيتُ قَالَ إِبْرَاهِيمُ فَإِنَّ اللَّهَ يَأْتِي بِالشَّمْسِ مِنَ الْمَشْرِقِ فَأْتِ بِهَا مِنَ الْمَغْرِبِ فَبُهِتَ الَّذِي كَفَرَ وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ ﴾[1]

حاول النمرود مغالطة إبراهيم في مسألة الإحياء والإماتة، إذ زعم أنه يعمد إلى من حكم عليه بالموت فيعفو عنه وإلى بريء فيقتله في مقابل حقيقة إحياء الله للموتى من العدم، لإيهام المستمعين من جانب وإرهابهم من جانب آخر، فما كان من إبراهيم إلا أن ألقمه الحجة، ﴿ إِنَّ اللَّهَ يَأْتِي بِالشَّمْسِ مِنَ الْمَشْرِقِ فَأْتِ بِهَا مِنَ الْمَغْرِبِ... ﴾.

لا تتضح صورة التشعب والتعقيد والتطور المعرفي الذي شهده المجتمع الإنساني إلا من خلال الوقوف عند الفترة التي بعث فيها النبي موسى عليه السلام، وهذا من خلال المجادلات التي اضطر إلى خوضها موسى عليه السلام في مجابهته لباطل فرعون والذي استخدم في الدفاع عن باطله كل معارف عصره وما وقع تحت يده.

كان لزاما على موسى عليه السلام أن يستعد لهذا التدافع والصراع وأن يأخذ بكل أسباب النصر، لا سيما وأنه أدرك المهمة التي كلف بها وحجم الصراع الذي سيخوضه ضد الباطل الذي يعشعش داخل نفوس بني إسرائيل ويزين لفرعون لباس العظمة والألوهية، نلمس هذا كله في حواره مع ربه إذ يقول: ﴿ قَالَ رَبِّ اشْرَحْ لِي صَدْرِي وَيَسِّرْ لِي أَمْرِي وَاحْلُلْ عُقْدَةً

---

[1] البقرة: الآية 258.

مِنْ لِسَانِي يَفْقَهُوا قَوْلِي وَاجْعَلْ لِي وَزِيرًا مِنْ أَهْلِي هَارُونَ أَخِي اشْدُدْ بِهِ أَزْرِي وَأَشْرِكْهُ فِي أَمْرِي كَيْ نُسَبِّحَكَ كَثِيرًا وَنَذْكُرَكَ كَثِيرًا﴾[1]، يعلق الألوسي على الآية بقوله: «لقد كلّف موسى أمرا عظيما وخطبا جسيما يحتاج معه إلى احتمال ما لا يحتمله إلا ذو جأش رابط وصدر فسيح، فاستوهب ربه أن يشرح صدره ويجعله حليما يستقبل ما عسى أن يرد عليه في طريق التبليغ والدعوة إلى مر الحق من الشدائد التي يذهب صبر الصابر بجميل الصبر وحسن الثبات، وأن يسهل عليه مع ذلك أمره الذي هو أجل الأمور وأعظمها وأصعب الخطوب وأهولها بتوفيق الأسباب ورفع الموانع»[2].

لم يتجاسر أحد من الناس على مواجهة فرعون قبل هذا اليوم، لما عرف به من القسوة والبطش، لكن شاءت إرادة الله أن يزول هذا الظلم والعدوان على يد موسى وأخيه، عرضا دعوتهما في غاية الدقة والوضوح من غير لبس ولا تحريف مدعمة بالحجة والبرهان، وعلى الرغم من تمرس فرعون وتمكنه من فن الجدال وقدرته على الكر والفر، وطرح الشبهات وتحوير و تحويل مجرى النقاش والجدال كما تشهد بذلك آيات القرآن الكريم ﴿فَأْتِيَاهُ فَقُولَا إِنَّا رَسُولَا رَبِّكَ فَأَرْسِلْ مَعَنَا بَنِي إِسْرَائِيلَ وَلَا تُعَذِّبْهُمْ قَدْ جِئْنَاكَ بِآيَةٍ مِنْ رَبِّكَ وَالسَّلَامُ عَلَى مَنِ اتَّبَعَ الْهُدَى إِنَّا قَدْ أُوحِيَ إِلَيْنَا أَنَّ الْعَذَابَ عَلَى مَنْ كَذَّبَ وَتَوَلَّى قَالَ فَمَنْ رَبُّكُمَا يَا مُوسَى قَالَ رَبُّنَا الَّذِي أَعْطَى كُلَّ شَيْءٍ خَلْقَهُ ثُمَّ هَدَى قَالَ فَمَا بَالُ الْقُرُونِ الْأُولَى قَالَ عِلْمُهَا عِنْدَ رَبِّي فِي كِتَابٍ لَا يَضِلُّ رَبِّي وَلَا يَنْسَى الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ الْأَرْضَ مِهَادًا وَسَلَكَ لَكُمْ فِيهَا سُبُلًا وَأَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَخْرَجْنَا بِهِ أَزْوَاجًا مِنْ نَبَاتٍ شَتَّى كُلُوا وَارْعَوْا أَنْعَامَكُمْ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِأُولِي النُّهَى مِنْهَا خَلَقْنَاكُمْ وَفِيهَا نُعِيدُكُمْ وَمِنْهَا نُخْرِجُكُمْ تَارَةً أُخْرَى وَلَقَدْ أَرَيْنَاهُ آيَاتِنَا كُلَّهَا فَكَذَّبَ وَأَبَى قَالَ أَجِئْتَنَا لِتُخْرِجَنَا مِنْ

---

[1] طه: الآية 25..33.

[2] شهاب الدين الألوسي: روح المعاني، مج6، ج16، دار الفكر ، بيروت لبنان، 1978، ص181.

أَرْضِنَا بِسِحْرِكَ يَا مُوسَى...﴾ [1]

وعلى الرغم من لجاج فرعون وعدم رضوخه للحق في ظاهر الأمر إلا أن الحجة والبرهان اخترقت كيانه وجعلته مسرحا لصراع نفسي رهيب، يقول العلامة الزمخشري: « وإن فرائص فرعون لترعد مما جاء به موسى عليه السلام لعلمه وإيقانه أنه على الحق وأن المحق لو أراد قود الجبال لانقادت، وإن مثله ما يقل ناصره وأنه غالبه على ملكه لا محالة يلوح هذا من جيب قوله:﴿ أَجِئْتَنَا لِتُخْرِجَنَا مِنْ أَرْضِنَا بِسِحْرِكَ يَا مُوسَى ﴾» [2] .

والشيء الذي ينقدح في الذهن أن مثل هذا الجدال والمناظرة لم يكن غريبا في قصر فرعون، إذا كانت تنتظم تحت سمعه وبصره بل إدارته وتوجيهه، إلا أن الشيء الغريب والحادثة التي لم يسبق لها مثيل أن يكون فرعون هو بعينه طرف في هذا الجدال والمناقشة، فاضطر إلى خوضه حتى لا يوصف بالعجز على مرأى ومسمع من خاصته، وليزيل أيضا ما يكون قد علق في نفوسهم تصديق موسى وأنه على الحق. يقول العلامة الألوسي معلقا على جدال فرعون: « واستدل على شروعه في المناظرة وطلب الحجة...دون السفاهة والشغب مع كونه جبارا شديد البطش... على أن الشغب والسفاهة مع من يدعو إلى الحق غاية في القبح فلم يرض لنفسه أن يوصف بمثل هذه الأوصاف..» [3]

تطورت العلوم وازدهرت، وتخصصت وشملت كل الميادين بما فيها علم التاريخ والدين، وبلغ فيها السحر مبلغا عظيما.

أراد فرعون أن ينقل الصراع والتدافع إلى ميدان آخر وأن يحيل الأمر إلى أهل الخبرة والمعرفة، ويصرف الأنظار ويعمل على شحد الهمم ويوقد العزائم لإيقاف موسى عند حده، وبالتالي توقيف الحق عن اكتساح المواقع.

نجح موسى عليه السلام في إزاحة سحب الضباب التي كانت تحجب الأنظار، غير أن

---

[1] طه : الآية 47...57.

[2] الزمخشري الكشاف مج 4 ص: 70.

[3] الألوسي روح المعاني مج 6 ج16 ص203.

فرعون لجأ إلى نقل الصراع من ميدان الحجج والأفكار إلى ميدان الخداع والسحر والتضليل، وبالتالي استخدام معارف عصره في هذا الصراع وهذه طبيعة الباطل في مدافعته للحق سنة الله في خلقه، ﴿أَجِئْتَنَا لِتُخْرِجَنَا مِنْ أَرْضِنَا بِسِحْرِكَ يَا مُوسَىٰ فَلَنَأْتِيَنَّكَ بِسِحْرٍ مِثْلِهِ فَاجْعَلْ بَيْنَنَا وَبَيْنَكَ مَوْعِدًا لَا نُخْلِفُهُ نَحْنُ وَلَا أَنْتَ مَكَانًا سُوًى﴾[1]

يقول الألوسي: « لما شاهد اللعين ما نظمه موسى عليه السلام في سلك الجواب من البرهان النير على الطراز الرائع، خاف أن يظهر للناس حقيقة مقالاته عليه السلام، وبطلان خرافات نفسه ظهورا بينا، أراد أن يصرفه عليه السلام عن سننه إلا ما لا يعينه من الأمور التي لا تعلق لها في نفس الأمر بالرسالة من الحكايات موهما أن لها تعلقا بذلك، ويشغله عما هو بصدده عسى أن يظهر فيه نوع غفلة فينساق بذلك إلى أن يدعي بين بني قومه نوع معرفة- فاتهم موسى بالسحر والشعوذة-»[2]

أخذ الصراع والتدافع بين الحق والباطل بين الخير والشر وجهة جديدة ونمطا جديدا، لم يعهده من قبل، كان الصراع قديما مقتصرا على مقارعة الحجة بالحجة والكلمة بالكلمة في حدود التصورات والأفكار إلا أنه في عصر موسى خرج عن طابعه التقليدي ليأخذ طابعا ماديا ملموسا، وبعدا جماهيريا يستخدم فيه أحدث الوسائل وأرقى المعارف لتوجيه مسار الصراع بما يخدم الأهداف ويحقق الغايات .

كان السحر في عهد موسى البضاعة الرائجة والحرفة المتقنة، والسحرة الذين لا يشق لهم غبار، كان لزاما على فرعون أن يدفع بموسى إلى مواجهة شياطين السحر، بعد أن انتشر أمره وتسامع الناس ما أظهر الله على يده من معجزات. ولكن الأمر كان أعظم من التدجيل والخداع.

أحدثت دعوة موسى عليه السلام وانتصاراته المتتالية في مواجهة باطل فرعون رجة كبيرة في المجتمع الإسرائيلي، وتحرر بنو إسرائيل من عقدة المهانة التي سلطت عليهم حقبا من السنين

---

[1] طه: الآية 57-58.

[2] الألوسي روح المعاني مج 6 ج 6 ص: 203.

وتتوقت نفوسهم للانعتاق والحرية، ﴿إِنَّ فِرْعَوْنَ عَلَا فِي الْأَرْضِ وَجَعَلَ أَهْلَهَا شِيَعًا يَسْتَضْعِفُ طَائِفَةً مِنْهُمْ يُذَبِّحُ أَبْنَاءَهُمْ وَيَسْتَحْيِي نِسَاءَهُمْ إِنَّهُ كَانَ مِنَ الْمُفْسِدِينَ﴾ [1]، ﴿قَالُوا أُوذِينَا مِنْ قَبْلِ أَنْ تَأْتِيَنَا وَمِنْ بَعْدِ مَا جِئْتَنَا قَالَ عَسَىٰ رَبُّكُمْ أَنْ يُهْلِكَ عَدُوَّكُمْ وَيَسْتَخْلِفَكُمْ فِي الْأَرْضِ فَيَنْظُرَ كَيْفَ تَعْمَلُونَ﴾ [2].

إن صورة السحرة وهم يتحولون من النقيض إلى النقيض، من الإيمان بعزة فرعون إلى الإيمان بالله ورسوله دفعة واحدة بلا مقدمات، ويقفون موقفا صلبا رغم التهديد والوعيد، ويتحولون في ذات الوقت إلى دعاة حقيقيين يحملون الفكرة ويبشرون بها، ندرك الأثر الفعال لدعوة موسى وحجم التغيير والتحول الذي أحدثه في طبيعة المجتمع وفي علاقاته الاجتماعية، يصور الله مشاهد هذا التغيير والتحول الذي أصاب السحرة في عبارات دقيقة ترسم المعنى بوضوح ﴿قَالُوا لَنْ نُؤْثِرَكَ عَلَىٰ مَا جَاءَنَا مِنَ الْبَيِّنَاتِ وَالَّذِي فَطَرَنَا فَاقْضِ مَا أَنْتَ قَاضٍ إِنَّمَا تَقْضِي هَٰذِهِ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا إِنَّا آمَنَّا بِرَبِّنَا لِيَغْفِرَ لَنَا خَطَايَانَا وَمَا أَكْرَهْتَنَا عَلَيْهِ مِنَ السِّحْرِ وَاللَّهُ خَيْرٌ وَأَبْقَىٰ إِنَّهُ مَنْ يَأْتِ رَبَّهُ مُجْرِمًا فَإِنَّ لَهُ جَهَنَّمَ لَا يَمُوتُ فِيهَا وَلَا يَحْيَىٰ وَمَنْ يَأْتِهِ مُؤْمِنًا قَدْ عَمِلَ الصَّالِحَاتِ فَأُولَٰئِكَ لَهُمُ الدَّرَجَاتُ الْعُلَىٰ﴾ [3] أفلت زمام الأمر من يد فرعون، وأخذ التدافع بين الحق والباطل حجما أوسع، ولم يقتصر على مواجهة بين موسى وفرعون فقد تغلغلت العقيدة في قلوب بني إسرائيل وتحول المجتمع الفرعوني إلى طائفتين مختلفتين. طائفة الحق يقودها موسى وأخيه وطائفة الباطل يقودها فرعون، ليأخذ الصراع والتدافع مجرى العنف والإرهاب، وهذا ديدن الباطل كلما اقتربت نهايته، ﴿لَأُقَطِّعَنَّ أَيْدِيَكُمْ وَأَرْجُلَكُمْ مِنْ خِلَافٍ وَلَأُصَلِّبَنَّكُمْ فِي جُذُوعِ النَّخْلِ وَلَتَعْلَمُنَّ أَيُّنَا أَشَدُّ عَذَابًا وَأَبْقَىٰ﴾ [4] إن انتصار موسى عليه السلام في معركته مع باطل فرعون يعود

---

[1] القصص: الآية 04.

[2] الأعراف: الآية 129.

[3] طه: الآية 72...75.

[4] طه: الآية 71.

ابتداء إلى انتصاره في معركة الأفكار والتصورات، وفي عالم الأنفس والذوات، استطاع موسى أن يهز في خلد بني إسرائيل تلك الصورة المقدسة لفرعون فلم يعد ذلك الجبار المخيف ومن ثم تكسرت القيود التي شلت العقول وانكشفت الغشاوة التي ربضت على القلوب ردحا من الزمن، وتغيرت نفوسهم ونظرتهم للكون والحياة ومن ثم تغير واقعهم.

يقول سيد قطب: «إن مشهد انتصار الحق والإيمان في واقع الحياة المشهود بعد انتصارهما في عالم الفكرة والعقيدة، فلقد مضى السياق بانتصار آية العصا على السحر، وانتصار العقيدة في قلوب السحرة على الاحتراف، وانتصار الإيمان على الرعب والرهب، والتهديد والوعيد...والنصر الأخير مرتبط بالنصر الأول فما يتحقق النصر في عالم الواقع إلا بعد تمامه في عالم الضمير وما يستعلي أصحاب الحق في الظاهر إلا بعد أن يستعلوا بالحق في الباطن...»[1] .

إن التدافع بين الحق والباطل، سيضل يصاحب الإنسان ويصبغ واقعه ما ضلت نوازع الخير والشر تعمل عملها وسيضل الصراع الفكري يطبع كل حركة تغييرية وكل عملية يقودها الخير أو الشر في مسارها الإيجابي و السلبي.

لم تكن دعوة سيدنا محمد صلى الله عليه وسلم بدعا من الرسل، ولا موقف أبا جهل وغيره شاذا عن طبيعة الإنسان وتاريخه، وإنما هي فصول من هذا التدافع والصراع، إلا أن الشيء الذي يثير الإعجاب و الدهشة أن يستمر الصراع والتدافع حتى بعد قيام الدولة الإسلامية وظهور صورة المجتمع الجديد واكتمال كل معالم الحركة والعملية التغييرية.

واجه القرآن الكريم أفكار وتصورات المجتمع الجاهلي في -الفترة المكية – ودخل معها في تدافع هادئ مؤثر، في جمل قصيرة، وكلمات بليغة، وحجج دامغة، يمضي القرآن يخترق سحب الباطل ويضيء العقول والقلوب ويحرك مشاعر الرغبة والرهبة، يضع العقل في مواجهة صريحة مع ذاته، وفي المقابل اتخذت الجاهلية في الدفاع عن أفكارها وتصوراتها مسلك التشهير والاتهام وزرع الشبهات، وهكذا يمضي الصراع في صمت رهيب، نشعر به كلما تناولنا مقطعا من القرآن الكريم نزل في الفترة المكية ولنتأمل هذا المقطع من سورة الطور ﴿ ...فَذَكِّرْ فَمَا أَنْتَ

---

[1] سيد قطب في ضلال القرآن مج 06 ص: 2344.

بِنِعْمَةِ رَبِّكَ بِكَاهِنٍ وَلَا مَجْنُونٍ، أَمْ يَقُولُونَ شَاعِرٌ نَتَرَبَّصُ بِهِ رَيْبَ الْمَنُونِ قُلْ تَرَبَّصُوا فَإِنِّي مَعَكُمْ مِنَ الْمُتَرَبِّصِينَ أَمْ تَأْمُرُهُمْ أَحْلَامُهُمْ بِهَذَا أَمْ هُمْ قَوْمٌ طَاغُونَ أَمْ يَقُولُونَ تَقَوَّلَهُ بَلْ لَا يُؤْمِنُونَ فَلْيَأْتُوا بِحَدِيثٍ مِثْلِهِ إِنْ كَانُوا صَادِقِينَ، أَمْ خُلِقُوا مِنْ غَيْرِ شَيْءٍ أَمْ هُمُ الْخَالِقُونَ أَمْ خَلَقُوا السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ بَلْ لَا يُوقِنُونَ أَمْ عِنْدَهُمْ خَزَائِنُ رَبِّكَ أَمْ هُمُ الْمُصَيْطِرُونَ أَمْ لَهُمْ سُلَّمٌ يَسْتَمِعُونَ فِيهِ فَلْيَأْتِ مُسْتَمِعُهُمْ بِسُلْطَانٍ مُبِينٍ أَمْ لَهُ الْبَنَاتُ وَلَكُمُ الْبَنُونَ أَمْ تَسْأَلُهُمْ أَجْرًا فَهُمْ مِنْ مَغْرَمٍ مُثْقَلُونَ أَمْ عِنْدَهُمُ الْغَيْبُ فَهُمْ يَكْتُبُونَ أَمْ يُرِيدُونَ كَيْدًا فَالَّذِينَ كَفَرُوا هُمُ الْمَكِيدُونَ أَمْ لَهُمْ إِلَهٌ غَيْرُ اللَّهِ سُبْحَانَ اللَّهِ عَمَّا يُشْرِكُونَ، وَإِنْ يَرَوْا كِسْفًا مِنَ السَّمَاءِ سَاقِطًا يَقُولُوا سَحَابٌ مَرْكُومٌ فَذَرْهُمْ حَتَّى يُلَاقُوا يَوْمَهُمُ الَّذِي فِيهِ يُصْعَقُونَ...﴾[1]

هذه الآيات نموذج من الصراع الفكري الذي ساد الفترة المكية، يبرز من خلالها مراحل هذا الصراع بدء بأسلوب اللامبالاة الذي اتخذه المشركون اعتمادا على عامل الزمن- وهو الكفيل بإخماد صوت سيدنا محمد صلى الله عليه وسلم – كما خمد قبله صوت زهير والنابغة وقصي بن ساعدة ﴿ نتربص به ريب المنون﴾ يعلق العلامة الزمخشري على هذه الآية «قالوا ننتظر به نوائب الزمان فيهلك كما هلك قبله الشعراء...»[2] .

إن الزمن الذي راهن عليه المشركون هو ذاته الذي اتخذه الرسول صلى الله عليه وسلم كإطار للعملية التغيرية، لقد كانت آيات القرآن تفعل فعلها في النفوس وتقلب الرجل منهم رأسا على عقب حتى شديد المراس فيهم، ولم يكن لسادات قريش أي تفسير لهذه الظاهرة إلا قولهم لمن يسلم « لقد سحرك والله محمد؟!».

مثل هذه الآيات هي التي غيرت عمر بن الخطاب وقلبت مزاجه رأسا على عقب، من

---

(1) الطور: الآية 29 ـ 45.

(2) الزمخشري الكشاف مج4 ص: 413.

عدو مبغض يريد القضاء على سيدنا محمد صلى الله عليه وسلم ودعوته إلى رجل محب لأبعد الحدود يحمل الفكرة ويبشر بها ويفرق بين الحق والباطل يقول عمر بن الخطاب عن نفسه: « لما أسلمت تلك الليلة تذكرت أي أهل مكة أشد لرسول الله صلى الله عليه وسلم عداوة حتى آتيه فأخبره إني قد أسلمت فقال : قلت أبا جهل ، فأقبلت حين أصبحت حتى ضربت عليه بابه قال: فخرج إلي أبا جهل فقال: مرحبا وأهلا بابن أختي أما جاء بك؟ قال: جئت لأخبرك أني آمنت بالله ورسوله محمد صلى الله عليه وسلم وصدقت بما جاء به قال: فضرب الباب في وجهي وقال: قبحك الله وقبح ما جئت به»[1] .

لقد كان إسلام حمزة وعمر صفعة للباطل وجولة من جولات هذا الصراع استطاعت الدعوة بإسلاميهما أن تخرج من التهميش والحصار المضروب عليها، يقول عمر رضي الله عنه: « ...قلت يا رسول الله ألسنا على الحق؟ قال: بلى قلت: ففيما الإختفاء؟ فخرجنا صفين أنا في أحدهما وحمزة في الآخر حتى دخلنا المسجد فنظرت قريش إلي وإلى حمزة فأصابتهم كآبة شديدة فسماني رسول الله صلى الله عليه وسلم بالفاروق يومئذ، وفرق بين الحق والباطل»[2].

إن ما أصاب السحرة على عهد موسى عليه السلام وتحوهم العجيب من الباطل إلى الحق هو ذاته الذي أصاب عمر ابن الخطاب رضي الله عنه. لم يكن في وسع سادة قريش فعل أي شيء وهم يلمسون أن معادلة الزمن التي راهنوا عليها سارت على غير ما يظنون ويشتهون، وتحولت قريش من ميدان الجدال والحوار الهادئ الرزين إلى ساحة للعنف والإرهاب كأسلوب جديد لجأت إليه عساها تفلح في إيقاف اندفاع الحق والحيلولة دون تحقيقه لأهدافه، ولكن شاءت إرادة الله أن ينتصر الحق ويخرج من الحصار والعذاب لتشرق أنواره في الحبشة والمدينة المنورة، ولذلك: « سيظل التدافع والصراع قائما في صميم العلاقات البشرية، تستقطبه دائما كلمتا الإيمان والكفر، أو الحق والباطل ، وترفده جداول وأنهار متشابكة تجيء من هذا الصواب أو ذاك... ومن خلال هذا الصراع تتحرك مياه التاريخ فلا تركد ولا تسكن، وتحفظ

---

(1) محمد حبيبي الزغبي مختصر سيرة ابن هشام مراجعة عبد الحميد الأحدب (مرجع سابق) ص: 65.

(2) شمس الدين الذهبي تاريخ الإسلام وطبقات المشاهير والأعلام "الترجمة النبوية" تحقيق محمد محمود حمدون دار الكتاب المصري و اللبناني، مج2، ط 1 ، 1991، ص164.

بهذا قدرتها على الجودة والنقاء...»[1] .

اندكت معالم الجاهلية، وهدأت معها وطأة الصراع الرهيب الذي شهدته مكة لينطلق في جولة جديدة وبطابع آخر وبمنهج مغاير تماما، يقوده هذه المرة أهل الكتاب في صورة يهود المدينة، والحقيقة أن أصول هذا الصراع قديمة تعود إلى مكة فأول مواجهة بين الإسلام واليهودية كانت في صورة طلب المشركين الإعانة من اليهود على اعتبار انهم أهل الكتاب الأول في تدافعهم وصراعهم مع الإسلام، يروي ابن عباس قوله: « أن مشركي قريش بعثوا النضر بن الحارث وعقبة بن أبي معيط إلى أحبار اليهود بالمدينة وقالوا لهم سلوهم عن محمد وصفوا لهم صفته وأخبروهم بقولهم ، فإنهم أهل الكتاب الأول وعندهم علم ما ليس عندنا فقدما المدينة فسألوا أحبار اليهود عن رسول الله صلى الله عليه وسلم ووصفوا لهم أمره ببعض قوله، فقالت لهم أحبار اليهود: سلوه عن ثلاث نأمركم بهن فإذا أخبركم بهن فهو نبي مرسل، سلوه عن فتية ذهبوا في الدهر الأول ما كان من أمرهم، فإنه كان لهم حديث عجيب، وسلوه عن رجل طواف بلغ مشارق الأرض ومغاربها وما كان نبأه، وسلوه عن الروح ماهو؟ فقدما مكة فقالا يا معشر قريش قد جئناكم بفصل ما بينكم وبين محمد وقد أمرنا أحبار اليهود أن نسأله عن أمور، فجاؤوا رسول الله صلى الله عليه وسلم فقالوا يا محمد أخبرنا وسألوه، فقال: أخبركم غدا و لم يستثن فانصرفوا عنه فمكث خمسة عشر ليلة، و أحزن رسول الله مكث الوحي، ثم جاءه جبريل عليه السلام بسورة أصحاب الكهف فيها معاتبة له إياه على حزنه وخبر الفتية والرجل الطواف وقال: ﴿ وَيَسْأَلُونَكَ عَنِ الرُّوحِ قُلِ الرُّوحُ مِنْ أَمْرِ رَبِّي... ﴾[2] ».[3]

إن هذا الحديث يعطينا تصورا كاملا عن طبيعة التدافع والصراع الفكري الذي ستدور أحداثه في المدينة المنورة، كما أن المخزون الفكري لبني إسرائيل-من آثار السماء وتجارب الماضي- يذكي الصراع ويجعله أكثر حدة وأعمق أثرا.

يبدو أن المعاهدة التي أبرمها الرسول صلى الله عليه وسلم في يثرب – المدينة المنورة فيما

---

[1] عماد الدين خليل التفسير الإسلامي للتاريخ ص: 239.

[2] الإسراء: الآية 85.

[3] شمس الدين الذهبي تاريخ الإسلام مج 2 (مرجع سابق) ص: 164.

بعد- بين طوائف المدينة وخاصة بين المسلمين واليهود لم تمنع من بروز هذا الصراع ولا خففت من وطأته، كما أن اليهود كانوا على علم بالإسلام ومراميه لذلك لم يكن جدالهم جدال الجاهل المعاند كجدال سادة قريش أو قوم نوح وإنما جدال العالم العارف، الذي يتخذ نفس الأساليب ويستعمل ذات المصطلحات ويدافع أيضا عن ذات الأفكار والطروحات ومن ثم كان أسلوب القرآن في مجادلتهم وحوارهم يختلف عما كان عليه مع كفار قريش في الفترة المكية، والآيات الآتية تبرز هذا الاختلاف بوضوح. قال تعالى: ﴿ وَلَا تُجَادِلُوا أَهْلَ الْكِتَابِ إِلَّا بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ إِلَّا الَّذِينَ ظَلَمُوا مِنْهُمْ وَقُولُوا آمَنَّا بِالَّذِي أُنْزِلَ إِلَيْنَا وَأُنْزِلَ إِلَيْكُمْ وَإِلَهُنَا وَإِلَهُكُمْ وَاحِدٌ وَنَحْنُ لَهُ مُسْلِمُونَ﴾[1] ﴿...فَمَنْ حَاجَّكَ فِيهِ مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَكَ مِنَ الْعِلْمِ فَقُلْ تَعَالَوْا نَدْعُ أَبْنَاءَنَا وَأَبْنَاءَكُمْ وَنِسَاءَنَا وَنِسَاءَكُمْ وَأَنْفُسَنَا وَأَنْفُسَكُمْ ثُمَّ نَبْتَهِلْ فَنَجْعَلْ لَعْنَتَ اللَّهِ عَلَى الْكَاذِبِينَ إِنَّ هَذَا لَهُوَ الْقَصَصُ الْحَقُّ وَمَا مِنْ إِلَهٍ إِلَّا اللَّهُ وَإِنَّ اللَّهَ لَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ، فَإِنْ تَوَلَّوْا فَإِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ بِالْمُفْسِدِينَ قُلْ يَا أَهْلَ الْكِتَابِ تَعَالَوْا إِلَى كَلِمَةٍ سَوَاءٍ بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمْ أَلَّا نَعْبُدَ إِلَّا اللَّهَ وَلَا نُشْرِكَ بِهِ شَيْئًا وَلَا يَتَّخِذَ بَعْضُنَا بَعْضًا أَرْبَابًا مِنْ دُونِ اللَّهِ فَإِنْ تَوَلَّوْا فَقُولُوا اشْهَدُوا بِأَنَّا مُسْلِمُونَ، يَا أَهْلَ الْكِتَابِ لِمَ تُحَاجُّونَ فِي إِبْرَاهِيمَ وَمَا أُنْزِلَتِ التَّوْرَاةُ وَالْإِنْجِيلُ إِلَّا مِنْ بَعْدِهِ أَفَلَا تَعْقِلُونَ هَا أَنْتُمْ هَؤُلَاءِ حَاجَجْتُمْ فِيمَا لَكُمْ بِهِ عِلْمٌ فَلِمَ تُحَاجُّونَ فِيمَا لَيْسَ لَكُمْ بِهِ عِلْمٌ وَاللَّهُ يَعْلَمُ وَأَنْتُمْ لَا تَعْلَمُونَ، مَا كَانَ إِبْرَاهِيمُ يَهُودِيًّا وَلَا نَصْرَانِيًّا وَلَكِنْ كَانَ حَنِيفًا مُسْلِمًا وَمَا كَانَ مِنَ الْمُشْرِكِينَ﴾[2]

﴿ يَا أَهْلَ الْكِتَابِ لِمَ تَكْفُرُونَ بِآيَاتِ اللَّهِ وَأَنْتُمْ تَشْهَدُونَ يَا أَهْلَ الْكِتَابِ لِمَ تَلْبِسُونَ الْحَقَّ بِالْبَاطِلِ وَتَكْتُمُونَ الْحَقَّ وَأَنْتُمْ تَعْلَمُونَ[3]﴾، ﴿يَا أَهْلَ الْكِتَابِ لَا تَغْلُوا فِي دِينِكُمْ وَلَا تَقُولُوا عَلَى اللَّهِ إِلَّا

---

(1) العنكبوت : الآية 46.

(2) آل عمران: الآية 61...67.

(3) آل عمران: الآية 70-71.

هَذَا الْقُرْآنُ عَلَىٰ رَجُلٍ مِنَ الْقَرْيَتَيْنِ عَظِيمٍ﴾[1] .

وجاء في حديث المغيرة بن شعبة قال:« إن أول يوم عرفت رسول الله إني كنت أمشي وأبو جهل، إذ لقينا رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال لأبي جهل يا أبا الحكم هلم إلى الله ورسوله أدعوك إلى الله فقال أبو جهل يا محمد هل أنت منته عن سب آلهتنا؟ هل تريد إلا أن نشهد أن قد بلغت ؟ فوالله لو أني أعلم أن ما يقوله حق ولكن بني قصي قالوا فينا الحجابة فقلنا نعم، وقالوا فينا الندوة قلنا نعم، قالوا فينا اللواء فقلنا نعم، وقالوا فينا السقاية فقلنا نعم ، ثم أطعموا وأطعمنا، حتى إذا تحاكت الركب قالوا منا نبي والله لا أفعل»[2] إنه الكبر ذاته الذي دفع ببني إسرائيل إلى معاداة الإسلام ومحاربته بدليل قوله تعالى: ﴿ وَقَالَتِ الْيَهُودُ وَالنَّصَارَىٰ نَحْنُ أَبْنَاءُ اللَّهِ وَأَحِبَّاؤُهُ..﴾[3] .

إن الأخذ بيد الإنسان ينطلق ابتداء من تطهير ذاته من مظاهر الشر ومقاومة نوازعها عنده، ومن ثم يمكن تغيير فكره ومزاجه وواقعه.

فقه الأنبياء والمرسلون هذه المعادلة فانطلقوا يشيعون الأمن والاطمئنان ويتعقبون كل مظاهر الشر والفساد وجسدوا على أرض الواقع قيم الخير والحق والعدل والجمال وعلى ضوئها أيضا سارت الحضارة الإسلامية ردحا من الزمن تفتح القلوب والعقول وتنير الطريق للأمم والشعوب ولما حادت عن تلك القيم كانت سنة الله لها بالمرصاد.

إن ما بلغته الحضارة الحديثة من مراتب في معرفة النفس البشرية وما حققه علماء السلوك من فتوح في هذا الميدان، أمر لا يمكن نكرانه بيد أن هذا العلم لم يوجه لخدمة الإنسانية كل الإنسانية بقدر ما كان أداة في يد القوى المسيطرة على العالم تستخدمه في إذلال الشعوب واستعبادها.

---

(1) الزخرف: الآية 31.

(2) شمس الدين الذهبي تاريخ الإسلام ومشاهير الأعلام "الترجمة النبوية" مج2 ص118-119.

(3) المائدة: الآية 18.

هَذَا الْقُرْآنُ عَلَىٰ رَجُلٍ مِنَ الْقَرْيَتَيْنِ عَظِيمٍ﴾[1] .

وجاء في حديث المغيرة بن شعبة قال:« إن أول يوم عرفت رسول الله إني كنت أمشي وأبو جهل، إذ لقينا رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال لأبي جهل يا أبا الحكم هلم إلى الله ورسوله أدعوك إلى الله فقال أبو جهل يا محمد هل أنت منته عن سب آلهتنا؟ هل تريد إلا أن نشهد أن قد بلغت ؟ فوالله لو أني أعلم أن ما يقوله حق ولكن بني قصي قالوا فينا الحجابة فقلنا نعم، وقالوا فينا الندوة قلنا نعم، قالوا فينا اللواء فقلنا نعم، وقالوا فينا السقاية فقلنا نعم ، ثم أطعموا وأطعمنا، حتى إذا تحاكت الركب قالوا منا نبي والله لا أفعل»[2] إنه الكبر ذاته الذي دفع ببني إسرائيل إلى معاداة الإسلام ومحاربته بدليل قوله تعالى: ﴿ وَقَالَتِ الْيَهُودُ وَالنَّصَارَىٰ نَحْنُ أَبْنَاءُ اللَّهِ وَأَحِبَّاؤُهُ..﴾[3] .

إن الأخذ بيد الإنسان ينطلق ابتداء من تطهير ذاته من مظاهر الشر ومقاومة نوازعها عنده، ومن ثم يمكن تغيير فكره ومزاجه وواقعه.

فقه الأنبياء والمرسلون هذه المعادلة فانطلقوا يشيعون الأمن والاطمئنان ويتعقبون كل مظاهر الشر والفساد وجسدوا على أرض الواقع قيم الخير والحق والعدل والجمال وعلى ضوئها أيضا سارت الحضارة الإسلامية ردحا من الزمن تفتح القلوب والعقول وتنير الطريق للأمم والشعوب ولما حادت عن تلك القيم كانت سنة الله لها بالمرصاد.

إن ما بلغته الحضارة الحديثة من مراتب في معرفة النفس البشرية وما حققه علماء السلوك من فتوح في هذا الميدان، أمر لا يمكن نكرانه بيد أن هذا العلم لم يوجه لخدمة الإنسانية كل الإنسانية بقدر ما كان أداة في يد القوى المسيطرة على العالم تستخدمه في إذلال الشعوب واستعبادها.

---

(1) الزخرف: الآية 31.

(2) شمس الدين الذهبي تاريخ الإسلام ومشاهير الأعلام "الترجمة النبوية" مج2 ص118-119.

(3) المائدة: الآية 18.

إن الصراع القائم في العالم الآن وبخاصة العالم الإسلامي هو نتيجة لخطط ودراسات أنجزها علماء وباحثون في هذا الميدان وبالخصوص تلك الدراسات التي قام بها المستشرقون ، نلمس آثار هذا الصراع في كل مكان وتظهر خيوطه وملامحه يوما بعد يوم.

إن القضاء على الأفكار الفعالة في المجتمع الإسلامي والتي من شأنها إعادة ابتعاث المجتمع الإسلامي كما حدث في المدينة المنورة على عهد النبي صلى الله عليه وسلم أو شل حركتها وذلك بانتزاع صفة الفاعلية منها حتى تغدو ميتة وتدخل متحف التاريخ، هو هدف هذا الصراع والتدافع، وأي فكرة حين تفقد فعاليتها ومقدرتها على التأثير تفقد القدرة على الوقوف أمام الأفكار الوافدة، وتفقد تبعا لذلك تأثيرها على الإنسان وواقعه، ويصبح من يعتنقها كالشاة التي ضلت عن القطيع وفقدت كل اتصال بعالمه ، ومن ثم يسهل اصطيادها وتسخيرها بما يخدم المصالح و الغايات.

إننا نشعر بالغربة في واقعنا لأن الأفكار الوافدة استطاعت أن تكتسح الواقع وتحدث في الإنسان المسلم انفصاما بين ما يحمله من أفكار ومبادئ وما يمارسه من أعمال مما يؤدي ذلك إلى تقلص الأفكار شيئا فشيئا إلى أن تنعدم وبذلك يتغير المجتمع تغيرا كاملا ليس فقط على مستوى الواقع وإنما على مستوى الأفكار والتصورات، هذه طبيعة الصراع الفكري في صورته الحديثة، والشيء الوحيد الذي يهدأ من روعنا ويجعلنا ننظر إلى المستقبل بشيء من التفاؤل ذلك أن استقراء التاريخ وتتبع آثاره يبين أن فقدان الأفكار لفعاليتها ليست بالضرورة إعلان عن عدم صلاحيتها أو وفاتها، فالفكرة قد تفقد بعضا من الفعالية في فترة من الفترات لأسباب ما، إلا أنها لن تموت فإذا وجدت البيئة المناسبة والأجواء السليمة فإنها تعود إلى طبيعتها تماما كالبذرة وما دعوات الرسل والأنبياء إلا دليل على ذلك.

يقول الأستاذ مالك بن نبي: «...فكرة صحيحة لا يعني ذلك فعاليتها الدائمة، وفكرة فعالة ليست بالضرورة صحيحة، والخلط بين هذين الوجهين يؤدي إلى أحكام خاطئة، وتلحق أشد الضرر في تاريخ الأمم حينما يصبح هذا الخلط في أيدي المتخصصين في الصراع الفكري لاغتصاب الضمائر.

إن الأصالة ذاتية وعينية وهي مستقلة عن التاريخ، والفكرة إذ تخرج للنور إما صحيحة أو

باطـــلة، وحيـــنا تكون صحيحة فإنها تحتفظ بأصالتها إلى آخر الزمان، لكنها بالمقابل يمكن أن تفقد فعاليتها وهي طريقها حتى ولو كانت صحيحة .» [1]

إن الصـــحة والأصالة صفتان للأفكار التي لها ارتباط بعالم السماء، أما الأفكار الوضعية الناتجة عـــن أوضـــاع وظروف خاصة حتى ولو كانت صحيحة وفعالة فإنها ستفقد فعاليتها بتغير الظروف وانـــتهاء الأسباب والملابسات التي كانت سببا في وجودها، وهذا ما يفسر بقاء الأديان السماوية منذ آلاف السنين والاختفاء السريع لأفكار كثيرة عرفتها البشرية وبقيت آثارها تدل عليها .

[1] مالك بن نبي مشكلة الأفكار في العالم الإسلامي ( مرجع سابق ) ص: 102-103 .

**سابعا : التدافع المادي :**

لم يقتصر التدافع بين الحق والباطل على صراع الأفكار وتناطح الحجج،بل كان يأخذ في نهاية كل صراع طابعا ماديا محضا اصطلح على تسميته بالحرب والقتال، إن تاريخ الإنسان في حد ذاته من صور هذا التدافع والصراع ولا نكاد نعثر في ثناياه على أية حركة تغييرية بغض النظر عن المسار الذي تتخذه-إيجابا أو سلبيا-من غير أن تلجأ إلى اعتماد الحرب والقتال حتى أضحى هذا المظهر من سنة التدافع، في المفهوم العام هو المظهر الأساسي وإذا ذكر التدافع صرف الذهن للحرب والقتال .

يقول الإمام الأستاذ: « ومن المعلوم من تاريخ البشر أن الحرب سنة من سنن الاجتماع البشري وأكبر مظهر وأثر لسنة تنازع البقاء وتعارض المصالح والمنافع والأهواء، ولاسيما أهواء الملوك والرؤساء، رؤساء الدين ورؤساء الدنيا، بل هي سنة من سنن بعض الحشرات التي تعيش عيشة التعاون والاجتماع كالنحل فهو يغزو ويبيد...وعلم من التاريخ أيضا أن شعوب أوروبا أشد ضراوة وقسوة في الحرب في جميع أطوارها كلها همجية ووثنية ونصرانية، مذهبية وصليبية ومدنية » [1] ، والشيء الثابت أن الحرب والقتال هي أبرز مظهر لسنة التدافع ومن أهم العوامل الفاعلة في العملية التغييرية، كيف يعرض القرآن هذا النوع من التدافع ؟

**أ – العرض القرآني للتدافع :**

إن المتتبع للسياقات القرآنية التي وردت فيها كلمة التدافع واشتقاقاتها يلحظ أنها تقترن في أغلب الأحيان بالقتال أو الحث عليه، ومن السياقات قوله تعالى :﴿فَهَزَمُوهُم بِإِذْنِ اللَّهِ وَقَتَلَ دَاوُودُ جَالُوتَ، وَآتَاهُ اللَّهُ الْمُلْكَ وَالْحِكْمَةَ وَعَلَّمَهُ مِمَّا يَشَاءُ وَلَوْلَا دَفْعُ اللَّهِ النَّاسَ بَعْضَهُم بِبَعْضٍ لَّفَسَدَتِ الْأَرْضُ وَلَكِنَّ اللَّهَ ذُو فَضْلٍ عَلَى الْعَالَمِينَ﴾ [2]، فهذه الآيات جاءت تعقيبا على المعركة الضارية التي قادها طالوت ضد باطل جالوت، وكيف تغلبت الفئة المؤمنة القائمة على الحق على الفئة الكافرة المعتزة بالباطل وحفظت الأرض من الفساد .

يعلق العلامة محمد عبده على الآية فيقول: « ..بين الله الحكمة في الإذن بالقتال الذي قررته الأديان أي لو لا أن الله تعالى يدفع أهل الباطل بأهل الحق وأهل الفساد في الأرض بأهل الإصلاح فيها لغلب أهل الباطل والإفساد في الأرض وبغوا على الصالحين وأوقعوا بهم حتى يكون لهم السلطان وحدهم فتفسد الأرض بفسادهم فكان فضل الله على العالمين وإحسانه إلى الناس أجمعين أن أذن الله لأهل دينه الحق المصلحين في الأرض بقتال المفسدين فيهامن الكافرين والبغاة المعتدين، فأهل الحق

---

[1] محمد رشيد رضا المنار مج 10 ص : 309 .

[2] البقرة :الآية 251.

حرب لأهل الباطل في كل زمان والله ناصرهم ما نصروا الحق وأرادوا الإصلاح في الأرض- هذا دفع في قراءة نافع- باعتبار أن كلا من أهل الحق المصلحين وأهل الباطل المفسدين يقاوم الآخر ويقاتله ...» [1].

وفي قوله تعالى: ﴿ إِنَّ اللَّهَ يُدَافِعُ عَنِ الَّذِينَ آمَنُوا إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ كُلَّ خَوَّانٍ كَفُورٍ، أُذِنَ لِلَّذِينَ يُقَاتَلُونَ بِأَنَّهُمْ ظُلِمُوا وَإِنَّ اللَّهَ عَلَى نَصْرِهِمْ لَقَدِيرٌ، الَّذِينَ أُخْرِجُوا مِنْ دِيَارِهِمْ بِغَيْرِ حَقٍّ إِلَّا أَنْ يَقُولُوا رَبُّنَا اللَّهُ وَلَوْلَا دَفْعُ اللَّهِ النَّاسَ بَعْضَهُمْ بِبَعْضٍ لَهُدِّمَتْ صَوَامِعُ وَبِيَعٌ وَصَلَوَاتٌ وَمَسَاجِدُ يُذْكَرُ فِيهَا اسْمُ اللَّهِ كَثِيرًا وَلَيَنْصُرَنَّ اللَّهُ مَنْ يَنْصُرُهُ إِنَّ اللَّهَ لَقَوِيٌّ عَزِيزٌ ﴾ [2].

أذن للمؤمنين المستضعفين في مكة بالاستعداد لمواجهة الكفر بالقوة والسلاح دفاعا عن العقيدة والإيمان والمجتمع الجديد، يقول صاحب التحرير والتنوير: « ...وذلك أن المشركين كانوا يؤذون المؤمنين بمكة أذى شديد فكان المسلمون يأتون رسول الله صلى الله عليه وسلم من بين مضروب ومشجوج يتظلمون إليه، فيقول لهم اصبروا فإني لم أؤمر بالقتال فلما هاجر نزلت هذه الآية بعد بيعة العقبة إذنا لهم بالتهيؤ للدفاع عن أنفسهم و لم يكن قتال قبل ذلك كما يؤذن به قوله تعالى عقب هذا: ﴿ الَّذِينَ أُخْرِجُوا مِنْ دِيَارِهِمْ بِغَيْرِ حَقٍّ إِلَّا أَنْ يَقُولُوا رَبُّنَا اللَّهُ ﴾ » [3].

لم يشرع القتال إلا دفاعا للظلم وحفاظا على العقيدة وعلى الدعوة الإسلامية من سطوة الباطل وجبروت أهل مكة .

وفي سياق قوله تعالى :﴿وَمَا أَصَابَكُمْ يَوْمَ الْتَقَى الْجَمْعَانِ فَبِإِذْنِ اللَّهِ وَلِيَعْلَمَ الْمُؤْمِنِينَ وَلِيَعْلَمَ الَّذِينَ نَافَقُوا وَقِيلَ لَهُمْ تَعَالَوْا قَاتِلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ أَوِ ادْفَعُوا قَالُوا لَوْ نَعْلَمُ قِتَالًا لَاتَّبَعْنَاكُمْ هُمْ لِلْكُفْرِ يَوْمَئِذٍ أَقْرَبُ مِنْهُمْ لِلْإِيمَانِ ...﴾ [4].

وردت في معرض الحديث عن غزوة أحد وانخذال المنافقين وتراجعهم عن القتال بحجة أنهم لا يحسنونه لما طلب منهم إخوانهم المؤمنون بضرورة حماية ظهورهم وصد الكافرين .

فطر الإنسان على حب الحياة وكراهية الموت وكل سبيل يؤدي إليه ويسعى جاهدا للإبقاء على خيط الحياة بشتى السبل، فلا عجب إذ نجده يكره الحرب والقتال والله سبحانه

---

(1) محمد رشيد رضا المنار مج 2 ص : 482.

(2) الحج : الآية 38...40.

(3) محمد طاهر بن عاشور التحرير والتنوير ج17 ص :273 .

(4) ءال عمران : الآية 166-167.

خلق الأنفس ويعلم طباعها ما تسر وما تعلن، ما تحب وما تبغض، فهو من جهة يقرر مشروعية القتال، ومن جهة أخرى يقرر حقيقة كراهية النفس له.

﴿كُتِبَ عَلَيْكُمُ الْقِتَالُ وَهُوَ كُرْهٌ لَكُمْ وَعَسَى أَنْ تَكْرَهُوا شَيْئًا وَهُوَ خَيْرٌ لَكُمْ وَعَسَى أَنْ تُحِبُّوا شَيْئًا وَهُوَ شَرٌّ لَكُمْ وَاللَّهُ يَعْلَمُ وَأَنْتُمْ لَا تَعْلَمُونَ﴾ (1)

يقول العلامة الألوسي: « ..كون القتال مكروها لا ينافي الإيمان، لأن تلك الكراهية طبيعة لما فيه من القتل والأسر وإفناء البدن وتلف المال، وهي لا تنافي الرضى بما كلف به كالمريض الشارب للدواء البشع يكرهه لما فيه من البشاعة ويرضى به من ناحية أخرى»(2) غير أن هذا البغض والكره سرعان ما يزول إذا علمنا أن القرآن الكريم يرتفع بكلمة القتال عن المعنى المتعارف عليه بين الأمم والشعوب إلى معان سامية تجعل نفس المؤمن تتوق إليه وتتشوق لملاقاته.

**ب- المسألة الجهادية وموقع القتال فيها:**

وصف الله تبارك وتعالى المقاتل بالمجاهد والقتال بالجهاد، ولا يخفى ما تحمله كلمة الجهاد من معاني البذل واستفراغ الجهد والطاقة. ومن ثم فهو يستوعب مساحة واسعة من حركة المسلم إذ لا يقف عند حدود القتال أو إشهار السلاح في وجه الأعداء وإنما يشمل اللسان والمال والقلم، وجميع الأوجه التي تكبح الباطل وتساند الحق.

لهذه المعاني السامية التي تتضمنها كلمة الجهاد قسم ابن القيم الجوزية الجهاد إلى مراتب فقال: « الجهاد أربع مراتب، جهاد النفس، وجهاد الشيطان، وجهاد الكفار، وجهاد المنافقين...

ولما كان الجهاد ذروة سنام الإسلام وقبته ومنازل أهله أعلى المنازل في الجنة كما هم الرفعة في الدنيا..كان الرسول عليه الصلاة والسلام في الذروة العليا فاستولى على أنواعه كلها،

---

(1) البقرة: الآية 216.

(2) شهاب الدين الألوسي روح المعاني مج 1 ج2 ص: 106.

فجاهد في الله حق جهاده بالقلب والجنان والدعوة والبيان والسيف واللسان ولما كانت ساعته موقوتة على الجهاد بقلبه ولسانه ويده ...ولهذا كان أرفع العالمين ذكرا وأعظمهم عند الله قدرا...»[1].

لا جرم أن القتال أعظم صور الجهاد كما نصت على ذلك آيات القرآن الكريم و أوضحه ابن القيم، غير أن الصور الأخرى داخلة فيه بالضرورة، لأن المسلم لا يقدم على إزهاق نفسه إلا إذا جاهدها وأكرهها على القتال، واحتمل كل ما يلقاه من هول المعركة ووساوس الشيطان وأماني النفس يقول ابن القيم: « ولما كان جهاد أعداء الله في الخارج فرعا على جهاد العبد لنفسه في ذات الله كما قال الرسول صلى الله عليه وسلم: «المجاهد من جاهد نفسه في ذات الله والمهاجر من هجر ما نهى الله عنه»[2] كان جهاد النفس مقدما على جهاد العدو في الخارج وأصلا له، فإنه ما لم يجاهد نفسه أولا لتفعل ما أمرت به وتترك ما نهيت عنه ويجاريها في الله لم تمكنه جهاد عدوه في الخارج فكيف يمكنه جهاد عدوه والإنتصاف منه وعدوه الذي بين جنبيه قاهر له متسلط عليه لم يجاهده و لم يحاربه في الله بل لا يمكنه الخروج إلى عدوه حتى يجاهد نفسه على الخروج عدوان قد امتحن العبد بجهادهما وبينهما عدو ثالث لا يمكن جهادهما إلا بجهاده وهو واقف بينهما يثبط العبد عن جهادهما ...فكان جهاده هو الأصل وهو الشيطان...»[3]

ومنْ هذا كله يتبين أن «الجهاد موقف المسلم الحق والقتال هو أحد صوره، وإن تربع على القمة بكل جدارة، إذ ليس فوق أن يبذل المرء روحه في سبيل الله مقام، كما أنه ليس ثمة تضحية أغلى من الشهادة، حتى عد هذا النوع من الجهاد ذروة سنام الإسلام كما يقول الحديث.

إن كل قتال في سبيل الله جهاد ولكن ليس كل جهاد في سبيل الله ينبغي أن يكون قتالا، إن الجهاد أنواع ودرجات، ولكن القتال نوع واحد، وصيغة واحدة .

---

[1] ابن القيم الجوزية زاد المعاد مج1 ج2 دار الكتاب العربي ص: 38..41.

[2] أبو داوود سنن أبي داوود مج2 كتاب الصلاة فضل باب التطوع في البيت ح رقم 1449 دار الفكر. والإمام أحمد في المسند مج2، ص160-191، والترميذي في فضائل الجهاد .

[3] ابن القيم الجوزية زاد المعاد مج1 ج2 ص:39.

الجهاد وبمعناه الشامل فرض على كل مسلم يجب أن يمارسه في أي صورة يستطيعها والقتال عند جمهور الفقهاء، فرض كفاية إذا أداه بعض المسلمين سقط عن البعض الآخر.

الجهاد بهذا المعنى ماض إلى يوم القيامة كما يقول الحديث الشريف والقتال عارض يقوم ويزول بقيام أو زوال سببه...»[1]

وصف الله تبارك وتعالى المسلم الذي يسقط في ميدان المعركة بالشهيد تمييزا له عن أي ميت أو قتيل، " والشهيد في اللغة أصله من الشهود والحضور ومنه الشهادة التي تقابل عالم الغيب كما يقول تعالى﴿عَالِمِ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ﴾[2] ﴿ وَاللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ﴾[3] "[4].

فإذا كان الميت بفراق الروح للجسد يكون مفارق الأهل والأحباب، فإن الشهيد شهيد المعركة والقتال حي لا ينقطع ذكره بين الناس ينتظر مقدم أهله وأحبائه بشوق وتلهف في الدار الآخرة، بدليل قوله تعالى:﴿وَمَنْ يُطِعِ اللَّهَ وَالرَّسُولَ فَأُولَٰئِكَ مَعَ الَّذِينَ أَنْعَمَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ مِنَ النَّبِيِّينَ وَالصِّدِّيقِينَ وَالشُّهَدَاءِ وَالصَّالِحِينَ وَحَسُنَ أُولَٰئِكَ رَفِيقًا﴾[5] ، ﴿وَلَا تَحْسَبَنَّ الَّذِينَ قُتِلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ أَمْوَاتًا بَلْ أَحْيَاءٌ عِنْدَ رَبِّهِمْ يُرْزَقُونَ فَرِحِينَ بِمَا آتَاهُمُ اللَّهُ مِنْ فَضْلِهِ وَيَسْتَبْشِرُونَ بِالَّذِينَ لَمْ يَلْحَقُوا بِهِمْ مِنْ خَلْفِهِمْ أَلَّا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ﴾[6] ، يعلق العلامة بن عاشور على الآيات بقوله: « أثبت القرآن للمجاهدين موتا ظاهرا بقوله «قتلوا» ونفى عنهم الموت الحقيقي بقوله «بل أحياء عند ربهم يرزقون» فعلمنا أنهم وإن كانوا أموات الأجسام فهم أحياء الأرواح حياة زائدة على حقيقة بقاء الأرواح غير مضمحلة بل هي حياة بمعنى : تحقق آثار الحياة لأرواحهم من حصول اللذات والمدركات السارة لأنفسهم، ومسرتهم بإخوانهم ...وقد جمع الله لهم بين المسرة

---

[1] فهمي هويدي مواطنون لا ذميون دار الشروق ط1 سنة1985م بيروت-لبنان ص: 22.

[2] الجن: الآية 26.

[3] البروج: الآية 9.

[4] عبد الكريم الخطيب الحرب والسلام في الإسلام دار نجد للطباعة والنشر والتوزيع سنة 1981 المملكة السعودية، ص65.

[5] النساء: الآية 69.

[6] آل عمران: الآية 169-170.

بأنفسهم والمسرة بمن بقي من إخوانهم لأن في بقائهم نكاية لأعدائهم وهم مع حصول فضل الشهادة لهم على أيدي الأعداء يتمنون هلاكهم لأن في هلاكهم تحقيق أمنية أخرى وهي أمنية نصر الدين»[1].

ولقد ذكر النبي صلى الله عليه وسلم ما للشهيد من فضل في الدنيا والآخرة في عدة أحاديث منها قوله: « مَا مِنْ نَفْسٍ تَمُوتُ لَهَا عِنْدَ اللهِ خَيْرٌ يُسُرُّهَا أَنَّهَا تُرْجِعُ إِلَى الدُّنْيَا وَلاَ أَنَّ لَهَا الدُّنْيَا وَمَا فِيهَا، إِلاَّ الشَّهِيدَ فَإِنَّهُ يَتَمَنَّى أَنْ يَرْجِعَ فَيُقْتَلَ فِي الدُّنْيَا لِمَا يَرَى مِنْ فَضْلِ الشَّهَادَةِ»[2].

ارتفع الإسلام بالحرب والقتال من معنى السلب والإغارة والإيذاء إلى معاني العبادة والمجاهدة ولم يعد غاية في حد ذاته بل وسيلة لإشاعة الأمن والاستقرار وكبح قوى الشر والطغيان «إن الحرب التي يدخلها المسلمون إنما هي حرب ينتصرون فيها للحق ليكشفوا بها عن وجه الحياة المشرق، ذلك الوجه الذي يأبى أهل الضلال والبغي إلا أن يطمسوا معالمه ويلطخوه بالدم المراق من أهل الخير ودعاة الأمن والسلام، إنها حرب يفرضها الدين حتى تنفسح للناس طرق العمل لعمارة الأرض وأداء حق الخلافة التي استخلف الله تعالى الإنسان عليها.»[3]

إن هذه المعاني السامية والصفات الجليلة التي أضفاها القرآن على مصطلح الحرب والقتال، اقتلعت من كيان المسلم كل صور الجبن والخوف وجعلته يضرب أروع الأمثلة في التضحية والفداء بدء ببدر وانتهاء بثورة الجزائر في العصر الحديث، سيظل المسلم يتصف بهذه الصفات ما دامت هذه المعاني تغمر قلبه وتملأ جوانحه.

---

(1) محمد الطاهر بن عاشور التحرير والتنوير ج4 ص:165-166.

(2) مسلم بن الحجاج صحيح مسلم مج4 كتاب الإمارة باب فضل الشهادة ح رقم:19 ص:1498.

(3) عبد الكريم الخطيب الحرب والسلام في الإسلام (مرجع سابق) ص:22-23.

## ج–دواعي استعمال السلاح:

إن الحق بما يحمله من معاني الخير والصلاح يجعل الباطل في حالة استنفار قصوى يتربص بكل من يحمل فكرا أو تصورا يخالف أفكاره وتصوراته ويناصبه العداء ويشهر في وجهه سيف القوة والإرهاب إذا دعت الضرورة إلى ذلك لما يرى من خطر على مصالحه وأهوائه وشهواته.

وقف قوم نوح بالمرصاد لدعوة نوح عليه السلام ووقف بعدهم قوم إبراهيم الموقف ذاته وخرج فرعون على رأس جيشه طلبا لموسى ومن معه، وأخرج أهل مكة المسلمين من ديارهم واستولوا على أموالهم وسلكوا كل سبيل للقضاء عليهم.

لم يكن الدفاع عن النفس مشروعا في فجر الإنسانية فتجرأ الباطل على سفك دم الحق في شخص ابن آدم القتيل ﴿لَئِنْ بَسَطْتَ إِلَيَّ يَدَكَ لِتَقْتُلَنِي مَا أَنَا بِبَاسِطٍ يَدِيَ إِلَيْكَ لِأَقْتُلَكَ إِنِّي أَخَافُ اللَّهَ رَبَّ الْعَالَمِينَ﴾[1] ﴿فَطَوَّعَتْ لَهُ نَفْسُهُ قَتْلَ أَخِيهِ فَقَتَلَهُ فَأَصْبَحَ مِنَ الْخَاسِرِينَ﴾[2] يقول الألوسي: «قيل كان هابيل أقوى منه ولكن تحرج عن قتله، واستسلم له خوفا من الله تعالى، لأن المدافعة لم تكن جائزة في ذلك الوقت وفي تلك الشريعة كما روي عن مجاهد ...»[3].

إن التاريخ في جميع أحقابه لا يقف مشدوها لجرأة الباطل على الحق وصبر الحق عليه، لقي أصحاب موسى عليه السلام العنت الشديد ولقي أصحاب عيسى من الحريق والتعذيب والقتل ما لقوا، وسفكت دماء الأنبياء وزج بهم في السجون وعذب أصحاب النبي صلى الله عليه وسلم وصودرت أموالهم وهم يجأرون لله بالدعاء والثبات أما آن لهذا العذاب أن ينجلي؟ أما آن للحق من قوة تحميه؟ أما آن لهذه الجماعة أن تعيش أفكارها وتصوراتها وتقيم شعائرها في أمان واطمئنان ؟

«لم يشأ الله أن يترك الإيمان والخير والحق عزلا تكافح قوى الطغيان والشر والباطل اعتمادا على قوة الإيمان في النفوس، وتغلغل الحق في الفطر، وعمق الخير في القلوب، فالقوة

---

[1] المائدة: الآية 28.

[2] المائدة: الآية 30.

[3] شهاب الدين الألوسي روح المعاني مج2 ج6 ص: 112.

المادية التي يملكها الباطل قد تزلزل القلوب، وتفتن النفوس وتزيغ الفطر وللصبر حد وللاحتمال أمد، وللطاقة البشرية مدى تنتهي إليه والله أعلم بقلوب الناس ونفوسهم، ومن ثم لم يشأ الله أن يترك المؤمنين للفتنة إلا ريثما يستعدون للمقاومة ويتهيئون للدفاع ويتمكنون من وسائل الجهاد..عندئذ أذن لهم في القتال ورد العدوان..»[1].

كان السيف وسيظل ديدن الباطل في مدافعته للحق والخير وسيظل استثناء للحق في مجاهدته للباطل، إن قول الله تعالى : ﴿ لَا يَنْهَاكُمُ اللَّهُ عَنِ الَّذِينَ لَمْ يُقَاتِلُوكُمْ فِي الدِّينِ وَلَمْ يُخْرِجُوكُمْ مِنْ دِيَارِكُمْ أَنْ تَبَرُّوهُمْ وَتُقْسِطُوا إِلَيْهِمْ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُقْسِطِينَ﴾[2] وقوله صلى الله عليه وسلم: «يَا أَيُّهَا النَّاسُ لَا تَتَمَنَّوْا لِقَاءَ الْعَدُوِّ وَاسْأَلُوا اللَّهَ الْعَافِيَةَ فَإِذَا لَقِيتُمُوهُ فَاصْبِرُوا وَاعْلَمُوا أَنَّ الْجَنَّةَ تَحْتَ ظِلَالِ السُّيُوفِ»[3] تأكيد لموقع القتال من المسألة الجهادية الشاملة فليس الإسلام حربا على الأخضر واليابس، الحي والميت ، وإنما حرب على النفس وأهوائها والشيطان ووساوسه والباطل الذي يتربص بالحق ويحول دون تحقيقه لأهدافه وغاياته، وبالإضافة إلى ذلك كله تضبطه قواعد وأحكام غاية في الدقة بينها القرآن الكريم وفصلها الرسول صلى الله عليه وسلم وبسطها الفقهاء في كتب الفقه[4] من هذه القواعد والأحكام ما تضمنته هذه الآيات :﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا ادْخُلُوا فِي السِّلْمِ كَافَّةً وَلَا تَتَّبِعُوا خُطُوَاتِ الشَّيْطَانِ...﴾[5] ﴿ وَقَاتِلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ الَّذِينَ يُقَاتِلُونَكُمْ وَلَا تَعْتَدُوا إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ الْمُعْتَدِينَ﴾[6] ﴿ وَإِنْ جَنَحُوا لِلسَّلْمِ فَاجْنَحْ لَهَا وَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ﴾[7] ومن ثم «فالجهاد ليس سيفا يشهر أو حربا تعلن أو موقعة تدار إنه في حقيقة الحال، جهاد ذاتي مستمر ضد كل عوامل السلب ونوازع الشر، واتجاه الجنوح في

---

(1) سيد قطب في ظلال القرآن مج4 ص: 2424.

(2) الممتحنة: الآية 8.

(3) مسلم بن حجاج صحيح مسلم مج3 كتاب الجهاد والسير ص:1362.

(4) يرجع في هذا الشأن إلى ما كتبه شيخ الإسلام ابن تيمية في كتابه السياسة الشرعية ص:118-119.

(5) البقرة: الآية 208.

(6) البقرة: الآية 190.

(7) الأنفال: الآية 61.

نفس الإنسان إنه كفاح إنساني مشترك ضد الجشع والطمع والبخل والجبن والخوف والجهل والمرض والفساد والطغيان إنه وعي كامل بأن لا يستسلم الإنسان إلى نوايا خاطئة أو حياة خاملة أو رغبات عابرة أو عيش ذليل، بل أن يعمل بجد واجتهاد لكي يكون لحياته معنى ولكي يكون لوجوده فائدة»[1] .

إن صراع الخير والشر الحق والباطل يظل يصاحب الإنسان ما ظلت نوازع الخير والشر تسير الإنسان، وسيظل الاختلاف سمة الإنسان الأبدية يطبع حياته الفكرية والعقدية يوصله في أغلب الأحيان إلى التقاتل فالتاريخ ينبئنا بأن الحرب والتدافع المادي أخذت مساحات واسعة من زمن وعمر الإنسان « تشهد بذلك الإحصائية التي تقول بأنه ما بين 1446 ق.م وسنة 1929م أي خلال ثلاثة آلاف عام، لم تتمتع البشرية بسلام لأكثر من ثلاث مائة سنة فقط، بينما قانون الحرب هو السائد طوال كل تلك القرون والسنوات الأخرى...»[2] ، وستظل الحرب قائمة بين بني الإنسان ما دام منطق الاختلاف قائم في حياة الإنسان وشريعة متعارف عليها بين الأجناس البشرية فهذا الاختلاف المركوز في جبلة بني آدم المترجم في سلوكه في صورة التدافع والصراع هو الذي يرسم حركة مجتمعه ويطبعها بكل ظواهر السلب والإيجاب، ويحدد مراحل تطور أو انحطاط أي مجتمع.

لقد كانت معركة بدر نقطة تحول في واقع المجتمع العربي والعلاقات الاجتماعية وحددت مصير المجتمع الجديد من جانب، مثلما كانت الحرب العالمية الثانية نقطة تحول في العالم الحديث وفي علاقاته الاجتماعية ونظرته للإنسان والكون والحياة.

إن سنة التدافع أبرز مظهر تتشكل به سنة التغيير التي تحكم الاجتماع البشري وسيظل الإنسان يقاتل ويحارب ليغير من شكله وواقعه إلى أن يأذن الله بانتهاء مهمته.

---

[1] محمد سعيد العشماوي الإسلام السياسي المؤسسة الوطنية للفنون المطبعية الجزائر ص: 122.

[2] فهمي هويدي مواطنون لا ذميون (مرجع سابق) ص:220.

## الفصل الرابع : سنة التـــــــــــداول .

-تعريف التداول.

-المدلول القرآني للتداول .

-أشكال التداول في القرآن الكريم .

-الظواهر الكونية .

-الظواهر النفسية .

-الظواهر الاجتماعية .

-التداول الحضاري .

-نظرية التعاقب الدوري للحضارات

جامعة الأمير عبد القادر للعلوم الإسلامية

**تمهيد :**

يظل التدافع بين الخير و الشر ، الحق و الباطل قائما أبد الدهر ، يصنع حركية دائمة و أوضاعا متجددة و يجعل من رتابة سير المجتمع و صيرورة الظواهر الاجتماعية أمرا يكاد يكون مستحيلا ، إن ظاهرة التنوع و الاختلاف و التناقض التي تميز الاجتماع البشري عبر تاريخه هي صورة حقيقية لهذه الحركة و التغير المستمر ، كما أن ديمومة هذا التدافع و الصراع يتولد عنه بالضرورة شكلا من أشكال التغير و مظهرا من مظاهر حركة المجتمع اصطلح القرءان على تسميته "بالتداول " و ليس من قبيل الصدف إذ نجد أن هذه الكلمة وردت في القرءان في معرض تقرير مظهر من مظاهر سنة التدافع ليلفت الانتباه و يوجه الأنظار إلى التلاحم الطبيعي و العضوي للتداول بالتدافع و الآية الكريمة تبين هذا التلاحم و التعاضد ..

﴿ . . إِنْ يَمْسَسْكُمْ قَرْحٌ فَقَدْ مَسَّ الْقَوْمَ قَرْحٌ مِثْلُهُ وَ تِلْكَ الأَيَّامُ نُدَاوِلُهَا بَيْنَ النَّاسِ وَلِيَعْلَمَ اللهُ الَّذِينَ ءَامَنُوا وَيَتَّخِذَ مِنْكُمْ شُهَدَاءَ وَاللهُ لَا يُحِبُّ الظَّالِمِينَ﴾ [1] .

إن التداول في حقيقته لا يخرج عن كونه مظهرا من المظاهر أو شكلا من أشكال حركة المجتمع و ترجمة لكل تغيراته فهو تبعا لذلك التجسيد الفعلي والإطار العملي لسنة التغير التي سبقت دراستها ، غير أنها أكثر تحديدا لهذه الحركة من غيرها في شكلها و طبيعتها و المجالات التي تعتريها و الكيفية التي تتم و فقها .

إن البحث العلمي يحتم علينا إبتداء أن نحدد الإطار المعرفي لكلمة التداول و لا يتأتى ذلك إلا من خلال الوقوف على دلالات الكلمة في جانبيها اللغوي و الإصطلاحي و لذالك نرى ضرورة الوقوف على المدلول اللغوي لكلمة التداول من خلال المصادر اللغوية المعتمدة ، و تحديد التصور العام الذي يقدمه القرءان لسنة التداول من خلال إستقراء النصوص القرءانية .

---

[1] آل عمران الآية 140.

## أولا : تعريف التـداول :

إن المدلول اللغوي لكلمة التـداول يضـع بـين أيدينـا الإطـار المنهجـي و المعـرفي و يحدد بدقـة الجوانـب الـتي تشـتملها هـذه السـنة و علاقتهـا بالسـنن الأخـرى .

جاء في لسـان العرب: « أصـل الكلـمة مـن الـدولة و هـي العـقبة في المال

و الحرب و قيـل الدولـة بـالضم في المـال و الدولـة بـالفتح في الحـرب و قيـل همـا سواء يضّمـان و يفتحـان و الدولـة للجيشين يهـزم هـذا ثـم يهـزم الهـازم فتقـول قـد رجعـت الدولـة علـى هـؤلاء كأنهـا المـرة ، قـال : فالدولـة برفـع الـدال في الملـك و السـنين الـتي تغـير و تبدل عـن الدهـر فتلـك الدولـة و الـدول .

و قـال الزجـاج : الدولـة إسـم الشـيئ الـذي يتـداول ،و الدولـة الفعـل و الإنتقـال مـن حـال إلى حـال .. و الدولـة الإنتقـال مـن حـال الشـدة إلى الرخـاء و منـه حديـث أبـي سفيان يـدال عليـه و يـدال علينـا أي نغلبـه مـرة ويغلبنـا مـرة أخـرى ...»[1] .

و يـرى الإمـام الـرازي أن المداولـة هـي : «نقـل الشـيئ مـن واحـد إلى آخـر يقـال تداولته الأيـدي إذا تناقلتـه و منـه قولـه تعـالى:

﴿كَيْ لَا يَكُونَ دُولَةً بَيْنَ الْأَغْنِيَاءِ مِنكُمْ . . . ﴾[2] أي تتداولونهـا و لا تجعلـون للفقـراء منهـا نصيبـا . . .»[3] .

إن المتمعـن في مـا تحملـه كلمـة التـداول مـن معـان قريبـة و بعيـدة يخـرج بالملاحظـات التاليـة :

---

[1] ابن منضور لسان العرب مج1 ( مصدرسابق) ص :، 1034. 1035

[2] الحشر : الأية 7.

[3] الفخر الرازي التفسير الكبير مج5 دار الفكر ج9 ص : 15،16.

1- تحمل هذه الكلمة كل معاني التغيير و التداول المستمر ، ومن ثم فهي صورة عن حالة غير قارة و ترجمة لظواهر إجتماعية لا تعرف الثبات ، ترتفع عن الزمان و المكان لا تختص بقوم معين و لا بمجتمع محدد و لا بحضارة معينة أو بحقبة زمنية خاصة بل هي حالات و ظواهر مرتبطة بأسبابها ومسبباتها بعللها و معلولاتها، فالنصر و الهزيمة ، و التحضر و البداوة ، و الغنى و الفقر ، و الملك و الرفعة كلها حالات و ظواهر سمتها التغير و التحول المستمر ، و لذلك عرفها الزجاج بقوله هي : الفعل و الإنتقال من حال إلى حال .. هذا المعنى يبرز جليا في الصيغة التي و ردت بها هذه الكلمة في القرءان الكريم، يقول الإمام الألوسي في تعليقه على قوله تعالى : ﴿ وَتِلْكَ الأَيَّامُ نُدَاوِلُهَا بَيْنَ النَّاسِ... ﴾[1] بقوله« وصيغة الأمر نداولها الدالة على التجدد و الإستمرار للأعلام بأن تلك المداولة سنة مسلوكة بين الأمم قاطبة إلى أن يأتي أمر الله ومن كلامهم الأيام دول و الحرب سجال...»[2]

2- و من دلالتها أيضا معنى " الزمن " إذ ان الإنتقال من حالة إلى أخرى و من وضع إلى أخر ، لا يقع دفعة واحدة بل على العكس من ذلك يتطلب استجماع كل الأسباب و المسببات و العلل و المعلولات و هذا بطبيعة الحال يتطلب مقدارا من الزمن يطول أو يقصر بحسب طبيعة هذه الظاهرة أو الحالة .

فالإنتقال من حالة الفقر إلى الغنى و من الضعف إلى القوة و من الهزيمة إلى النصر و من البداوة إلى الحضارة أو العكس يقوم على معادلة الزمن .. و ليس من قبيل الصدف أن يقرن الله في الآية الكريمة كلمة التداول بإحدى الألفاظ الدالة على الزمن " اليوم" في قوله : ﴿ وَتِلْكَ الأَيَّامُ نُدَاوِلُهَا بَيْنَ النَّاسِ ﴾ . وهذا للتأكيد على عدم دوامة هذه الحالات و الظواهر و تعلقها دوما بأسبابها و مسبباتها هذا من جهة و من جهة أخرى ليلفت الأنظار إلى عامل الزمن و دوره في صناعة و ترسيخ الظواهر الإجتماعية إيجادا أو عدما .

---

[1] ءآل عمران الآية 140

[2] شهاب الدين الألوسي روح المعاني مج2 ج4 ص : 68

هذا العامل هو الذي يشير إليه العلامة أبو حيان بقوله :« أخبر تعالى على سبيل التسلية أن الأيام على قديم الدهر لا تبقى الناس على حالة واحدة ، و المراد بالأيام أوقات الغلبة و الظفر، يصرفها الله تعالى على ما أراد تارة لهؤلاء ، وتارة لهؤلاء ...»[1] ، ولعل الشاعر العربي كان أقدر من غيره في إبراز هذه السنة فقال:

هي الأيام كما شاهدتها دول  من سره زمن ساءته أزمان [2]

3- إن التداول صورة حقيقية عن حرية الإنسان و قدرته في تغيير و تبديل أوضاعه و من ثم مسؤوليته الكاملة عن ما يحدثه في نفسه و محيطه إذ أنه هو الذي ينشئ الحضارة و هو الذي يهد مها ، و هو الذي يصنع الفقر أو الغنى و النصر أو الهزيمة ... و يقيم الحق أوالباطل ، لذالك قال الرازي بأن المداولة هي الشيئ الذي تداولته الأيدي إشارة إلى مسؤولية الإنسان و دوره الفعال في صناغة و بلورة هذه السنة .

إن التحليل اللغوي لكلمة التداول يبين لنا الأسس و المرتكزات التي تقوم عليها هذه السنة فهي ترتكز على ثلاث أسس رئيسية ، هي الإنسان ، الزمن ، و الأشياء ، " المسخرات " إذ أن الإنسان بما يمارسه من أضرب التغيير و التبديل في طبائع المسخرات " الأشياء" و ما ينجر عن ذلك من آثار على الإنسان في حد ذاته و محيطه الاجتماعي و البيئي ، و ما يفعله الزمن في صناعة و بلورة هذه التغيرات و التحولات و التبدلات يجعل من سنة التداول أمرا محسوسا وواقعا مشهودا ، غير أننا نتساءل عن المعاني التي يضفيها القرءان على هذه الكلمة . وهذا ما سنحاول أن نعرفه في هذا المبحث .

---

[1] ابي حيان البحر المحيط ج3 دار الفكر ط/2 سنة 1983 بيروت لبنان ، ص : 62.

[2] البيت لأبي البقاء الرندي في رثائه إشبيلية ، إحدى مدن الأندلس لما سقطت في يد الأسبان من قصيدة طويلة مطلعها : «دهى الجزيرة أمر لا مرد له ...»

## ثانيا المدلول القرءاني للتداول:

أخذت كلمة التداول في القرءان الكريم، معاني أشمل و أبعاد أعمق، فلم تقتصر على معنى معين كتداول النصر والهزيمة بين هذا أو ذاك ، وإن كان سياق الآية التي وردت فيها لفظة التداول تحمل هذا المعنى، إلا أن استقراء النصوص القرءانية الواردة في هذا الموضوع يجعل حصرها في معنى واحد ضربا من التقزيم ، كما يجعل دراستها دراسة جزئية لا تفي بالغرض المطلوب و لا تؤدي المعنى المراد و لا ترسم حقيقة هذه السنة .

إن القرءان الكريم يجعل التداول سنة تستوعب حياة الإنسان كلها الكونية و النفسية و الاجتماعية و الحضارية بل أكثر من ذلك إذ يربطها بالتصور العام الذي يقدمه عن الإنسان و الكون و الحياة ن مثلما توضحه الآيات القرآنية ، إن استقراء النصوص القرآنية و تتبع ما ورد في القرءان الكريم يتبن أن حصرها في طائفة من الآيات أمر من الصعوبة بمكان و ذلك لتنوع و تعدد الأساليب المستعملة في إبراز و توضيح هذه السنة غير أننا يمكن أن نجملها في أسلوبين إثنين :

أ – عرض مباشر من خلال استعماله لكلمات و ألفاظ تحمل معنى التداول كلفظة التداول ، و الاستخلاف ، و الاستبدال و التغير و الإرث ...

ب – عرض غير مباشر وهذا من خلال الأمثال و القصص القرأني الداعية إلى العظة و الاعتبار بما حدث سابقا و إمكانية حدوثه لاحقا إذا توفرت أسبابو مسببات حدوثه .

و سنعرض للأسلوبين معا بشيء من الإيجاز

### أ – العرض المباشر :

وردت في القرآن الكريم جملة من الكلمات و المصطلحات تشير إشارة مباشرة إلى التداول كلفظة التداول و الاستخلاف ، و الاستبدال ، و التغير ، و الإرث ... غير أن كلمة الاستخلاف و الاستبدال استحوذت على النصيب الأوفر في الاستعمال القرآني مثلما توضحه هذه الطائفة من الآيات .

قال تعالى : ﴿ وَلَقَدْ أَهْلَكْنَا الْقُرُونَ مِنْ قَبْلِكُمْ لَمَّا ظَلَمُوا وَجَاءَتْهُمْ رُسُلُهُمْ بِالْبَيِّنَاتِ وَمَا كَانُوا لِيُؤْمِنُوا كَذَلِكَ نَجْزِي الْقَوْمَ الْمُجْرِمِينَ ثُمَّ جَعَلْنَاكُمْ خَلَائِفَ مِنْ بَعْدِهِمْ لِنَنْظُرَ كَيْفَ تَعْمَلُونَ ﴾ [1] ، ﴿ فَخَلَفَ مِنْ بَعْدِهِمْ خَلْفٌ وَرِثُوا الْكِتَابَ يَأْخُذُونَ عَرَضَ هَذَا الْأَدْنَى وَيَقُولُونَ سَيُغْفَرُ لَنَا وَإِنْ يَأْتِهِمْ عَرَضٌ مِثْلُهُ يَأْخُذُوهُ أَلَمْ يُؤْخَذْ عَلَيْهِمْ مِيثَاقُ الْكِتَابِ أَنْ لَا يَقُولُوا عَلَى اللَّهِ إِلَّا الْحَقَّ وَدَرَسُوا مَا فِيهِ وَالدَّارُ الْآخِرَةُ خَيْرٌ لِلَّذِينَ يَتَّقُونَ أَفَلَا تَعْقِلُونَ ﴾ [2] ﴿ آمِنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ وَأَنْفِقُوا مِمَّا جَعَلَكُمْ مُسْتَخْلَفِينَ فِيهِ فَالَّذِينَ آمَنُوا مِنْكُمْ وَأَنْفَقُوا لَهُمْ أَجْرٌ كَبِيرٌ ﴾ [3] ، ﴿ أَلَمْ يَرَوْا كَمْ أَهْلَكْنَا مِنْ قَبْلِهِمْ مِنْ قَرْنٍ مَكَّنَّاهُمْ فِي الْأَرْضِ مَا لَمْ نُمَكِّنْ لَكُمْ وَأَرْسَلْنَا السَّمَاءَ عَلَيْهِمْ مِدْرَارًا وَجَعَلْنَا الْأَنْهَارَ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهِمْ فَأَهْلَكْنَاهُمْ بِذُنُوبِهِمْ وَأَنْشَأْنَا مِنْ بَعْدِهِمْ قَرْنًا آخَرِينَ ﴾ [4] ، ﴿ وَعَدَ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا مِنْكُمْ وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَيَسْتَخْلِفَنَّهُمْ فِي الْأَرْضِ كَمَا اسْتَخْلَفَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ وَلَيُمَكِّنَنَّ لَهُمْ دِينَهُمُ الَّذِي ارْتَضَى لَهُمْ وَلَيُبَدِّلَنَّهُمْ مِنْ بَعْدِ خَوْفِهِمْ أَمْنًا ... ﴾ [5] . ﴿ وَرَبُّكَ الْغَنِيُّ ذُو الرَّحْمَةِ إِنْ يَشَأْ يُذْهِبْكُمْ وَيَسْتَخْلِفْ مِنْ بَعْدِكُمْ مَا يَشَاءُ كَمَا أَنْشَأَكُمْ مِنْ ذُرِّيَّةِ قَوْمٍ آخَرِينَ ﴾ [6] ، ﴿ كَمْ تَرَكُوا مِنْ جَنَّاتٍ وَعُيُونٍ وَزُرُوعٍ وَمَقَامٍ كَرِيمٍ وَنَعْمَةٍ كَانُوا فِيهَا فَاكِهِينَ كَذَلِكَ وَأَوْرَثْنَاهَا قَوْمًا آخَرِينَ ﴾ [7] .

---

(1) يونس : الآية 13-14 .

(2) الأعراف : الآية 169.

(3) الحديد : الآية 7 .

(4) الأنعام : الآية 6

(5) النور : الآية 55

(6) الأنعام : الآية 28

(7) الدخان : الآية 28

تشـــير الآيات في مجملها إلى إمكانية استبدال جماعة بأخرى أو استخلاف أمة من الأمم أو طائفة من الطوائـــف عـــلى أمر ما كالملك أو الجاه أو السلطان أو المال ... أو سلوكهم ذات الطريق الذي سلكته الجماعـــات و الأمـــم الغابـــرة من خلال إيجاد و صناعة الأسباب و المسببات التي تساهم في خلق ظواهر اجتماعية معينة كالذلـــة و السؤدد . الملك و السلطان...

إن انـــتقـــال فئة مســـتضعفة و تحولهـــا من العبـــودية و الإذلال ، إلى الســـيادة و التمكن لا يقـــع صدفة و إنما يقع وفق أسباب موضوعية إذا توافرت كان التحولو التبدل ، وهذه الأسباب و العلـــل مرتـــبطة بأفعـــال الإنسان و تصرفاته فكما كان عمله موافقا لفطرة الإنسان و جوهره كـــان أدعـــى إلى بقائـــه في قيـــادة المجـــتمع و كما ابتعد عن هذا الإطار ترك قيادة الحياة لغيره يقودها شوطا إلى الأمام و هكـــذا دواليك ... يقول العلامة محمد عبده : « و المداولة في الواقع تكون مبنية على أعمال الناس فلا تكون الدولة لفريق دون آخر جزافا و إنما تكون لمن عرف أسبابها و رعاها حق رعايتها » [1] إن القرآن في تعليله هذه السنة يشير إلى ارتباطها بأعمال الإنسان و أفعاله مثلمـــا تشـــير إليـــه هـــذه الآيـــات : [ **قَـالُوٓا أُوذِيـنَا مِـن قَـبلِ أَن تَـاتِيـنَا وَ مِـن بَـعدِ مَـا جِئتَنَا قَـالَ عَسَى رَبُّكُمۡ أَن يُهۡلِكَ عَدُوَّكُمۡ وَ يَسۡتَخۡلِفَكُمۡ فِي الۡأَرۡضِ فَيَنظُرَ كَيۡفَ تَعۡمَلُونَ** ] [2]

[ **ثُمَّ جَعَلۡنَاكُمۡ خَلَائِفَ مِن بَعۡدِهِمۡ لِنَنظُرَ كَيۡفَ تَعۡمَلُونَ** ] [3] ، و العلة في ذلك كما يقول العلامـــة ابن باديس [4] : « لنهتدي بالأسباب إلى مسبباتها و تجنبها باجتنـــاب الأسباب ... فإن بطلان الســـبب يقتضـــي بطلان المسبب و قد ذكر لنا في كتابه أمة أقلعت عن سبب العذاب فارتفع عنها بعد ما كـــاد ينزل بها ليؤكـــد لنا أن الإقـــلاع عن السبب ينجي من المسبب فقال تعـــالى : [ **إِلَّا قَوۡمَ يُونُسَ لَمَّـا ءَامَنُوا كَشَفۡنَا عَنۡهُمۡ عَذَابَ الۡخِزۡيِ فِي الۡحَيَاةِ الدُّنۡيَا وَ مَتَّعۡنَٰهُمۡ إِلَىٰ حِينٍ** ] [5] فمبادرتهم للإيمان و إقلاعهم عن الكفـــر كشف الله عنهم العذاب » [6] .

---

(1) محمد رشيد رضا المنار مج 11 ص 316-317.

(2) الأعراف : الآية 129

(3) يونس : الآية 14

(4) عبد الحميد بن باديس رائد النهضة الإصلاحية بالجزائر ولد سنة 1889 بمدينة قسنطينة تعلم على يد مشايخها منهم الشيخ الماسي و حصل على التعليم الابتدائي ثم التحق بالزيتونة و درس على يد مشايخها و تحصل على شهادة التحصيل سنة 1912 رجع بعدها إلى قسنطينة ليباشر الدعوة و التعليم في جامع سيدي الاخضر اتصل بعلماء الجزائر ليؤسس جمعية العلماء المسلمين سنة 1931 منهم البشير الإبراهيمي و مبارك الميلي ....توفي سنة 1940 .

(5) يونس : الآية 98

(6) عبد الحميد بن باديس مجالس التذكير من كلام الحكيم الخبير – ط/1 وزارة الشؤون الدينية 1982 ، الجزائر ص : 165-166

**ب- العرض غير المباشر :**

يتجلى هذا العرض في صورتين إثنتين نوجزهما فيما يلي :

1- القصص القرآني: إن المتمعن في هذا النوع من أساليب القرآن الكريم يدرك من خلاله أن الله تبارك و تعالى يبرز الأسباب و المسببات التي أدت إلى تدمير و فناء جملة من المجتمعات والأمم والأقوام ، وهذه الأسباب معظمها متشابهة إن لم نقل واحدة ، ومما يرسخ هذا الإعتقاد أن الله تبارك وتعالى يختم كل عرض قرآني بآيات تذكي هذا التصور كقوله تعالى: ﴿ تِلْكَ الْقُرَىٰ نَقُصُّ عَلَيْكَ مِنْ أَنبَائِهَا وَلَقَدْ جَاءَتْهُمْ رُسُلُهُم بِالْبَيِّنَاتِ فَمَا كَانُوا لِيُؤْمِنُوا بِمَا كَذَّبُوا بِهِ مِن قَبْلُ كَذَٰلِكَ يَطْبَعُ اللَّهُ عَلَىٰ قُلُوبِ الْكَافِرِينَ وَمَا وَجَدْنَا لِأَكْثَرِهِم مِّنْ عَهْدٍ وَإِن وَجَدْنَا أَكْثَرَهُمْ لَفَاسِقِينَ﴾[1] ﴿ذَٰلِكَ مِنْ أَنبَاءِ الْقُرَىٰ نَقُصُّهُ عَلَيْكَ مِنْهَا قَائِمٌ وَحَصِيدٌ وَمَا ظَلَمْنَاهُمْ وَلَٰكِن ظَلَمُوا أَنفُسَهُمْ فَمَا أَغْنَتْ عَنْهُمْ آلِهَتُهُمُ الَّتِي يَدْعُونَ مِن دُونِ اللَّهِ مِن شَيْءٍ لَّمَّا جَاءَ أَمْرُ رَبِّكَ وَمَا زَادُوهُمْ غَيْرَ تَتْبِيبٍ وَكَذَٰلِكَ أَخْذُ رَبِّكَ إِذَا أَخَذَ الْقُرَىٰ وَهِيَ ظَالِمَةٌ إِنَّ أَخْذَهُ أَلِيمٌ شَدِيدٌ﴾[2] ، ﴿كَذَٰلِكَ نَقُصُّ عَلَيْكَ مِنْ أَنبَاءِ مَا قَدْ سَبَقَ وَقَدْ آتَيْنَاكَ مِن لَّدُنَّا ذِكْرًا مَّنْ أَعْرَضَ عَنْهُ فَإِنَّهُ يَحْمِلُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وِزْرًا﴾[3] ، ﴿ثُمَّ أَرْسَلْنَا رُسُلَنَا تَتْرَا كُلَّ مَا جَاءَ أُمَّةً رَّسُولُهَا كَذَّبُوهُ فَأَتْبَعْنَا بَعْضَهُم بَعْضًا وَجَعَلْنَاهُمْ أَحَادِيثَ فَبُعْدًا لِّقَوْمٍ لَّا يُؤْمِنُونَ﴾[4] .

هذه الآيات هي ختام جولة تاريخية ابتدأت بأمة نوح عليه السلام وانتهت بمحمد عليه السلام ، ومن خلالها تقررت حقيقة قرآنية وقانونا اجتماعيا ، أن أي أمة

---

[1] الأعراف : الآية 101-102.

[2] هود : الآية 100-101

[3] طه الآية 99 - 100

[4] المؤمنون: الآية 44

أو مجتمع ارتكب ما يغضب الله و استنفذ كل أسباب بقائه مآله إلى الزوال و الإنهيار تاركا مكانه إلى من هو أقدر منه على صناعة الحياة بما يوافق حقيقة الإنسان وجوهره .

إن الله تبارك وتعالى من خلال القصص القرآني يدعو المسلم إلى العظة والإعتبار بمصائر الأمم و الجماعات وذلك من خلال التجنب و الإبتعاد عن كل أسباب التي من شأنها إيجاد الظواهر و السلوكيات التي كانت سببا مباشر أو غير مباشر في الإطاحة بها من عليائها لتخلفها أمة من الأمم أو جماعة من الجماعات و لعل هذا هو السر في أن معظم القرآن قصص، يقول محمد عبده رحمه الله : «... فثلاثة أرباع القرآن تقريبا قصص، وتوجيه للأنظار إلى الإعتبار بأحوال الأمم في كفرهم وإيمانهم ، وشقائهم ، وسعادتهم ، ولا شيئ يهدي الإنسان كالمثلات و الوقائع ، فإذا امتثلنا الأمر والإرشاد .. و نظرنا في أحوال الأمم السالفة وأسباب علمهم وجهلهم وقوتهم وضعفهم وعزهم وذلهم وغير ذلك مما يعرض للأمم . كان لهذا النظر أثر السعادة والتمكن في الأرض و اجتناب ما كان سبب الشقاوة أو الهلاك و الدمار و من هنا يتجلى شأن علم التاريخ وما فيه من الفوائد والثمرات...»[1] .

إن القصص كأسلوب انفرد به القرآن يؤكد بما لا يدع مجالا للشك حقيقة التداول كسنة وقانون اجتماعي، و إلا لأضحت دعوته إلى العظة والإعتبار مجرد عبث و العبث محال في حق الله عز وجل.

2- الأمثال القرآنية : من الأساليب التي اتخذها القرآن لإبراز سنة التداول "الأمثال" إذ وردت جملة من الأمثال تحمل في طياتها معاني التداول والاستخلاف أو تشير إلى هذا القانون من قريب أو بعيد و من الأمثلة على ذلك قول الله تعالى:

---

[1] محمد رشيد رضا المنار ج 1 ص: 67 .

﴿ وَضَرَبَ اللهُ مَثَلاً قَرْيَةً كَانَتْ آمِنَةً مُطْمَئِنَّةً يَأْتِيهَا رِزْقُهَا رَغَدًا مِنْ كُلِّ مَكَانٍ فَكَفَرَتْ بِأَنْعُمِ اللهِ فَأَذَاقَهَا اللهُ لِبَاسَ الْجُوعِ وَالْخَوْفِ بِمَا كَانُوا يَصْنَعُونَ﴾[1] ، ﴿ وَلَقَدْ أَنْزَلْنَا آيَاتٍ مُبَيِّنَاتٍ وَمَثَلاً مِنَ الَّذِينَ خَلَوْا مِنْ قَبْلِكُمْ وَمَوْعِظَةً لِلْمُتَّقِينَ﴾[2] ، ﴿ وَاضْرِبْ لَهُمْ مَثَلاً أَصْحَابَ الْقَرْيَةِ إِذْ جَاءَهَا الْمُرْسَلُونَ إِذْ أَرْسَلْنَا إِلَيْهِمُ اثْنَيْنِ فَكَذَّبُوهُمَا فَعَزَّزْنَا بِثَالِثٍ فَقَالُوا إِنَّا إِلَيْكُمْ مُرْسَلُونَ﴾[3] ، ﴿ وَسَكَنْتُمْ فِي مَسَاكِنِ الَّذِينَ ظَلَمُوا أَنْفُسَهُمْ وَتَبَيَّنَ لَكُمْ كَيْفَ فَعَلْنَا بِهِمْ وَضَرَبْنَا لَكُمُ الأَمْثَالَ ﴾.[4]

إن الغاية من الأمثال هي العظة و الإعتبار بالممثلات، و لأدل على ذلك ماورد في حديث الرسول ص إذ يقول :« إن القرآن نزل على خمسة أوجه حلال ،وحرام محكم ، ومتشابه ، وأمثال. فاعملوا بالحلال واجتنبوا الحرام واتبعوا المحكم و آمنوا بالمتشابه واعتبروا بالأمثال»[5] . لأنها أبلغ أثر في النفس بما تحمله من معاني تجعل الإنسان يحس و يتصور الممثلات مجسدة مجسمة أمامه كأنه يراها رأي العين، لذلك قال بعض العلماء : « ضرب الأمثال في القرآن يستفاد منه أمور كثيرة التذكير و الوعظ و الحث و الزجر و الإعتبار و التقريب المراد للعقل و تصويره بصورة المحسوس ، فإن الأمثال تصور المعاني بصورة الأشخاص لأنها أثبت في الأذهان لاستعانة الذهن فيها بالحواس، و من ثم كان الغرض من المثل تشبيه الخفي بالجلي و الغائب بالمشاهد...»[6] .

إن السلوك الإنساني الاجتماعي متشابه بين بني الإنسان رغم ما قد يكون بينهم من اختلاف في الأزمنة و الأمكنة مما يجعل الظواهر الناتجة عن هذا السلوك متشابهة

---

(1) النحل : الآية 112.

(2) النور : الآية 34

(3) يس: الآية 13

(4) إبراهيم : الآية 45

(5) أحمد بن حنبل المسند مج5 ص: 124

(6) جلال الدين عبد الرحمان السيوطي الإتقان في علوم القرآن ج2 ، دار المعرفة بيروت لبنان ص : 167

إلى حد كبير إن لم نقل واحدة ، ولذلك لم تحتفل الأمثلة القرآنية بذكر الأسماء و الأقوام كالقصص لأن الغرض منها هو التنبيه إلى الظواهر التي تحدث في مجتمع أو أمة إذا توفرت لها ذات الأسباب و المسببات .

إن ظاهرة الرخاء الاقتصادي و الأمن النفسي و الاجتماعي في أي مجتمع أو أمة يتوقف على ما يمارسه افراده ، من أعمال تتوافق أو تخالف فطرة الإنسان و حقيقة دوره، ولما كان هذا قانونا اجتماعيا لا يستثنى منه مجتمع من المجتمعات أو فئة من الفئات و رد في القرآن كحقيقة يقينية على شكل مثل لا على التعين في قوله تعالى :﴿ وَضَرَبَ اللهُ مَثَلاً قَرْيَةً كَانَتْ آمِنَةً مُطْمَئِنَّةً ...﴾ [1] يعلق العلامة الرازي على هذه الآية بقوله: «... المثل قد يضرب بشيئ موصوف بصفة معينة سواء أكان ذلك الشيئ موجودا أو لم يكن موجودا . وقد يضرب بشيئ موجود معين فهذه القرية التي ضرب الله بها هذا المثل يحتمل أن تكون شيئا مفروضا و يحتمل أن تكون قرية معينة وعلى هذا التقدير فتلك القرية يحتمل أن تكون مكة أو غيرها ، والأكثرون من المفسرين على أنها مكة و الأقرب عندي أنها غير مكة لأنها ضربت مثلا لمكة و مثل مكة يكون غير مكة ...»[2] . إن سلوك أي أمة أو جماعة المسلك الذي سلكته الأمة التي ضربت مثلا سيؤدي حتما إلى النتيجة ذاتها التي انتهت إليها الأمة المثل و سيذيقها الله لباس الجوع و الخوف نظير أعمالهم .

إن المغزى من الأمثال هي الإرشاد و التنبيه إلى الأسباب التي تحيط بظاهرة ما أو سلوك معين ، أو تساهم بقدر وافر في إحداثها و صناعتها ، هذه الأسباب هي التي تجعل الظواهر و الاحداث تجري و تتحرك فيما يشبه حركة دورية و تجعل كل ظاهرة إنسانية قابلة للإعادة و التكرار مرات و مرات كلما توفرت أسبابها ... و السبب يعود في نظري إلى سلوك الإنسان في حد ذاته لكونه يقع بين حدين ثابتين الروح و الجسد ، فهو إما تفانيا في خدمة الروح أوالجسد ، و لما كانت كل أعمال

---

[1] النحل : الآية 112

[2] الرازي التفسير الكبير ج20 دار إحياء التراث العربي ط/3 ، بيروت لبنان ص 127

و تصرفات الإنسان لا تخرج عن هذا الإطار ، فلا غرو إذ نجد هذه الظواهر تكرر عبر السنين طالما أن المعلمين الروح و الجسد لا يعتريها التبديل و التغيير ، و على ضوء ذلك يقول أ بو الأعلى المودودي :«ستظل كل أعمال الإنسان وتصرفاته و أحداث العالم كلها تجري و تتحرك فيما يشبه حركة دورية ، فالولادة و الموت و الشباب و الشيخوخة و القوة و الضعف و الربيع و الخريف و النضارة و الذبول... كل أولئك و جوه مختلفة لتلك الحركة الدورية و تبعا لهذه الحركة تطرأ على كل كائن حسب نوبته حالة من الإقبال ينموا في أثنائها و يزكوا حتى يبلغ ذروة رقيه و كماله ثم تعقب ذلك حالة الأدبار و يأخذهم الضعف و الاضمحلال . تلك سنة الله فيما خلق و هي جارية في سائر الموجودات »[1].

إن التداول بالإضافة إلى كونه قانونا اجتماعيا يحكم حياة الإنسان فهو تجسيد لإرادة الله من خلال أعمال و أفعال الناس، و هي العملية التي من شأنها تغيير مجرى الحياة و على ضوئها تنتقل قيادة الحياة و المجتمع من يد إلى أخرى و من فئة إلى أخرى و فق شروط موضوعية تعتمد أسا سا على مدى مطابقة فعل الإنسان للفطرة التي خلق عليها ، و دوره في الحياة ، غير أن السؤال الذي يطرح نفسه : كيف تتم عملية التداول هذه؟

[1] أبو الأعلى المودودي نحن و الحضارة الغربية دارالشهاب ص/2 سـ 1988 ..

## ثالثا : أشكال التداول:

إن عملية التداول و الاستخلاف التي تكررت في القرآن الكريم في أكثر من موضع هي في حقيقتها نتاج لسنة التدافع و الصراع ، تدافع بين الخير و الشر الحق و الباطل على قيادة الإنسان و المجتمع، إن استعادة المسلم لقيادة الحياة هو الهدف الأسمى لهذه السنة ، فكلما تمكنت قوى الشر من ناصيته إلا و حاولت أن تصبغ الوجود بسماتها و تصوراتها، تدخلت إرادة الله لإعادة الأمور إلى نصابها و الحياة إلى طبيعتها و هذا التدخل من قبل العناية الإلهية هو النصر الذي وعد الله به المتقين الصابرين في الكثير من الايات منها ﴿ حَتَّى إِذَا اسْتَيْئَسَ الرُّسُلُ وَظَنُّوا أَنَّهُمْ قَدْ كُذِبُوا جَاءَهُمْ نَصْرُنَا فَنُنْجِيَ مَنْ نَشَاءُ وَلَا يُرَدُّ بَأْسُنَا عَنِ الْقَوْمِ الْمُجْرِمِينَ ﴾[1] ،

﴿ وَعَدَ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا مِنْكُمْ وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَيَسْتَخْلِفَنَّهُمْ فِي الْأَرْضِ كَمَا اسْتَخْلَفَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ وَلَيُمَكِّنَنَّ لَهُمْ دِينَهُمُ الَّذِي ارْتَضَىٰ لَهُمْ وَلَيُبَدِّلَنَّهُمْ مِنْ بَعْدِ خَوْفِهِمْ أَمْنًا يَعْبُدُونَنِي لَا يُشْرِكُونَ بِي شَيْئًا...﴾[2] ، ﴿وَأَوْرَثْنَا الْقَوْمَ الَّذِينَ كَانُوا يُسْتَضْعَفُونَ مَشَارِقَ الْأَرْضِ وَمَغَارِبَهَا الَّتِي بَارَكْنَا فِيهَا وَتَمَّتْ كَلِمَتُ رَبِّكَ الْحُسْنَىٰ عَلَىٰ بَنِي إِسْرَائِيلَ بِمَا صَبَرُوا وَدَمَّرْنَا مَا كَانَ يَصْنَعُ فِرْعَوْنُ وَقَوْمُهُ وَمَا كَانُوا يَعْرِشُونَ﴾[3]، فعملية التداول و الاستخلاف تهدف من خلال النصوص – الواردة – إلى المحافظة على وظيفة الإنسان و على عنصر التوازن الذي ينتظم الحياة ، ومن ثم فهي لا تسير اعتباطا و إنما هي أمر الله و كلمته التي لا ترد تصوغها أعمال و أفعال الناس ، إن استقرأنا للنصوص القرآنية بين لنا أن العملية التداولية التي يعرضها القرآن تتم وفق نمطين إثنين ، نمط تتغير فيه الحياة كلية وتندرس فيه معالم الماض و لا يبقى له أي أثر كما

---

[1] يوسف : الآية 110.

[2] النور : الآية 55.

[3] الأعراف : الآية 137.

حدث لقوم نوح عليه السلام و مجتمعات عديدة، وهذا النوع من التغيير و التداول هو التغيير الجدري الإستئصالي ، و لا يتم هذا النوع من التغيير و التداول إلا إذا تشربت النفوس الكفر و صبغت به الحياة و سعت بكل السبل لإيقاف الحق و انقلبت كل المفاهيم و لم يعد هناك ما يؤسف عليه، فيأتي أمر الله بإبادة هذا المجتمع أو هذه الحضارة لتترك مكانها لأمة جديدة أو حضارة ناشئة تخلفها في مكانها أقرب لحقيقة الإنسان و جوهره ، تقود الإنسان حينا من الزمن وهكذا دواليك... إن أمة نوح عليه السلام لم تترك مكان الريادة و لم يستأصلها الله سبحانه وتعالى لأنها فقدت أسباب الحضارة و صناعة الحياة بل لابتعادها عن جوهر الإنسان ومصادمتها لسنن الله. نلمس هذا من التحذير الذي وجهه هود عليه السلام إلى قومه من مغبة سلوك الطريق ذاته الذي سلكه قوم نوح عليه السلام في قوله تعالى :﴿ وَاذْكُرُوا إِذْ جَعَلَكُمْ خُلَفَاءَ مِنْ بَعْدِ قَوْمِ نُوحٍ وَزَادَكُمْ فِي الْخَلْقِ بَسْطَةً فَاذْكُرُوا آلَاءَ اللَّهِ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ﴾[1] ، يعلق العلامة محمد الطاهر بن عاشور على هذه الآية بقوله : «... فالمراد جعلكم خلفاء في تعمير الأرض ، ولما قال: ﴿ من بعد نوح﴾ علم أن المقصود أنهم خلفاء قوم نوح... فعاد أول أمة اضطلعت بالحضارة بعد الطوفان ... و ليس المراد أنهم خلفوا قوم نوح في ديارهم .لأن منازل عاد غير منازل قوم نوح ، وهذا التذكير تصريح بالنعمة و تعريض بالنذارة و الوعيد بأن قوم نوح إنما استأصلهم و أبادهم عذاب من الله على شركهم فمن اتبعهم يوشك أن يحل به عذابه أيضا... »[2] ، و إن من رحمة الله بعباده أن لا تلبث أي جماعة بشرية أو أمة أو حضارة مهما كان سلطانها و عظمت قوتها إلا مدة يسيرة من الزمن لتترك مكانها إلى أخرى ناشئة ، هكذا يحدث التغيير و تتبدل الأمور و لايملك أي كان أن يقف في وجه حركة التغيير هذه سنة الله في خلقه، و الشيئ الملفت لإنتباه أن التغيير الجدري أو الإستئصالي يتم بذات الوسائل التي يستعملها الإنسان في تشييد حضارته و مدينته، فإذا كان الماء أو الغيث سببا في ازدهار مجتمع وتكون حضارة، فهو ذاته الأداة التي استأصلت قوم نوح و أبادت

---

[1] الأعراف: الآية 69

[2] محمد الطاهر بن عاشور التحرير و التنوير ج2 ص 205.

خضراءهم مثلما يجسده قوله تعالى: ﴿ فَدَعَا رَبَّهُ أَنِّي مَغْلُوبٌ فَانْتَصِرْ فَفَتَحْنَا أَبْوَابَ السَّمَاءِ بِمَاءٍ مُنْهَمِرٍ وَفَجَّرْنَا الْأَرْضَ عُيُونًا فَالْتَقَى الْمَاءُ عَلَى أَمْرٍ قَدْ قُدِرَ وَحَمَلْنَاهُ عَلَى ذَاتِ أَلْوَاحٍ وَدُسُرٍ تَجْرِي بِأَعْيُنِنَا جَزَاءً لِمَنْ كَانَ كُفِرَ... ﴾.[1]

و النمط الثاني من التداول هو الذي يتم داخل المجتمع ، كأن تسقط الطبقة أو الفئة التي تمارس الفساد كما حدث لمجتمع فرعون أو مجتمع مكة المكرمة، أو يسلط الله عليها عدوا خارجيا يستبيح بيضتها ، ومن ثم تذوب في حضارته و يسرع إليها الفناء ، و التاريخ يحتفظ في سجلاته بالكثير من هذه المجتمعات يقف على رأسها المجتمع اليوناني و الفارسي و الروماني ... وهذا النمط من التداول هو الذي تشير إليه الآية الكريمة : ﴿ قُلْ هُوَ الْقَادِرُ عَلَى أَنْ يَبْعَثَ عَلَيْكُمْ عَذَابًا مِنْ فَوْقِكُمْ أَوْ مِنْ تَحْتِ أَرْجُلِكُمْ أَوْ يَلْبِسَكُمْ شِيَعًا وَيُذِيقَ بَعْضَكُمْ بَأْسَ بَعْضٍ انْظُرْ كَيْفَ نُصَرِّفُ الْآيَاتِ لَعَلَّهُمْ يَفْقَهُونَ ﴾[2] جاء عن ابن عباس في تفسير هذه الآيات قوله : « عذابا من فوقكم أي من الأمراء و من تحت أرجلكم من العبيد و السفلة ، أما قوله أو يلبسكم شيعا قال الزجاج : يخلط أمركم خلط اضطراب لا خلط اتفاق فيجعلكم فرقا و لا تكونون فرقة والمحدة فإذا كنتم مختلفين قاتل بعضكم بعضا و هو معنى قوله يذيق بعضكم بأس بعض»[3] ، قد يتسرب الإعتقاد للمسلم أن سنة التداول كقانون اختص به الله المجتمعات و الأقوام و الحضارات التي حادت عن الطريق المستقيم ، فجعل تداول الأيام العملية التي بواسطتها تعود الأمور إلى نصابها ومن ثم المحافظة على عنصر التوازن الذي يحكم الكون و الإنسان و الحياة عموما ، حتى لا يطغى الكفر على الإيمان و الشر على الخير و الباطل على الحق . و المادة على الروح ، والحقيقة أن هذه السنة بما تتصف به من شمول و عموم لا تستثني أي إنسان و أي مجتمع و أية حضارة

---

(1) القمر : الآية 10، 11 ، 12.

(2) الأنعام : الاية 65.

(3) الفخر الرازي التفسير الكبير ج 13 ص 22.

... نستشف هذا من قوله تعالى : ﴿ بَيْنَ النَّاسِ﴾ تأكيد لعموم هذه السنة فلا فرق بين مسلم وكافر ، متحضر و "بدائي" إذا ارتكب ما يوجب التغيير و التبديل ، فكل خاضع لها من غير استثناء، إن مخاطبة الله تعالى لأمة الإسلام بهذه الصيغة يدفع كل لبس و كل اعتقاد من هذا القبيل ﴿ ثُمَّ جَعَلْنَاكُمْ خَلَائِفَ مِنْ بَعْدِهِمْ لِنَنْظُرَ كَيْفَ تَعْمَلُونَ﴾ [1] يعلق العلامة محمد عبده على الآية بقوله: «وقد علل الله هذا الاستخلاف بقوله ﴿ لننظر كيف تعملون﴾ في خلافتكم و نجازيكم به بمقتضى سننا فيمن قبلكم فإن هذه الخلافة إنما جعلناها لكم لإقامة الحق و العدل في الأرض و تطهيرها من رجس الشرك و الفسق لا مجرد التمتع بلذة الملك كما قال تعالى في أول آيات الإذن بالقتال:﴿ الَّذِينَ إِنْ مَكَّنَّاهُمْ فِي الْأَرْضِ أَقَامُوا الصَّلَاةَ وَآتَوُا الزَّكَاةَ وَأَمَرُوا بِالْمَعْرُوفِ وَنَهَوْا عَنِ الْمُنْكَرِ وَلِلَّهِ عَاقِبَةُ الْأُمُورِ﴾ [2] فأعلمهم الله سبحانه وتعالى بأن بقاء خلافتهم منوط بأعمالهم و أنه تعالى يكون ناظر إلى هذه الأعمال لا يغفل عنهم فيها حتى لا يغتروا بما سينالونه، أنه باق لهم لذاتهم أو لنسبتهم إلى نبيهم و أنهم ينفلتون من سنته في الظالمين» [3].

إن عملية الشد و الجذب التي تمارسها قوى الخير و الشر على الإنسان و محيطه تصنع باستمرار مظاهر التداول بما تصنعه من ظواهر و لم يكن المسلم في يوم من الأيام بمعزل عن هذه العملية ، وعن هذا الصراع ، غير أن شحنة الإيمان التي تعمر قلبه تجعل كفة الخير تميل على الشر ، وبذلك يحقق التوازن المطلوب فإذا قل تأثير هذه الشحنة أو انعدمت أصبح كغيره من الناس يصيبه ما أصابهم هذه سنة الله في خلقه

---

[1] يونس : الآية 14

[2] الحج: الآية 41

[3] محمدرشيد رضا المنار مج11 ص 316-317

و إليها يشير الله تعالى بقوله: ﴿ وَإِنْ تَتَوَلَّوا يَسْتَبْدِلْ قَوْمًا غَيْرَكُمْ ثُمَّ لَا يَكُونُوا أَمْثَالَكُمْ ﴾ [1]، و من رحمة الله بالمسلم و مجتمعه و حضارته أن سنة التداول التي تعتريه تتم على النمط الثاني فلا يصيبه الإستئصال أو الإبادة أبدا لأن الرسول "ص" دعا الله بقوله :« إِنَّ اللَّهَ زَوَى لِي الْأَرْضَ ، فَرَأَيْتُ مَشَارِقَهَا وَ مَغَارِبَهَا ، وَ أَنَّ أُمَّتِي سَيَبْلُغُ مُلْكُهَا مَا زُوِيَ لِي مِنْهَا ، وَ أُعْطِيتُ الْكَنْزَيْنِ الْأَحْمَرَ وَ الْأَبْيَضَ وَإِنِي سَأَلْتُ رَبِي لِأُمَّتِي أَنْ لَا يُهْلِكَهَا بِسَنَةٍ عَامَّةٍ ، وَأَنْ لَا يُسَلِّطَ عَلَيْهِمْ عَدُوًّا مِنْ سِوَى أَنْفُسِهِمْ فَيَسْتَبِيحَ بَيْضَتَهُمْ وَ إِنَّ رَبِي قَالَ : يَا مُحَمَّدُ ! إِنِي إِذَا قَضَيْتُ قَضَاءً فَإِنَّهُ لَا يُرَدُّ ، وَ إِنِي أَعْطَيْتُكَ لِأُمَّتِكَ أَنْ لَا أُهْلِكَهُمْ بِسَنَةٍ عَامَّةٍ وَ أَنْ لَا أُسَلِّطَ عَلَيْهِمْ عَدُوًّا مِنْ سِوَى أَنْفُسِهِمْ يَسْتَبِيحُ بَيْضَتَهُمْ ، وَلَوْ إِجْتَمَعَ عَلَيْهِمْ مِنْ أَقْطَارِهَا - أَوْ قَالَ مِنْ بَيْنِ أَقْطَارِهَا - حَتَى يَكُونَ بَعْضُهُمْ يُهْلِكُ بَعْضًا ، وَيَسْبِي بَعْضُهُمْ بَعْضًا»[2] .

إن التداول في التصور القرآني حركة دائمة ، وصراع مستمر بين قوى الخير و الشر و علامة دائمة على محدودية هذا العالم ، هذه الحركية الدائمة هي التي تعطي للحياةصبغة التجدد و الأمل و الثقة في المستقبل ، و يجعل الإنسان و خاصة المسلم ينظر للمستقبل بعين التفاؤل لا التشاؤم مهما كانت طبيعة الأوضاع التي تحيط به و أجد العلامة الرازي، أفضل من غيره في فهم مدلول هذه السنة و الغاية منها فيقول: « ليس المراد من هذه المداولة أن الله ينصر المؤمنين و أخرى ينصر الكافرين ، وذلك أن نصرة الله منصب شريف ، واعزاز عظيم ، فلا يليق بالكافر ، بل المراد من هذه المداولة أنه تارة يشد المحنة على الكفار و أخرى على المؤمنين و الفائدة فيه و جوه .

الأول : أنه تعالى لو شد المحنة على الكفار في جميع الأوقات و أزالها عن المؤمنين في جميع الأوقات لحصل العلم الإضطراري بأن الإيمان حق و ما سواه باطل ، ولو كان كذلك لبطل التكليف ، و الثواب و العقاب فلهذا المعنى تارة يسلط الله المحنة

---

[1] محمد : الآية 38

[2] مسلم بن الحجاج صحيح مسلم مج4 كتاب الفتن و أشراط الساعة ح رقم 19 ص 2215

على أهل الإيمان و أخرى على أهل الكفر لتكون الشبهات باقية و المكلف يدفعها بواسطة النظر في الدلائل.

و الثاني : أن المؤمن قد يقدم على بعض المعاصي فيكون عند الله تشديد المحنة عليه في الدنيا أدبا له ، وأما تشديد المحنة على الكافر فإنه يكون غضبا من الله عليه...

و الثالث: و هو أن لذات الدنيا و ألامها غير باقية و أحوالها غير مستمرة و إنما تحصل السعادات المستمرة في دار الآخرة ، ولذلك فإنه تعالى يميت بعد الإحياء و يسقم بعد الصحة، فإذا حسن ذلك فلم لا يحسن أن يبدل الله السراء بالضراء و القدرة بالعجز...»[1].

من هذا المنظور تأتي دعوة الله للإنسان بضرورة التأمل في الكون و في سير الأرض وتتبع أثار السابقين في العديد من مواضع القرآن ليقف الإنسان بنفسه على حقيقة هذه السنة.

إن التداول كحقيقة ملموسة لا يمكن أن نقف عليه إلا إذا استعرضنا أثاره في نفس الإنسان و مجتمعه و محيطه ، و هذا لا يتأتي إلامن خلال التطرق إلى مظاهرها التي تبرز عليها من خلال ما ورد في كتاب الله، إن استقرأنا للنصوص القرآنية أظهر لنا سمة أساسية تميز سنة التداول مما يجعلها تصبغ الوجود بأسره فهي لا تقتصر على جانب معين من حياة الإنسان و إنما شاملة لمظاهر الحياة كلها الكونية و النفسية و الاجتماعية ، و لذلك أضحى من الضروري الوقوف عند كل مظهر من مظاهرها حتى يتسنى لنا إدراك التصور الكامل الذي يقدمه القرآن لسنة التداول.

---

[1] الرازي التفسير الكبير مج5 ج9 دار إحياء التراث العربي ط/2 بيروت لبنان ص 15، 16.

رابعا : الظواهر الكونية :

يعرض القرآن جملة من الظواهر الكونية تتداول حياة الإنسان ، و تؤثر تأثيرا مباشرا و عميقا في تكوينه النفسي و الاجتماعي ، و تصوغ نظام حياته صياغة صارمة لا يستطيع الفكاك عنها سوى محاولة التكيف معها ، من جملة هذه الظواهر ، ظاهرة اختلاف الليل و النهار و ظاهرة الفصول الأربعة و المد و الجزر و غيرها من الظواهر الكونية الأخرى ، لقد حفلت آيات القرآن بذكر هذه الظواهر إما مباشرة من خلال تناول الليل و النهار و غيرها و دلالتها على عظمة الخالق أو بالتطرق إلى أثارها التي تنبئ عنها .

فهذه الظواهر ظلت تصاحب الإنسان منذ الأزل ، و على ضوئها يحدد نشاطاته الدينية و الاقتصادية و الاجتماعية ، بل وصل الأمر إلى تقديس بعض منها و إضفاء صفات الألوهية عليها فظهرت على مسرح التاريخ جماعات بشرية تعبد الكواكب و أخرى تقدس الشمس و ما إلى ذلك من مظاهر العبادة و التقديس ، وردت في القرآن الكريم إشارات إلى هذه المجتمعات من خلال قصة إبراهيم عليه السلام و حواره مع عبادة الكواكب و النجوم ، و ذكره لمجتمع سبأ و تقديسهم للشمس من خلال قصة الهدهد ، و لم يكن المجتمع العربي بمنأى عن هذا النوع من العبادة ندرك هذا من قوله "ص " لما تزامن موت إبراهيم و ولد الرسول " ص " مع كسوف الشمس فاعتقد الناس أنها انكسفت حزنا على إبراهيم فقال " ص " « إِنَّ الشَّمْسَ وَ الْقَمَرَ لَا يَنْكَسِفَانِ لِمَوْتِ أَحَدٍ مِنَ النَّاسِ فَإِذَا رَأَيْتُمُوهُ فَقُومُوا فَصَلُّوا ...» [1] لينفي عن هذه الظاهرة كل مظهر للقداسة و ما إلى ذلك ، و السبب الذي دفع الإنسان إلى تقديس و عبادة هذه الظواهر و الأفلاك يعود في نظري إلى التأثير العميق الذي تتركه في حياة الإنسان النفسية و الاجتماعية ، إن تعاقب الليل و النهار أية محسوسة مشاهدة تصاحب الإنسان و تماسيه و تتحكم في حياته كلها ، فديناميكيته و حركته كلها مرتبطة أشد الإرتباط بهذه الظاهرة الكونية فهو يعمل و يكابد طول نهاره و يبدد من قواه الشيء الكثير ليسترجع ما فقده في هدوء الحركة و سكون الليل ، و لا يمكن بأي حال من الأحوال تغيير هذا النمط من الحياة مهما فعل أو إدعى ، هذه الظاهرة الكونية وردت في القرآن على أنها حقيقة غير قابلة للجدال أو المناقشة .

﴿ وَجَعَلْنَا اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ آيَتَيْنِ فَمَحَوْنَا آيَةَ اللَّيْلِ وَجَعَلْنَا آيَةَ النَّهَارِ مُبْصِرَةً لِتَبْتَغُوا فَضْلًا مِنْ رَبِّكُمْ وَلِتَعْلَمُوا عَدَدَ السِّنِينَ وَالْحِسَابَ وَكُلَّ شَيْءٍ فَصَّلْنَاهُ تَفْصِيلًا ﴾ [2] .

---

[1] مسلم بن الحجاج صحيح مسلم مج 2 كتاب الكسوف ح رقم 23 و مالك في الوطأ كتاب صلاة الكسوف ص 186 و ابن ماجة في سنة الصلاة مج1 ج26 ، ص4000

[2] الإسراء : الآية 12

﴿ وَهُوَ الذِي جَعَلَ لَكُمُ اللَّيْلَ لِبَاسًا وَالنَّوْمَ سُبَاتًا وَجَعَلَ النَّهَارَ نُشُورًا ﴾[1] .

يعلق العلامة الفخر الرازي على الآية الثانية بقوله :« و جعلنا الليل و النهار دليلين للخلق على مصالح الدين و الدنيا ، أما في الدين فلأن كل واحد منهما مضاد للآخر ، مغاير له مع كونهما متعاقبين على الدوام ، وذلك من أقوى الدلائل على أنهما غير موجودين لذاتهما بل لابد لها من فاعل يدبرهما و يقدرهما بالمقادير المنصوصة أما في الدنيا فلأن المصالح فيها لا تتم إلا بالليل و النهار و لولا الليل لما حصل السكون و الراحة و لولا النهار لما حصل الكسب و التصرّف في وجوه المعاش»[2] .

و حقيقة هذه السنة كما أوضحته و بينته العلوم الحديثة هي نتيجة لدوران الأرض ، فهي تدور حول نفسها دورة كاملة تقطعها في أربع و عشرين ساعة و أثناء هذا الدوران جهة تصيبها الشمس فينتج عنها ما يعرف بالنهار ،أما الجهة المقابلة (المظلمة) فهي الليل ، و هكذا دواليك تصيب الشمس مرة هذا الوجه و مرة الوجه الآخر ، أما الدورة الثانية فهي التي تقطعها الأرض حول الشمس وتستغرق سنة كاملة ينتج عنها ما يعرف بالفصول الأربعة ، فخصبة التربة و نزول المطر له علاقة وطيدة بتعاقب الليل و النهار و اختلافهما بالطول و القصر فليس من قبيل الصدف أن يقرن الله في الكثير من آياته هذه الظاهرة بتنوع مظاهر الطبيعة و المحيط كقوله تعالى : ﴿ وَاخْتِلَافِ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ ، وَمَا أَنْزَلَ اللَّهُ مِنَ السَّمَاءِ مِنْ رِزْقٍ فَأَحْيَا بِهِ الْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا ، وَتَصْرِيفِ الرِّيَاحِ وَالسَّحَابِ الْمُسَخَّرِ بَيْنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ لَآيَاتٍ لِقَوْمٍ يَعْقِلُونَ ﴾[3] .

---

[1] الفرقان : الآية 47.

[2] الفخر الرازي التفسير الكبير ج 20 ص 164

[3] الجاثية: الآية 5

إن الطبيعة التي خلق عليها الإنسان تجعله يتحسس كل تغير يحدث في محيطه و بيئته ، فتغير مظاهر الحياة ينعكس بالضرورة على تكوينه الجسمي و النفسي فالإنسان الذي تعود العيش في مكان تشرق فيه الشمس باستمرار يختلف عن الإنسان الذي يتعرض لنسبة قليلة من أشعة الشمس، فتأثير مثل هذه الظواهر ، و انعكاسها على حياة الإنسان معروف منذ القدم غير أن تطور العلوم زاد من إيضاحها فابن خلدون على سبيل المثال يرى إن اختلاف نسبة الحرارة من مكان إلى آخر يغير في الأمزجة و السلوك و حتى الألوان ، في معرض حديثه عن نسبة لون السواد فيقول: « ...و القول بنسبة السواد إلى حام غفلة عن طبيعة الحر و البرد و أثرهما في الهواء و فيما يتكون فيه من الحيوانات ، وذلك أن هذا اللون شمل أهل الإقليم الأول و الثاني من مزاج هوائهم للحرارة ، المضاعفة بالجنوب فإن الشمس تسامت رؤوسهم مرتين في كل سنة ، قريبة إحداهما من الأخرى، فتطول المسافة عامة الفصول فيكثر الضوء لأجلها ، ويلّج القيظ عليهم ، و تسود جلودهم لإفراط الحرّ ، نضير الإقليمين مما يقابلهما في الشمال ، الإقليم السابع و السادس ، فشمل سكانها البياض من ميزاج هوائهم للبرد المفرط بالشمال إذا الشمس لا تزال بأفقهم دائرة مرأى العين أو ما قرب عنهما و لا ترتفع إلى مسامته و ما قرب منها فيضعف الحرّ و يشتد البرد عامة الفصول من ألوان اهلها و تنتهي إلى الزعرورة و يتبع ذلك ما يقتضيه مزاج البرد المفرط من زرقة العيون و برش الجلود و صهوبة الشعور...»[1] .

إن تعاقب الليل و النهار و اختلافهما من أعظم الأدلة الحسية على عظمة الخالق عز وجل و هي صورة حقيقية لسنة التداول ، فلولا تداول الليل و النهار ما تغيرت الحياة و لا تجددت الأشياء و لولا اختلافهما لما تنوعت مظاهر الحياة و لا ما اختلفت الأمزجة و تدافعت الأهواء ، فلا غرو إذن أن يدعوا الله الإنسان إلى ضرورة التفكر في هذه الآية وما ينتج عنها من أثر عميق على الإنسان، في العديد من مواضع القرءان منها : قوله تعالى:﴿ وَهُوَ الَّذِي جَعَلَ اللَّيْلَ وَ النَّهَارَ خِلْفَةً لِّمَنْ أَرَادَ أَنْ يَذَّكَّرَ أَوْ أَرَادَ

---

[1] عبد الرحمان بن خلدون المقدمة ص 84.

شُكُوراً﴾ [1] ، هذا التدبر و التفكر من شأنه أن يوصل الإنسان إلى معرفة الحقيقة الأزلية و الخروج من دوامة الشك الذي يتخبط فيه كلما زاغ عن الطريق، و ابتعد عن المنهج السليم فيوقفه هذا التدبر و التأمل على حقيقة هذه السنة و من ثم معرفة صانع الوجود.

إن تنوع مظاهر الطبيعة هو في حقيقة نتاج دورة فلكية تقطعها الأرض حول الشمس هذه الدورة هي التي تصنع ما يتعارف عليه الناس اليوم بالفصول الأربعة ، كما أن الحركة الدورية التي تقطعها الأرض حول الشمس هي السبب المباشر في تنوع مظاهر الحياة ، فتخضر الأرض حينا و تجدب حينا آخر ، وهكذا دواليك ، هذا التنوع ينعكس بالضرورة على الدورة الحياتية للكائنات الحية ، و الشيئ المؤكد أن جسم الإنسان و الحيوان على السواء ينموا بفعل المواد المستخلصة من محيطه و بيئته ولما كان الأمر كذلك فإن أي تغير في المحيط و البيئة يؤثر على حياة الإنسان النفسية والفيسيولوجية و الاجتماعية و حتى الأخلاقية ، لقد لا حظ دارسوا الحياة الإنسانية و الاجتماعية على وجه الخصوص تأثير المحيط و دوره في إيجاد الفروقات بين الشعوب و الأجناس ، و تبعا لذلك ميزوا العديد من الخصائص و الصفات أضحت علامة على جنس من الأجناس أو فئة من الفئات ، فبينوا خصائص و صفات الإنسان الذي يعيش في المناطق الصحراوية الحارة و خصائص و صفات الرجل الذي يعيش في المناطق القطبيةوالاستوائية و ما إلى ذلك فيرى ابن خلدون أن أهل البدو الذين يغلب على أغذيتهم طابعا معينا يختلفون عن الأقوام الذين يعيشون في مناطق خصبة و رغد من العيش، في أجسامهم و نباهتهم و أخلاقهم و لون بشرتهم ، بين ذلك في المقدمة الخامسة من كتابه المقدمة تحت عنوان " في اختلاف أحوال العمران في الخصب و الجوع و ما ينشأ عن ذلك من الآثار في أبدان البشر و أخلاقهم"[2] ، معتمدا في نظريته هذه على ما لاحظه من اختلاف في سلوك الحيوانات التي دجنها الإنسان ، لأن سلوكها في مواطنها الأصلية يختلف عنه في المواطن التي صنعها لها الإنسان...

---

[1] الفرقان الآية: 62

[2] عبد الرحمان ابن خلدون المقدمة ص 78، 79.

إن تدول الظواهر الكونية في حياة الإنسان يتولد عنه بالضرورة تكرار الظواهر النفسية و الاجتماعية، لا سيما وقد اتضح الأثر البارز لهذه الظواهر في صياغة المزاج النفسي و التركيب الفيسسولوجي للإنسان و من ثم صناعة الظواهر الاجتماعية و الحضارية ، إن ديمومة هذه الظواهر الكونية ينتج عنه بالضرورة ديمومة الأثار المترتبة عنها و لا سلطان للإنسان في تغير الظواهر الكونية لأنها ستظل تشعره دوما بعجزه و عدم قدرته و افتقاره دوما لرحمة الله و لهديه ، و سيظل الإنسان يرنوا إلى السماء بعينيه يرقب حركة الأجرام السماوية و يتابع عن كثب حركة الشمس و القمر ليكتشف بين الحين و الآخر بعض ما تحمله معاني الآية الكريمة:﴿ هُوَ الَّذِي جَعَلَ الشَّمْسَ ضِيَاءً وَالْقَمَرَ نُورًا وَ قَدَّرَهُ مَنَازِلَ لِتَعْلَمُوا عَدَدَ السِّنِينَ وَالْحِسَابَ مَا خَلَقَ اللَّهُ ذَلِكَ إِلاَّ بِالْحَقِّ نُفَصِّلُ الآيَاتِ لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ إِنَّ فِي اخْتِلاَفِ اللَّيْلِ وَ النَّهَارِ وَمَا خَلَقَ اللَّهُ فِي السَّمَاوَاتِ وَ الأَرْضِ لآيَاتٍ لِقَوْمٍ يَتَّقُونَ ﴾ [1]

خامسا : الظواهر النفسية

إن الطبيعة المزدوجة التي خلق عليها الإنسان –الروح و الجسد – تجعل من بقائه على وتيرة واحدة و نسق معين مدة من الزمن أمرا مستعصيا ، بل يكاد يكون مستحيلا ، فمحبته للتغير و تبديل الأجواء و كسر- الروتين- سمة بارزة في جميع شؤونه ، فهو لا يكاد يتخذ شكلا من الأشكال ، أو وضعا من الأوضاع حتى ينسخه بوضع جديد و هيئة مغايرة ، فكلما تهيأت له الظروف و سنحت له الفرصة غير و بدل و هكذا دواليك ..

إن مزاج الإنسان المتقلب يعود في حقيقة الأمر إلى الطبيعة التي جبل عليها و بقدر كبير إلى عوامل البيئة و المحيط ، هكذا أراد الله للإنسان أن يكون وهي مشيئته التي لا ترد ، فلم يجبله على أن يكون خيرا صرفا كما لم يجبله على أن يكون شريرا صرفا ، أراد الله للإنسان أن يتخذ ، هذا الوضع أو ذاك ، و منحة القدرة و الحرية على الاختيار ، إن تاريخ الإنسان و مسيرته هي صورة صادقة عن التذبذب الذي أصاب تركيبته النفسية و الذهنية كما أن رغبات الإنسان و ميوله لا تعد إلا أن تكون تعبيرا عن التغير و التبدل الذي طبع عليه ، و من ثم فالحياة بغير هذا المفهوم لن يكون لها أي معنى كما أن اليوم الآخر تقرره الأديان و على رأسها الإسلام لا مبرر له إطلاقا إذ لم تختلف الرغبات و تتصادم الميولات و يتصف هذا بالخير و ذلك بالشرير ، أو بالإحسان و الإساءة و غير ذلك من الأوصاف ، إن قول الرسول ﷺ:« وَ الَّذِي نَفْسِي بِيَدِهِ لَوْ لَمْ تُذْنِبُوا لَذَهَبَ اللَّهُ بِكُمْ وَ لَجَاءَ بِقَوْمٍ يُذْنِبُونَ فَيَسْتَغْفِرُونَ اللَّهَ فَيَغْفِرُ لَهُمْ » [2] يشير إلى الطبيعة الإنسانية المتقلبة ، يعلق صاحب

---

[1] يونس : الآية 5-6

[2] مسلم بن الحجاج صحيح مسلم : كتاب التوبة مج4 ح رقم 12 ص: 2106

التحفة على هذا الحديث بقوله :« لم يكن ليجعل العباد شأنا واحدا كالملائكة مجبولين على التنزه من الذنوب بل يخلق فيهم من يكون بطبعه ميالا إلى الهوى متلبسا بما يقتضيه ثم يكفله التوقي عنه و يحذره من حداثانه و يعرفه التوبة بعد الإبتلاء ، فإن رضي فأجره على الله و إن أخطأ الطريق فالتوبة بين يديه فأراد "ص" به أنكم لو كنتم مجبولين على ما جبلت عليه الملائكة لجاء الله بقوم يأتي منهم الذنب فيتجلى عليهم بتلك الصفات من مقتضى الحكمة ....»[1] .

إن الحركة الدورية لمظاهر الخير و الشر ، الحق و الباطل ، الإيجابية و السلبية، من المفترض أن تدفع بالإنسان إلى التفاؤل و الأمل ، وتشحنه بعزيمة متجددة و تمده بكل أسباب الحياة فتعاليم الإسلام تجسد هذه المعاني بوضوح ، و تدفع بالمسلم دوما إلى تجديد العهد بالله كلما طفحت به نوازع الشر ، عن جادة الصواب ، وتشحنه بكل العناصر الإيجابية التي تدفعه إلى تغيير و تبديل أوضاعه نحو الأحسن و الأفضل، إن قول الله تعالى :﴿ إِنَّ الْحَسَنَاتِ يُذْهِبْنَ السَّيِّئَاتِ ذَالِكَ ذِكْرَىٰ لِلذَّاكِرِينَ . . . ﴾ [2] وَقَوْلَه : ﴿ إِدْفَعْ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ السَّيِّئَةَ...﴾[3] و قوله -ص- : « واتْبِعِ السَّيِّئَةَ الحَسَنَةَ تَمْحُهَا وَ خَالِقِ النَّاسَ بِخُلُقٍ حَسَنٍ»[4] ، و غيرها من التعاليم تجسد بحق الطابع العملي لهذه السنة، هذا من جانب و تقرر من جانب آخر إنسانية و واقعية الإسلام ، لأنه و بكل موضوعية يراعي ظروف الإنسان و حالاته النفسية و مزاجه المتقلب إن موقف الرسول -ص- مع حنظلة - رضي الله عنه- تأكيد لهذه المعاني ، يقول حنظلة - رضي الله عنه - :« لقيني أبابكر فقال كيف أنت ياحنظلة ؟ قال : قلت نافق حنظلة ، قال سبحان الله ما تقول ؟ قال : قلت نكون عند رسول الله -ص- يذكرنا بالنار و الجنة حتى كأنا نراها رأى العين ، فإذا خرجنا من عند رسول الله -ص- -عافسنا - الأزواج و الأولاد فنسينا كثيرا ، قال أبا بكر : فوالله

---

(1) عبد الرحيم المبار كفوري تحفة الأحوذي بشرح جامع الترميذي مج7 دار الفكر ، بيروت لبنان ص 228

(2) هود : الآية 114.

(3) المؤمنون : الآية 96.

(4) الدارمي سنن الدارمي مج 2 كتاب الرقائق باب حسن الخلق دار الفكر بيروت لبنان ص 323

إنا لنلقى مثل هذا ، فانطلقت أنا و أبا بكر حتى دخلنا على رسول الله -ص- فقلت نافق حنظلة يارسول الله -ص- قال : و ما ذاك فقلت : يارسول الله نكون عندك تذكرنا بالنار و الجنة نراها رأي العين فإذا خرجنا من عندك عافسنا الأزواج و الأولاد و الضيعات فنسينا كثيرا فقال رسول الله -ص- : « وَ الَّذِي نَفْسِي بِيَدِهِ إِنْ لَوْ تَدُومُونَ عَلَى مَا تَكُونُونَ عِنْدِي فِي الذِّكْرِ لَصَافَحَتْكُمُ الْمَلَائِكَةُ عَلَى فُرُشِكُمْ وَفِي طُرُقِكُمْ ، وَلَكِنْ يَا حَنْظَلَةُ سَاعَةً وَسَاعَةً ثَلَاثَ مَرَّاتٍ »[1] .

إن بقاء الإنسان على وتيرة واحدة من الصعوبة بمكان ومن ثم لم يعاتب النبي -ص- حنظلة و إنما أرشده إلى سنة الله بما يوافق الطبيعة البشرية التي جبل عليها الإنسان ، فثمة جملة من الظواهر النفسية و السيكولوجية ظلت تتعاقب الإنسان و تتداول حياته النفسية حتى غدت محل متابعة و معاينة من قبل دارسي العلوم النفسية و الإجتماعية تحت عناوين شتى و طرق مختلفة من هذه الظواهر : "القلق الغضب ، التسلط ، العظمة....إلخ" و الحقيقة أن هذه الظواهر ليست و ليدة اليوم و لا نتاج المنجزات التكنولوجية للحضارة الحديثة ، و إنما هي ظواهر صاحبت الإنسان منذ الأزل إن لم نقل تنبع من الإنسان أساسا ، فهي لا تظهر للوجود إلا إذا توفرت أسبابها و مسبباتها ، و تهيأت لها كل الظروف فاختفاؤها و تواريها عن الأنظار لا يعني زوالها أو عدم وجودها ، فلو أخذنا على سبيل المثال ظاهرة جنون العظمة كعينة للظواهر النفسية و عادة ما يشار إلى "هتلر و موسوليني" كعينة لهذه الظواهر نجد أنها لم تكن استثناء و لا أمرا شاذا في تاريخ الإنسان إذا برزت في صور متعددة و أشكال مختلفة .

إن شخصية فرعون في القرءان الكريم هي النموذج البارز لهذه الظاهرة كما أن قوم عاد و بني اسرائيل نموذجا آخر لها و لكن في شكلها الاجتماعي ، فشعور الفرد أو الجماعة بالعظمة و التسلط و ترفعها و احتقارها للشعوب الأخرى تحت أي حجة كانت شكل من أشكال هذه الظاهرة و ما تمارسه الحضارة الحديثة من ألوان التسلط

---

[1] مسلم بن الحجاج صحيح مسلم مج4 كتاب التوبة ح رقم 12 ص 2106

و العظمة و الكبرياء و الإحتقار للشعوب الأخرى هي ذات الظاهرة التي ميزت مجتمعات عاد و ثمود و بني اسرائيل .

إن تداول مثل هذه الظواهر في واقع الناس يعود في أصله إلى جملة الغرائز التي جبل عليها الإنسان ، فغريزة التملك و السيطرة و حب الذات هي التي تجعل مثل هذه الظواهر تظهر بين الحين و الآخر ، بل ثمة ظواهر أخرى تتكرر في اليوم الواحد أكثر من مرة كالغضب و القلق و غيرها من الظواهر فتداولها في حياة الإنسان و واقعه مشروطة بأسبابها و مسبباتها، و من ثم ندرك المغزى من وصية النبي -ص - للرجل الذي طلب الوصية بقوله :« لَاتَغْضَبْ»[1] و كررها مرار .

**سادسا : الظواهر الإجتماعية :**

رغم التطور المعرفي الذي يشهده المجتمع الإنساني و التشعب و التعقيد و التنوع الذي بلغه إلا أنه ظل يعرف الظواهر ذاتها التي عرفها أسلافه ، و يحلم بتحقيق المثل و الغايات التي سعى أجداده و أسلافه لتحقيقها ، كما أنه ظل يتخبط في ذات المشاكل و يسعى لإيجاد ذات الحلول و كلما خيل إليه أنه اكتشف أو كشف عن سرّ من الأسرا ر أو حل لمعضلة من المعضلات تبين له في نهاية المطاف أن المشكلة لا زالت قائمة ، و الظاهرة لا زالت مستمرة ، فمشكلة الحرية و المثل الأعلى و ظاهرة الإجرام والنخاسة و التعصب ... نماذج من المشاكل و الظواهر التي ظلّت تتعاقب الإنسان و تقض مضجعه .

فتاريخ الإنسانية إنما هو خلاصة لتجارب الإنسان في تعامله مع هذه الظواهر ، والحقيقة أن تداول مثل هذه الظواهر يعود في اصله إلى جوهر الإنسان الذي بقي على حاله و لم يتغير إطلاقا ، فحركته بين مطامح الروح و الجسد هي التي تجعل مثل هذه الظواهر واقعا ملموسا و حقيقة مشهودة ، و إن اختلفت الأعصر و تنوعت المظاهر و الأشكال ، إن القرآن الكريم في عرضه لتجارب الماضين يشير إلى تداول

---

[1] محمد بن اسماعيل البخاري صحيح البخاري مج8 كتاب الأدب ح رقم 40 ، و ابو داوود في باب السنة ح رقم 17 و الترميذي في البر ح رقم 73

و تكرار مثل هذه الظواهر في حياة الإنسان الحاضرة و المستقبلة و يدعو إلى ضرورة التأمل و العضة و الاعتبار في العديد من آياته.

**أ – ظاهرة الشرك :**

القرءان الكريم يقرر بما لا يدع مجال للشك أن عقيدة التوحيد فطرة في الإنسان منذ الأزل ، و الأدل على ذالك قوله تعالى : ﴿ وَإِذْ أَخَذَ رَبُّكَ مِنْ بَنِي ءَادَمَ مِنْ ظُهُورِهِمْ ذُرِّيَّاتِهِمْ وَأَشْهَدَهُمْ عَلَىٰ أَنفُسِهِمْ أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ قَالُوا بَلَىٰ شَهِدْنَا أَنْ تَقُولُوا يَوْمَ الْقِيَامَةِ إِنَّا كُنَّا عَنْ هَٰذَا غَافِلِينَ أَوْ تَقُولُوا إِنَّمَا أَشْرَكَ آبَاؤُنَا مِنْ قَبْلُ وَكُنَّا ذُرِّيَّةً مِنْ بَعْدِهِمْ أَفَتُهْلِكُنَا بِمَا فَعَلَ الْمُبْطِلُونَ ﴾ [1] و يؤكد الرسول –ص– هذا المفهوم في العديد من أحاديثه منها قوله –ص– : « مَا مِنْ مَوْلُودٍ إِلاَّ وَيُولَدُ عَلَى الْفِطْرَةِ فَأَبَوَاهُ يُهَوِّدَانِهِ أَوْ يُنَصِّرَانِهِ أَوْ يُمَجِّسَانِهِ » [2] ، و في حديث آخر قوله : « ...وَإِنِّي خَلَقْتُ عِبَادِي حُنَفَاءَ كُلَّهُمْ وَإِنَّهُمْ أَتَتْهُمُ الشَّيَاطِينُ فَاجْتَالَتْهُمْ عَنْ دِينِهِمْ وَحَرَّمَتْ عَلَيْهِمْ مَا أَحْلَلْتُ لَهُمْ وَأَمَرَتْهُمْ أَنْ يُشْرِكُوا بِي مَا لَمْ أُنَزِّلْ بِهِ سُلْطَانًا ... » [3] يعلق النووي على هذا الحديث بقوله : « أي منيبين ، و قيل طاهرين من المعاصي و قيل مستقيمين منيبين لقبول الهداية و قيل المراد حين أخذ العهد في الذر ﴿ وَقَالَ أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ قَالُوا بَلَىٰ ﴾ و أنهم أتتهم الشياطين أي استخفوهم فذهبوا بهم و أزاغوا بهم عما كانوا عليه و جابوا معهم في الباطل » [4] . غير أن المتتبع لتاريخ البشرية يلحظ أن ظاهرة الشرك ظلت تصاحب الإنسان في حله و ترحاله في مجتمعاته الحضرية و البدوية ، و الشيء الملفت للإنتباه أيضا أن القرءان الكريم في عرضه لهذه المجتمعات يشير إلى هذه الظاهرة باستمرار فهو يشير إليها حينما يعرض لقوم نوح باعتبارهم أول المجتمعات البشرية على وجه الأرض في قوله تعالى : ﴿ وَقَالُوا لَا تَذَرُنَّ آلِهَتَكُمْ وَلَا تَذَرُنَّ وَدًّا وَلَا سُوَاعًا ، وَلَا يَغُوثَ وَيَعُوقَ وَنَسْرًا ... ﴾ [5] و يشير إليها عند ذكره لأقوام عاد و ثمود و قوم إبراهيم و أصحاب مدين و يعرض إليها عند ذكره لبني إسرائيل و عرب الجزيرة في

---

[1] الأعراف : الآية 172-173 .

[2] مسلم بن الحجاج صحيح مسلم مج4 كتاب القدر ح رقم 22 ص : 2047 و البخاري في كتاب الجنائز ح رقم 139.

[3] محي الدين النووي شرح صحيح مسلم مج9 ، ج7 دار الفكر سنة 1981 بيروت لبنان ص 197

[4] محي الدين النووي شرح صحيح مسلم مج9 ، ج7 دار الفكر سنة 1981 بيروت لبنان ص: 197

[5] نوح : الآية 23

العديد من الآيات منها : ﴿ وَجَاوَزْنَا بِبَنِي إِسْرَائِيلَ الْبَحْرَ فَأَتَوْا عَلَىٰ قَوْمٍ يَعْكُفُونَ عَلَىٰ أَصْنَامٍ لَّهُمْ ۖ قَالُوا يَا مُوسَى اجْعَل لَّنَا إِلَٰهًا كَمَا لَهُمْ آلِهَةٌ ۚ قَالَ إِنَّكُمْ قَوْمٌ تَجْهَلُونَ ﴾ (1) ، ﴿ أَفَرَأَيْتُمُ اللَّاتَ وَالْعُزَّىٰ وَمَنَاةَ الثَّالِثَةَ الْأُخْرَىٰ ﴾ (2) . المؤكد أن عقيدة الشرك غريبة عن منطق العقل و جوهر الإنسان إلا أن السؤال الذي يتبادر للذهن ، ما السبب الذي جعل هذه الظاهرة تزاحم الفطرة وتقف ندا لعقيدة التوحيد و تشاركها في قيادة الإنسان و المجتمع؟ .

إن التدين غريزة في الإنسان غير أن التعبير عن هذه الغريزة اتخذ مسالك متعددة و أطر مختلفة منها ما كان موافقا لما جاءت به الأديان السماوية و منها ما كان من صنع و انتحال الإنسان سواء أكان من وحي خياله أو ما ألهمت عناصر الطبيعة مخيلة الإنسان .

ففطرة التدين هذه يشترك فيها جميع الناس، يشترك فيها الإنسان البدوي والحضري، والمتمدن والمتخلف، الساكن في الحواضر والذي يقطن الغابات ... وهي غريزة خالدة في الإنسان هذه حقيقة أكدها علماء الإنسان والحياة الاجتماعية. " إن الغريزة الدينية مشتركة بين كل الأجناس البشرية حتى أشدها همجية ، وأقربها إلى الحياة الحيوانية ... وإن الاهتمام بالمعنى الإلهي وبما فوق الطبيعة هو إحدى النزعات العالمية الخالدة .. ويقول : إن هذه الغريزة الدينية لا تختفي بل تضعف ولا تذبل إلا في فترات الإسراف في الحضارة وعند قليل جدا من الأفراد " (3)

أما التعبير عن هذه الغريزة وهذه الفطرة فتتحكم فيه جملة من العوامل كالبيئة والمحيط وهو الجانب الذي يمكن أن نتخذه ميدانا للدراسة والبحث والتنقيب ويجوز أن نطلق عليه وصف الظاهرة لأنه يختلف من مكان إلى آخر في شكل المعبود وطرق العبادة.

هذا الجانب هو المراد من دعوة القرآن الكريم الإنسان للوقوف على آثار الماضي وهذا لأجل معرفة أسباب الانحراف أو التي أدت بهؤلاء وأولئك إلى عبادة هذا الصنم أو هذا الكوكب أو ذاك الحيوان وما إلى ذلك من العبر.

إن الأديان السماوية رغم الاختلافات المتواجدة فيما بينها فإنها ترتفع عن مفهوم الظاهرة الاجتماعية ، اللهم إلا التي اعتراها التحريف و التزيف ودخلتها الوثنية من غير وجه ، و الحقيقة أن أسباب الانحراف عديدة و لعل أهمها :

---

(1) الأعراف : الآية 138

(2) النجم : الآية 19-20

(3) عبد الله الدراز الدين دار القلم ط/1 سنة 1990 ص82،83

أن الانغماس في ملذات الحياة و تتبع رغائب النفس و شهوات الجسم يعطي للشيطان مجالا واسعا في التزيين و الاغواء و كبت كل نداء لليقضة و الحذر ينبع من داخل الإنسان و هو الدور الرئيسي الذي أقسم لأجله إبليس بين يدي الله أن يقوم به مثلما يوضحه قوله تعالى : ﴿ قَالَ أَرَأَيْتَكَ هَذَا الَّذِي كَرَّمْتَ عَلَيَّ لَئِنْ أَخَّرْتَنِي إِلَىٰ يَوْمِ الْقِيَامَةِ لَأَحْتَنِكَنَّ ذُرِّيَّتَهُ إِلَّا قَلِيلًا ، قَالَ اذْهَبْ فَمَنْ تَبِعَكَ مِنْهُمْ فَإِنَّ جَهَنَّمَ جَزَاؤُكُمْ جَزَاءً مَوْفُورًا ﴾ (1) كما أن الابتعاد عن جوهر العقيدة و ابتداع طرق للعبادة غير مشروعة يعمل الزمن على تكريسها شيئا فشيئا إلى أن تحل محل الشرائع الصحيحة فيحدث الانحراف و يتوجه الناس بالعبادة و الدعاء لغير الله كما حدث لقوم نوح و عرب الجزيرة و غيرهم من الأجناس؛ إن مثل هذه الدراسات تجعل المسلم في حالة استنفار دائمة لمحاربة هذه الظاهرة و خاصة و أنها فتكت بالكثير من الأمم و الحضارات و الشيء الأكيد أن ظاهرة الشرك تظل تصاحب الإنسان ، غير أنها تغير من شكلها و هيأتها حتى تبدو و كأنها أمرا مستحدثا ، فعبادة الشيطان و الأرواح و غيرها من أضرب الشرك التي انتشرت في المجتمعات الغربية ، لا تعد إلا أن تكون صورة مكررة لكثير من أشكال و طقوس العبادة التي مارستها أقوام بائدة أو قبائل منتشرة في الأدغال و الاحراش ممن لا يعرفون ديانة أو لم يبعث إليهم نبي ، يقول المؤرخ أحدهم: « إن أخطر كارثة يواجهها العالم اليوم أن الجماهير خصوصا الغربية قد استعاضت عن الفراغ الديني باديولوجيات لا تفترق عن الأديان البدائية من حيث وثنيتها . حيث عبادة الذات وإن تسترت تحت ستار القومية أو الإشتراكية متمثلة في تأليه الدولة أو الحاكم...[2].

**ب – ظاهرة المشاعة الجنسية :**

غريزة الجنس من أعظم الغرائز التي فطر الله عليها الإنسان إن لم تكن أعظمها على الإطلاق ، هي الغريزة التي جعلها الله سببا في عمارة الأرض و استمرار الوجود الإنساني عليها ، هذا الذي يجعل تلبيتها أمرا مشروعا و حقا طبيعيا ، غير أن طريقة تلبية هذه الغرائز هي التي تجعل منها أداة للعمارة و البناء أو تجعل منها معول هدم ودمار .

إن التزاوج بين الذكر و الأنثى هو الإطار الصحيح و السليم الذي يتم على مستواه تلبية دواعي الغريزة الجنسية ، و لأدل على ذلك الميل الفطري المغروس في

---

(1) الإسراء : الآية : 62، 63 ، 64

(2) أحمد محمد صبحي في فلسفة التاريخ دار المعرفة الجامعية ط/1 سنة 1995 ، مصر ، ص 280.

الرجل تجاه المرأة و المرأة تجاه الرجل و كل قضاء لهذه الغريزة خارج هذا الاطار لا يحقق الهدف و الغاية التي من أجلها ركب الله في الإنسان هذه الغريزة فلا غرو إذ نجد أن النصيب الأوفر من الأحكام التي جاءت في القرءان تتعلق بتنظيم هذه الغريزة ، و مما يلفت انتباهنا موضوعين رئيسين يندرج فيها كل الأحكام و هما الزواج و الطلاق و ما يترتب عليهما.

إن نظام الزواج في حقيقة الأمر ، ليس حكرا على المجتمع الإسلامي ، بل هو نظام متعارف عليه بين بني البشر جميعا ، سواء التي تدين بدين سماوي أو من وضع الإنسان ، مما يذكي الإعتقاد أن الزواج كنظام مركوز في جبلة الإنسان، و لذلك فهو في نظر المجتمعات الإنسانية رمز للعفاف و الطهور ، و تحمل الأعباء ، بغض النظر عن الطرائق التي تتم فيها هذه العلاقة ، كما أن أي ممارسة لهذه الغريزة خارج هذا النظام يلقي كل أنواع الأزدراء بل يوصف بالشذوذ في مجتمعات عدة كالمجتمع الإسلامي مما يدل على أن الفطرة البشرية لا تنسجم إطلاقا مع أي ممارسة لهذه الغريزة بعيدا عن هذا النظام، و لعل هذا هو السر الذي جعل قصة لوط مع قومه تأخذ مساحات واسعة من الآيات القرءانية و ذكرت في العديد من السور كالأنعام و الأعراف ، و هود ، و الشعراء ، و النمل ...

إن مجتمع لوط لم يكن كغيره من المجتمعات الإنسانية إذ أنه إبتكر طريقة مبتدعة في تلبية دواعي الغريزة فلم يعد الرجل مطمح امرأة و لا المرأة مطمح الرجل فاكتفى فيه الرجال بالرجال حتى غدا سلوكا اجتماعيا يصبغ الحياة اليومية لكل أفراده بل أصبح لوط نفسه شاذ عن عرف المجتمع و قانونه مما تطلب إخراجه و الحكم عليه بالنفي و الإبعاد مثلما تبرزه هذه الآيات القرءانية

﴿ وَلُوطًا إِذْ قَالَ لِقَوْمِهِ أَتَأْتُونَ الْفَاحِشَةَ مَا سَبَقَكُم بِهَا مِنْ أَحَدٍ مِنَ الْعَالَمِينَ إِنَّكُمْ لَتَأْتُونَ الرِّجَالَ شَهْوَةً مِّن دُونِ النِّسَاءِ بَلْ أَنتُمْ قَوْمٌ مُّسْرِفُونَ وَمَا كَانَ جَوَابَ قَوْمِهِ إِلَّا أَن قَالُوا أَخْرِجُوهُم مِّن قَرْيَتِكُمْ إِنَّهُمْ أُنَاسٌ يَتَطَهَّرُونَ ﴾ [1].

إن سلوكا من هذا القبيل هو في حقيقته خروج عن منطق العقل و الدين و ينمي عن انحراف في التصور و انفصام في الشخصية مما نتج عنه ظاهرة فريدة من نوعها لم تعرف البشرية نضيرا لها ، إن ظاهرة مثل هذه شاذة عن منطق الفطرة وحقيقة الوجود الإنساني فهي حتما أيلة للزوال .

صادم مجتمع لوط سنن الله في سلوكه فحكم على نفسه بالدمار و الخراب فلم تلبث أن أخذه الله أخذ عزيز مقتدر و خسف الله بهم الأرض كما ورد ذلك في القرءان الكريم : ﴿ فَأَنجَيْنَاهُ وَأَهْلَهُ إِلَّا امْرَأَتَهُ قَدَّرْنَاهَا مِنَ الْغَابِرِينَ وَأَمْطَرْنَا عَلَيْهِم مَّطَرًا فَسَاءَ مَطَرُ الْمُنذَرِينَ ﴾ [2] .أضحى سلوك هذا المجتمع مضرب الأمثال و مصيره مصير كل مجتمع أو جماعة تنتهج نهجه أو تقفو أثره ، كما أضحى انتشار هذه الظاهرة و كل سلوك يدل عليها نذير شؤم لأي مجتمع و علامة من علامات أفول نجمه ، إن قوله -ص- :« ما ظهر الغلول في قوم إلا ألقي في قلوبهم الرعب و لا فشا الزنى في قوم إلا كثر فيهم الموت ، و لا نقص قوم المكيال و الميزان إلا قطع عنهم الرزق ، و لا حكم قوم بغير الحق إلا فشا فيهم الدّم ، ولا خفر قوم بالعهد إلا سلط الله عليهم العدّو» [3] ، تأكيد على عموم هذه الظاهرة و تكرارها في حياة الإنسان كما أن استعمال الرسول -ص- لكلمة فشا يؤكد على انه لا يمكن أن تكون هذه ظاهرة اجتماعية إلا إذا عمل الإنسان على تكريسها وفرضها كعرف اجتماعي و سلوك طبيعي فهو بلا ريب إنقلاب في مفاهيم

---

[1] الأعراف: الآية 80،81،82

[2] النمل : الآية 57،58

[3] مالك بن أنس الموطأ كتاب الجهاد ح رقم 26 دار الكتب المصرية و نسخة ص 2 ص 446

و التصورات يؤدي حتما إلى نهاية أي مجتمع تكرست فيه هذه الظاهرة بشتى الصور و الأساليب كما حدث لقوم لوط و غيره من المجتمعات الإنسانية .

إن ظاهرة المشاعة الجنسية أو الإنحلال الخلقي الذي يمخر المجتمعات الغربية الحديثة، ليست و ليدة اليوم ، و إنما هي ظاهرة تسود أي مجتمع إذا أوجد أسبابها و مسبباتها فعرفتها مجتمعات و حضارات سابقة كما تدل على ذلك سجلات التاريخ عرفتها مجتمعات اليونان و روما ، وبزنطة وعرفها المجتمع العربي في صورة قوم لوط و العديد من المجتمعات الأخرى الحديثة منها و القديمة و من ثم فهي ظاهرة تتكرر بأسبابها و مسبباتها و عللها و معلولاتها .

إن استقراً التاريخ يؤكد هذا المعنى و يجعل منها ظاهرة تكاد تصاحب المجتمع الإنساني يقول الأستاذ عبد الحميد صديقي :« كانت العلاقة الجنسية في أشد عصور التاريخ الإنساني بداءة تشبه علاقة الحيوانات شبها تماما ، وكان كل امرئ يتمتع بالحرية الكاملة في إشباع نهمه الجنسي من الفرد ذي الجنس الآخر و مرت الأزمان فظهر نظام الأسرة في المجتمع و نشأ معه نظام الزواج الذي فرض قيود كثيرة على الحرية التي كانت موجودة ، ثم ازدادت الأسرة مع الأيام قوة ، ولكنها أصيبت بعد مدة بنكسة خطيرة و كان هذا أيضا على يد فيلسوف لا يقل وزنه عن أفلاطون ، الذي اقترح أن يجمع الأصحاء من الرجال و النساء في مكان واحد و يسمح لهم بالإتصال الجنسي و كان يعتقد انه بهذه الظاهرة سوف لن يقصر الأطفال حبهم على رجل أو إمرأة معينين ، بل سيرتبطون بالجيل كله و بالدولة برباط الحب ارتباطا أبديا و لم يمض زمن حتى ظهرت للناس النتائج القتالة لهذا العمل السخيف فحاولوا أن يقووا نظامي لزواج و العائلة ...»[1] .

و نموذج آخر للإنحلال الخلقي الذي ميز الأمة الشرقية في شكل المجتمع الهندي و المشاعة الجنسية التي سادته في فترة من الفترات يقول الأستاذ أبو الحسن الندوي : « ... و أما الشهوة الجنسية فقد امتازت بها ديانة الهند منذ العهد القديم فلعل المواد

---

[1] عبد الحميد الصديقي تفسير التاريخ ترجمة كاظم الجوادي دار القلم ط/1 سنة 1980 الكويت ص 42-43.

الجنسية و المهيجات الشهوانية لم تدخل في صميم ديانة بلاد مثل ما دخلت في صميم الديانة في البلاد الهندية و قد تناقلت الكتب الهندية و تحدثت الأوساط الدينية ... أن رجال بعض الفرق الدينية كانوا يعبدون النساء العاريات و النساء يعبدون الرجال العراة و كان كهنة المعابد من كبار الخونة و الفساق الذين كانوا يرزؤون الراهبات و الزائرات في أعز ما عندهن ، وقد أصبح كثير من المعابد مواخير يترصد فيها الفاسق لطلبته ، وينال فيها الفاجر بغيته ، وإذاكان هذا شأن البيوت التي وضعت للعبادة و الدين فما ظن القارئ ببلاط القصور و الأغنياء ...»[1] إن صورة بزنطة و روما و غيرها من المجتمعات الأخرى لا تقل عن الصورة التي قدمناها عن الهند و اليونان و بشيئ من التفاوت المجتمع العربي .

إن ظاهرة المشاعة الجنسية و غيرها من الظواهر الشبيهة لها و التي تشيع الفاحشةو تقنن للإنحلال الخلقي لا تعد غريبة عن الإنسان بقدر ما هي ظواهر من وضع الإنسان ، هذه المشاعة الجنسية هي التي جعلت المجتمع الفرنسي يركع تحت أقدام الجيش النازي و هي التي دفعت بزعيم الشيوعية لينين ليعود إلى تنظيم و تقييد الممارسة الجنسية و العودة إلى العمل بنظام الأسرة و محاولة القضاء عل الفكرة التي ألقيت على الناس في الأيام الأولى للثورة و التي تقول :«إن الإتصال الجنسي عمل طبيعي كالأكل تماما و ليس فيه شيئ ينتقد اكثر من تناول قدح ماء عند العطش و أصبحت الإلتزامات الاجتماعية الناتجة عن العلاقة الجنسية هي نظرة الحزب الشيوعي و المجتمع السوفياتي »[2] .

و في الشق الاخرمن العالم الغربي تعالت صيحات علماء اللهوت و الأخلاق العارفين بتاريخ الاجتماع البشري و سنة التداول و سير الظواهر الاجتماعية بضرورة العودة إلى أصول الأخلاق و تقيد ممارسة العلاقات الجنسية في حدود ماتقرره الأديان.

---

[1] أبو الحسن علي الحسيني الندوي ماذا خسر العالم بانحطاط المسلمين د ر الشهاب ط/5 الجزائر سنة 1987 ص : 71

[2] عبد الحميد صديقي تفسير التاريخ (مرجع سابق ) ص: 43.

إن الأمراض المستعصية التي يتخبط فيها المجتمع الحديث ماهي إلا أعراض و نتائج لما يعيشه هذا المجتمع من انحلال أخلاقي و مشاعة جنسية جعلت الأطباء و علماء النفس يدّقون ناقوس الخطر عن مصير الإنسان الحديث و عن حضارته التي ظل زمنا يفتخر بها .

إن التقارير التي تنشرها مراكز البحث و المصحات تشير إلى أن الحضارة الغربية تسير إلى ذات المصير الذي سارت إليه كل المجتمعات التي سادتها ظاهرة المشاعة الجنسية و ثقافة حرية الممارسة الجنسية و لعلّ مرض العصر " الأيدز" هي القطرة التي أفاضت الكأس، و من التقارير التي لفتت الإنتباه ما ورد عن مراكز مراقبة الأوبئة الأمريكي فيقول : « علينا جميعا أن نفهم أنه يجب علينا أن نغير من نمط حياتنا و يجب أن يسمع الجميع هذه الرسالة بأن اسلوب الممارسة الجنسية الصحي و الشرعي هو الوحيد الذي يجب أن يوجد في حياتنا و يكون شريكنا ، لأنه الذرع الواقي الوحيد من الإصابة بهذا الوباء اللعين»[1] ، يعلق الدكتور سليمان عمر قوشن على هذه النشرة العلمية بقوله :«...و لكن يبقى التحدي الرئيسي امام الحضارة المادية الغربية التي أمعنت في الإنحراف و الشذوذ و الإباحية ..هل ستستمر في هذا الطريق بدعوى الحفاظ على حرية الفرد ، وحقه في الاستمتاع الحيواني !!! فتضيف إلى انسانها الذي يئن تحت وطأة التمزق الاجتماعي و الضياع النفسي و الخواء الروحي و كابوس الحرب النووية ... تضيف خطر " الأيدز" الذي يهدده بالموت الوخيم ... أم انها ستستجيب لصيحات الخطر و الانذار الداعية لانهاء عصر الاباحية الجنسية بعد أن تأكد لها أن الطهر و العفاف ضرورة حيوية و صحية كما انها ضرورة اخلاقية و اجتماعية ...»[2] .

غير أن الواقع يؤكد أنها ستصير إلى نفس المصير الذي إنتهت إليه المجتمعات والحضارات التي سادتها ظاهرة المشاعة الجنسية و لم تجد نفعا هذه الصيحات بعد ما أصبح للشواذ حقوقا يظمنها القانون و لا يستحي أن يعترف ساسة عظام ينتمون إلى

---

(1) سليمان عمر قوشن الاكتشافات العلمية الحديثة و دلالتها في القرءان الكريم دار الحرمين ط/1 سنة 1987 الدوحة قطر ص 55.

(2) سليمان عمرقوشن (المرجع السابق) ص: 55.

دول هي رائدة الحضارة الحديثة في انتمائهم لجمعيات الشواذ و ممارستهم لهذا السلوك المهين، و قد طالعتنا الأنباء الواردة مصادقة مجلس العموم البريطاني و قبله السويدي عن قانون يعترف بالشواذ و يظمن لهم حقوقهم ، هي سنة الله التي لا تحابي أحدا أبدا .

## جـ - ظاهرة الترف :

إن ظاهرة الإنحلال الخلقي و المشاعة الجنسية هي في حقيقة الأمر نتيجة عن ظاهرة إجتماعية أخرى تسود و تفشو في أي المجتمع في فترة من الفترات ، و ذلك حينما تتغلب المادة ، وتفقد الروح سلطانها أمام سلطان الجسد فتحرر بذلك الغرائز و لم يعد للإنسان من هدف سوى إشباع نهمه وإرواء عطشه، وأنى يكون له ذلك إلا إذا فشت فلسفة الترف و البطر في المجتمع وأضحت سلوكا عاما ، والترف هو عنوان لكل مظاهر الفساد الاقتصادي و الاجتماعي و السياسي ، فتفشيه في مجتمع من المجتمعات يقضي على كل أنظمته بما فيها شبكة علاقاته الاجتماعية و يشل حركته الفكرية و المعرفية و هو بحق ظاهرة مدمرة للمجتمعات و الأمم و الحضارات ، إن استقرأ التاريخ بين لنا أنه السبب المباشر في زوال الكثير من الأمم و الحضارات ، و القرءان الكريم يشير إلى هذه الظاهرة المدمّرة في العديد من آياته منها قوله تعالى : ﴿ وَمَا أَرْسَلْنَا فِي قَرْيَةٍ مِنْ نَذِيرٍ إِلَّا قَالَ مُتْرَفُوهَا إِنَّا بِمَا أُرْسِلْتُمْ بِهِ كَافِرُونَ وَقَالُوا نَحْنُ أَكْثَرُ أَمْوَالًا وَأَوْلَادًا وَمَا نَحْنُ بِمُعَذَّبِينَ ﴾[1]، ﴿وَكَمْ أَهْلَكْنَا مِنْ قَرْيَةٍ بَطِرَتْ مَعِيشَتَهَا فَتِلْكَ مَسَاكِنُهُمْ لَمْ تُسْكَنْ مِنْ بَعْدِهِمْ إِلَّا قَلِيلًا وَكُنَّا نَحْنُ الْوَارِثِينَ ﴾[2]، ﴿ وَإِذَا أَرَدْنَا أَنْ نُهْلِكَ قَرْيَةً أَمَرْنَا مُتْرَفِيهَا فَفَسَقُوا فِيهَا فَحَقَّ عَلَيْهَا الْقَوْلُ فَدَمَّرْنَاهَا تَدْمِيرًا ﴾[3] يقول سيد قطب: « و المترفون في كل أمة هم طبقة الكبراء الناعمين الذين يجدون المال و يجدون الخدم

---

(1) سبأ: الآية 34-35.

(2) القصص : الآية 58.

(3) الإسراء : الآية 16

و يجدون الراحة ، فينعمون بالدّعة و السيادة ، حتى تترهل نفوسهم و تأمن ، وترتع في الفسق و المجانة و تستهتر بالقيم و المقدسات و الكرامات و تلغ في الأعراض و المحرمات و هم إذا لم يجدوا من يضرب على ايديهم عاثوا في الأرض فسادا و نشروا الفاحشة في الأمة و أشاعوا لها و أرخصوا القيم العليا التي تعيش الشعوب إلا بها ولها، ومن ثم تتحلل الأمة وتفقد حيويتها و عناصر قوتها و أسباب بقائها فتهلك و تطوى صفحتها»[1] .

اتخذ ابن خلدون من الترف معادلة حقيقية و قانونا صارما يحكم مصير المجتمعات و الدول ، و ما يترتب عن تفشيه من أمراض اجتماعية تقوض بنيان المجتمعات و تحطم الحضارات يقول ابن خلدون :«.. إن الترف و النعمة إذا حصل لأهل العمران دعاهم إلى مذاهب الحضارة و التعنق بعوائدها ، و الحضارة كما علمت هي التفنن في الترف و استجادة أحواله و الكلف بالصنائع ...و إذا بلغ التأنق في هذه الأحوال المنزلية الغاية تبعه طاعة الشهوات فتتلون النفس من تلك العوائد بألوان كثيرة لا يستقيم حالها معها في دنياها و لا دينها .. فلذلك يكثر الفسق و الشر والسفسفة و التحيل على تحصيل المعاش من وجه و من غير وجه فتجدهم أجرياء على الكذب و المقامرة و الغش و الخلابة و السرقة و الفجور في الأديان و الربا ...و إن كثر ذلك في المدينة أو الأمة تأذن الله بخرابها و انقراضها وهي معنى قوله تعالى : ﴿ وَإِذَا أَرَدْنَا أَنْ نُهْلِكَ قَرْيَةً أَمَرْنَا مُتْرَفِيهَا فَفَسَقُوا فِيهَا فَحَقَّ عَلَيْهَا الْقَوْلُ فَدَمَّرْنَاهَا تَدْمِيرًا ﴾[2] »[3]

إن الصياغة الصارمة التي قدمها ابن خلدون لقانون الترف هي في حقيقة الأمر خلاصة لتجارب الكثير من الأمم و الحضارات سادتها ظاهرة الترف و البطر فأصبحت أثرا بعد عين ، و أبرز شاهد لدينا حضارة الفراعنة و آثار الرومان و ما

---

[1] سيد قطب في ظلال القرءان مج5 ص 2217.

[2] الإسراء : الآية 16 .

[3] ابن خلدون المقدمة ص 372-373

خلفته الحضارة الفارسية ، إن أهرامات الحضارة الفرعونية ستظل شاهدة أبد الدهر على الترف الذي بلغته هذه الحضارة و عن الإذلال و الإفقار الذي كان يعيشه المجتمع الإسرائيلي يصف موريس بوكاي عظمة هذه الحضارة فيقول « إن المخيلة لا تعجز عن تقدير الجهد العظيم الذي بذلته في هذا العمل الجبار جماهير غفرة مسخرة ، ذكر هيرودسن ، إن بناء هرم خوفو إستغرق عشرين سنة كاملة بعد عشرة سنوات مكرسة للأعمال التحضيرية وحدها ، فهل يمكننا التحقق من هذه الأعداد ؟ و لكن ضخامة المجهود تفرض شيء آخر غير السوط في خدمة الكهرباء هو انسياق الشعب في معتقدات تدفع سيده بأن يلزمه بهذا القدر من المجهود ،والهرم هو مأوى القبر الأمين ... » [1] ، إن ما قاله موريس بوكاي بشأن الحضارة الفرعونية و انسياق الجماهير المصرية في خدمة فرعون في صورة من العبودية المطلقة هي بعض ما توحي به الآيات الكريمة : قال تعالى : ﴿ وَنَادَىٰ فِرْعَوْنُ فِي قَوْمِهِ قَالَ يَا قَوْمِ أَلَيْسَ لِي مُلْكُ مِصْرَ وَهَٰذِهِ الْأَنْهَارُ تَجْرِي مِن تَحْتِي أَفَلَا تُبْصِرُونَ أَمْ أَنَا خَيْرٌ مِّنْ هَٰذَا الَّذِي هُوَ مَهِينٌ وَلَا يَكَادُ يُبِينُ فَلَوْلَا أُلْقِيَ عَلَيْهِ أَسْوِرَةٌ مِّن ذَهَبٍ أَوْ جَاءَ مَعَهُ الْمَلَائِكَةُ مُقْتَرِنِينَ فَاسْتَخَفَّ قَوْمَهُ فَأَطَاعُوهُ إِنَّهُمْ كَانُوا قَوْمًا فَاسِقِينَ ﴾ [2] .

إن جملة الظواهر الاجتماعية والنفسية التي ذكرناها والتي تتداول حياة الإنسان والمجتمع هي التجسيد الفعلي لسنة التداول من خلال تدافع الخير والشر الحق والباطل فيصبغ هذا الواقع بتصوراته وأفكاره فترة من الزمن لينسخ الآخر كل المظاهر التي كانت قبله وهكذا دواليك.. هي إرادة الله يجسدها قول الله تبارك وتعالى : ﴿ .. وَجَعَلْنَا بَعْضَكُمْ لِبَعْضٍ فِتْنَةً أَتَصْبِرُونَ وَكَانَ رَبُّكَ بَصِيرًا ﴾ [3] ﴿ كُلُّ نَفْسٍ ذَائِقَةُ الْمَوْتِ وَنَبْلُوكُم بِالشَّرِّ وَالْخَيْرِ فِتْنَةً وَإِلَيْنَا تُرْجَعُونَ ﴾ [4]

---

(1) موريس بوكاي تاريخ الحضارات العام مج 1 منشورات عويدات ط / 1 سنة 1964 ص : 179 .

(2) الزخرف : الآية 51 – 52 – 53 – 54 .

(3) الفرقان : الآية 20 .

(4) الأنبياء : الآية 35 .

## سابعا التداول الحضاري :

أصحيح أن الحضارة شعلة متنقلة بين الأمم و المجتمعات لا تلبث في مجتمع أو أمة حتى تنتقل إلى أخرى أفضل استعدادا و أقدر على تحمل تبعات الحضارة من غيرها و هكذا دواليك ؟ أم انها تختص بأقوام دون أقوام و بحيز جغرافي محدد لا تغادره إطلاقا و لا ترضى عنه بديلا ؟

إن الإجابة على هذه التساؤلات و غيرها ينطلق ابتداءً من تحديد المدلول اللغوي و الاصطلاحي لكلمة الحضارة ، و الوقوف على ما تحمله هذه الكلمة من دلالات و معاني قريبة و بعيدة تساعدنا في تحديد التصور العام لهذا المصطلح .

### أ- تعريف الحضارة :

جاء في تعريفها :« الحضارة من الحضور و هو نقيض المغيب و الغيبة .. و الحضر خلاف البدو و الحاضر خلاف البادي .. و الحضارة الإقامة في الحضر و الحضرة و الحاضرة خلاف البادية و هي المدن و القرى و الريف و سميت بذلك لأن أهلها حضروا الأمصار و مساكن الديار التي يكون بها قرار...»[1] ، « و تحضر القوم .. تخلقوا بأخلاق أهل الحضر و عاداتهم ...و الحاضر المقيم في الحاضر .. و الحاضرة ، القوم و حاضرة الشيء القريبة منه ..»[2] .

إن التحليل اللغوي لكلمة الحضارة ابان لنا جملة من المعاني نوجزها فيما يلي

1- فهي تستعمل في مقابل الغياب بمعنى الشهود و الحضور ..

2- و هي تطلق أيضا في مقابل البدو و البداوة ، و من ثم فهي تحمل كل معاني الاستقرار و التوطن ، لأن كلمة البداوة توحي بكثرة الترحال و التنقل من موضع إلى آخر .

---

[1] ابن منظور لسان العرب مج2 دار المعارف ص 906-907.

[2] إبراهيم أنيس ، عبد الحليم منتصر و آخرون المعجم الوسيط ج 2 دار المعارف ط/2 القاهرة مصر ، ص : 180-181.

3- و مما تحمله أيضا معنى السلوك و الأخلاق ، لأن الحضارة و التحضر لون من السلوك يطبع ساكن المدينة و الحاضرة يميزه عن ساكن البادية .

و الحقيقة اننا لو امعنا النظر في المعاني التي تحملها كلمة الحضارة لوجدناها تدور على معنى واحد و هو الذي في مقابل البداوة ، و ذلك لأن البدو و البداوة نمط من السلوك الإنساني يشكل ظاهرة من الظواهر الاجتماعية التي يصنعها الإنسان و تتطلب منه نمطا من العيش يختلف عن النمط الذي يمارسه ساكن المدينة و القرية و الحاضرة ، و بالاضافة إلى ذلك فهو مجتمع لا يعرف الاستقرار يحيا حياة الحل و الترحال يتبع أماكن الرعي ، و ما يقتضيه من الابتعاد و الغياب عن المشاركة في صنع الأحداث و بلورتها و صياغة التغيرات الاجتماعية التي يتطلبها عالم الحضارة و المدينة .

هذا النمط من العيش يتطلب من البدو أخلاقا خاصة تمتاز في أغلبها بالخشونة و الغلظة و الجفاء ، و ما تتطلبه البادية من الشجاعة و المروءة و مكابدة الأهواء ، و في المقابل فإن مجتمع الحاضرة أو الحضارة سمتهم الاستقرار مما يدفعهم ذلك إلى تتبع رغد العيش و التنافس في الملبس و التأنق في المأكل و المسكن و كل فنون التحضر و المدنية ، و اتخاذ أيسر السبل للعيش ، فتزول بذلك الشدة و الغلظة و يذهب الجفاء و تحل محلها الدعة و الرقة و كل اخلاق المدينة .

اختلفت آراء المفكرين و العلماء في تعريف الحضارة و من ثم إعطاء تصور دقيق لها ، و هذا الاختلاف يعود في نظري إلى سببين إثنين أوجزهما فيمايلي :

1- غياب الموضوعية في التصور و الطرح ، نلمس هذا من خلال محاولة قصر الحضارة و التحضر على جنس معين أو في جهة محددة من العالم حتى يخال الدارس لها أنها حكرا على هذا الجنس أو أنها مرتبطة بهذا الحيز الجغرافي مهما برهنت الأجناس الأخرى عن مقدرتها في صناعة الحضارة أو بينت مناطق اخرى استعدادها الكبير في صناعتها و صياغتها.

2- قصر مفهوم الحضارة على الطابع المادي و أبعاد كل ما هو غيبي مثالي ، فهي ليست ممارسة أو سلوكا أخلاقيا و اجتماعيا و دينيا مرتبطة بأسبابها و مسبباتها بل هي المنتجات المادية و التطبيقات التكنولوجية ، و الواقع يبين أن الحضارات العالمية القديمة و الحديثة قامت على أسس دينية محضة و في هذا يقول الأستاذ مالك بن نبي : « لقد أظهر علم الأثار دائما من بين الأطلال التي كشف عنها ، بقايا آثار خصصها الإنسان القديم لشعائره الدينية ، أيا كانت تلك الشعائر ، و لقد سارت هندسة البناء من كهوف العبادة في العصر الحجري ، إلى عهد المعابد الفخمة جنبا إلى جنب مع الفكرة الدينية التي طبعت قوانين الإنسان بل علومه ، فولدت الحضارات في ظل المعابد كمعبد سليمان عليه السلام أو الكعبة الشريفة ن من هناك كانت تشرق هذه الحضارات لكي تنير العالم في جامعاته و معامله بل تجلي المناقشات السياسية في برلماناته ... » [1] .

الحضارة فعل إنساني ومنتوج بشري ومن ثم فهي لا تخرج عن كونها ظاهرة كبقية الظواهر الاجتماعية والإنسانية الأخرى التي تغشى حياة الإنسان وتصبغ واقعه بمظاهرها فهي ليس حكرا على أقوام ومجتمعات معينة ولا بفترة زمنية محدد بل هي حالة اجتماعية تدور مع الإنسان حيث ما وجد وأين ما حل تنتقل من أمة إلى أخرى

---

[1] مالك بن نبي الظاهرة القرءانية ترجمة عبد الصبور شاهين ، دار الفكر (دمشق) دار الفكر الجزائر ط/4 سنة 1992 ،ص :69 .

ب –الحضارة في القرءان الكريم :

وردت كلمة الحضـــارة في مواضـــع متعددة بصيغ مختلفـــة و بدلالات متباينـــة منها قولـــه تعالى : ﴿ وَ اسْـَٔلْهُمْ عَنِ الْقَرْيَةِ الَّتِي كَانَتْ حَاضِرَةَ الْبَحْرِ إِذْ يَعْدُونَ فِي السَّبْتِ .. ﴾ [1] ، ﴿ وَ نَبِّئْهُمْ أَنَّ الْمَاءَ قِسْمَةٌ بَيْنَهُمْ كُلُّ شِرْبٍ مُحْتَضَرٌ ﴾ [2] ، ﴿ وَ إِذَا حَضَرَ الْقِسْمَةَ أُولُوا الْقُرْبَىٰ وَ الْيَتَامَىٰ وَ الْمَسَاكِينُ فَارْزُقُوهُمْ مِنْهُ ... ﴾ [3] .

هذه السياقات القرءانية التي تضمنت كلمة الحضارة تحمل معاني الشهود و الحضور و الإقامة في مقابل الغياب و البداوة ، و هي ذاتها المعاني المستقـــاة من التعريف اللغوي ، و بالإضافة إلى كلمـــة الحضارة ورد في القرءان في أكثر من موضع آيات تؤكد على أن الحضارة ظاهرة اجتماعية و انســـانية ، يصنعها الإنسان بما يقـــع تحت يده من أسباب التسخير ، و هذا من خلال عرضه لجملة من المظـــاهر التي تـــدل عليها ، أو بالإشارة إلى التغيرات التي تحدث في المجتمع بفعل الإنتقال من البساطة إلى التعقيـد و ما ينجر عن هذا الإنتقال من تغير في الأمزجة و السلوكيات تصل في أغلب الأحيـــان إلى تغـــير في العقائد و التصورات لذلك ضرب الله نماذج لمجتمعـــات مختلفـــة بلغت في الحضارة مبلغـــا عظيمـــا و تركت وراءها مآثرة شاهـــدة على عظمتهـــا وتحضرها لقد بلغ قوم عاد من التطور الحضاري ذورتـــه فأسسوا المصانـــع و بنوا السدود و شقوا الأنهار و زرعوا الأرض و ذهبوا في الحضارة كـــل مذهـــب ، يصف القرءان هذا التطور و التحضر علـــى لســـان هود عليـــه السلام ﴿ أَتَبْنُونَ بِكُلِّ رِيعٍ آيَةً

---

[1] الأعراف : الآية 163

[2] القمر : الآية 28.

[3] النساء: الآية 8 .

تَعْبَثُونَ وَ تَتَّخِذُونَ مَصَانِعَ لَعَلَّكُمْ تَخْلُدُونَ وَإِذَا بَطَشْتُمْ بَطَشْتُمْ جَبَّارِينَ﴾[1] ونموذج آخر لظاهرة الحضارة يعرضه القرءان الكريم في صورة ثمود قوم صالح عليه السلام ، و مما يدل على علو كعبهم في الحضارة ، قدرتهم على صقل ونحث الجبال و معرفتهم بفنون و أساليب الزراعة و ما يتبع ذلك من طرق البذر والحرث و الحصاد... كل ذلك يذكره الله على لسان صالح عليه السلام:﴿وَاذْكُرُوا إِذْ جَعَلَكُمْ خُلَفَاءَ مِنْ بَعْدِ عَادٍ وَبَوَّأَكُمْ فِي الْأَرْضِ تَتَّخِذُونَ مِنْ سُهُولِهَا قُصُورًا وَتَنْحِتُونَ مِنَ الْجِبَالِ بُيُوتًا فَاذْكُرُوا آلَاءَ اللَّهِ وَلَا تَعْثَوْا فِي الْأَرْضِ مُفْسِدِينَ﴾[2] ، ﴿أَتُتْرَكُونَ فِيمَا هَاهُنَا آمِنِينَ فِي جَنَّاتٍ وَعُيُونٍ وَزُرُوعٍ وَنَخْلٍ طَلْعُهَا هَضِيمٌ وَتَنْحِتُونَ مِنَ الْجِبَالِ بُيُوتًا فَارِهِينَ﴾[3] .

و ثمة جملة لنماذج قرءانية لحضارات و مجتمعات مختلفة قامت هنا و هناك كحضارة سبأ - و التي سمى الله باسمها سورة من سور القرءان -وحضارة الفراعنة و غيرها من الحضارات الغابرة ..

إن الصورة التي يعرضها القرءان عن الحضارة ترتبط أشد الإرتباط بالجانب المادي ، فهي بلوغ القمة في أسباب الحياة و تتبع الملذات و التقلب في رغد العيش و تفريط في مطالب الروح و خلود في عالم الأرض.

إن قول الله تعالى على لسان هود عليه السلام:﴿وَتَتَّخِذُونَ مَصَانِعَ لَعَلَّكُمْ تَخْلُدُونَ﴾ يشعرنا بالتحول الذي أصاب هذا المجتمع بسب الإفراط في متع الحياة الدنيا إلى درجة الإعتقاد بديمومتها و من ثم الغفلة عن سنة وقانون التداول .

---

(1) الشعراء : الآية 128-129.

(2) الأعراف الآية : 74

(3) الشعراء الآية : 147-148-149

إن قول الرسول صلى الله عليه وسلم :« مَنْ سَكَنَ البَادِيَةَ جَفَا وَ مَنْ اِتَّبَعَ الصَّيْدَ غَفَلَ ...»[1] تأكيد على تعلق الحضارة بأسبابها و مسبباتها و على عدم ديمومتها ، فالإنسان المتحضر يفقد سلوكيات الحضر وطبائع المدينة بمجرد ابتعاده عن أسباب الحضارة .

إن التحول من حال إلى حال ، و الإنتقال من حال البداوة إلى الحضارة أو من الحضارة إلى البداوة، هو جانب من جوانب التجسيد الفعلي لسنة التداول.

إن الحضارة في المدلول القرءاني لا تخرج عن كونها جزء من مهمة الخلافة التي ألقيت على عاتق الإنسان على اعتبار أنه من واجباته عمران الأرض و العمران هو الصورة الحقيقية للتحضر .

إن تحليل مصطلح الإستخلاف تبين أنه يتضمن جملة من العلاقات المتداخلة ترتبط فيما بينها ارتباطا وثيقا ، فهي علاقة اجتماعية تنتظم بني الإنسان جميعا ، و على ضوئها تنمو العلاقات الاجتماعية و تتكون الروابط الأسرية و تحدث التغيرات و التبدلات الاجتماعية ، تتجلى هذه العلاقة في قوله تعالى :﴿يَاأَيُّهَا النَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَاكُمْ مِنْ ذَكَرٍ وَأُنْثَى وَجَعَلْنَاكُمْ شُعُوبًا وَقَبَائِلَ لِتَعَارَفُوا إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِنْدَ اللَّهِ أَتْقَاكُمْ إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌ﴾[2] ، و هي علاقة حضارية بما يمارسه الإنسان من أضرب العمارة مستخدما موهبته العقلية في استغلال ما سخر له من عناصر الطبيعة ، تتجسد هذه العلاقة في قوله تعالى :﴿هُوَ أَنْشَأَكُمْ مِنَ الأَرْضِ وَاسْتَعْمَرَكُمْ فِيهَا ..﴾[3] و قوله أيضا :﴿ هُوَ الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ الأَرْضَ ذَلُولاً فَامْشُوا فِي مَنَاكِبِهَا وَكُلُوا مِنْ رِزْقِهِ وَإِلَيْهِ النُّشُورُ﴾[4] ، و هي علاقة ربانية بما يمارسه الإنسان من أضرب العبادة وفق المنهج السليم يجسدها قوله

---

(1) أحمد بن حنبل المسند مج 2 ص 371 ، 440

(2) الحجرات الآية : 13

(3) هود الآية : 61

(4) الملك الآية : 15

تعالى :﴿ وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالْإِنسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ مَا أُرِيدُ مِنْهُم مِّن رِّزْقٍ وَمَا أُرِيدُ أَن يُطْعِمُونِ إِنَّ اللَّهَ هُوَ الرَّزَّاقُ ذُو الْقُوَّةِ الْمَتِينُ ﴾ [1] ، و لا يتحقق معنى الخلافة إلا من خلال عمل هذه العلاقات جميعا ، فالتفريط في إحدى هذه العلاقات أو الإفراط في واحدة منها على حساب العلاقات الأخرى يجعل حياة الإنسان لا تسير سيرا عاديا وطبيعيا بل في أغلب الأحيان تخرج عن إطارها الصحيح فتصادم سنن الله المبثوثة في الأنفس و الأفاق .

إن القرءان الكريم في تعليله لحركة الحضارة و التحضر و تداولها بين الأمم و الشعوب إنما يقيسها على مدى إنسجامها و توافقها أو ابتعادها عن حقيقة الخلافة فلا تنتقل من امة إلى أخرى إلا إذا فقدت هذه الأمة مبررات الشهود الحضاري ، و ابتعدت عن جوهر الخلافة لتترك مكانها لحضارة أخرى جديدة أقرب لحقيقة الإنسان وجوهره تقود البشرية شوطا إلى الأمام وهكذا دواليك... هذه إرادة الله وسنته في الحياة ، لقد توصل العقل البشري بما أوتي من وسائل الإستنباط و الإستكشاف إلى حقيقة هذه السنن من خلال آثارها في الكون و الإنسان و الحياة ، فظهرت العديد من النظريات تشير إليها تحت عناوين شتى و لعل أبرزها ما إندرج تحت عنوان نظريات التعاقب الدوري للحضارات ، مما يجعلنا نقف عندها و مقارنتها بما ورد في القرءان الكريم .

---

[1] الذاريات الآية : 56-57.



جامعة الأمير عبد القادر للعلوم الإسلامية

تعالى :﴿ وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالْإِنسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ مَا أُرِيدُ مِنْهُم مِّن رِّزْقٍ وَمَا أُرِيدُ أَن يُطْعِمُونِ إِنَّ اللَّهَ هُوَ الرَّزَّاقُ ذُو الْقُوَّةِ الْمَتِينُ ﴾ [1] ، و لا يتحقق معنى الخلافة إلا من خلال عمل هذه العلاقات جميعا ، فالتفريط في إحدى هذه العلاقات أو الإفراط في واحدة منها على حساب العلاقات الأخرى يجعل حياة الإنسان لا تسير سيرا عاديا وطبيعيا بل في أغلب الأحيان تخرج عن إطارها الصحيح فتصادم سنن الله المبثوثة في الأنفس و الأفاق .

إن القرءان الكريم في تعليله لحركة الحضارة و التحضر و تداولها بين الأمم و الشعوب إنما يقيسها على مدى إنسجامها و توافقها أو ابتعادها عن حقيقة الخلافة فلا تنتقل من امة إلى أخرى إلا إذا فقدت هذه الأمة مبررات الشهود الحضاري ، و ابتعدت عن جوهر الخلافة لتترك مكانها لحضارة أخرى جديدة أقرب لحقيقة الإنسان وجوهره تقود البشرية شوطا إلى الأمام وهكذا دواليك... هذه إرادة الله وسنته في الحياة ، لقد توصل العقل البشري بما أوتي من وسائل الإستنباط و الإستكشاف إلى حقيقة هذه السنن من خلال آثارها في الكون و الإنسان و الحياة ، فظهرت العديد من النظريات تشير إليها تحت عناوين شتى و لعل أبرزها ما إندرج تحت عنوان نظريات التعاقب الدوري للحضارات ، مما يجعلنا نقف عندها و مقارنتها بما ورد في القرءان الكريم .

---

[1] الذاريات الآية : 56-57.

**ثامنا : نظرية التعاقب الدوري للحضارات :**

اتجهت الدراسة التاريخية و الاجتماعية في الآونة الأخيرة إلى دراسة المجتمعات الإنسانية على اعتبارها وحدات حضارية و ذلك بالنظر إلى الحضارة على أنها ظاهرة اجتماعية تسود أي مجتمع إذا توفرت أسبابها و مسبباتها و ترتفع عنه إذا فقد هذه الأسباب ، و من ثم تركزت بحوثهم و دراستهم في معرفة ماهية الحضارة و أسباب نشوئها و انحلالها و انتقالها من أمة إلى أخرى ، تمخضت عن هذه الدواسات العديد من النظريات و الإتجاهات كل واحدة منها تفسر حركة الحضارة و تعزوها لأسباب قد تتفق أو تختلف مع النظريات الأخرى ، غير أننا سنقصر عرضنا و مناقشتنا على بعضٍ منها لما لها من صلة موضوع البحث من جانب و من جانب آخر لما تركته من أثر بارز في الدراسات التاريخية و الاجتماعية الحديثة .

**أ – نظرية ابن خلدون :**

يرى ابن خلدون أن كلمة الحضارة تأتي في مقابل كلمة البدو و كلا من البداوة و الحضارة يشكلان العمران البشري الذي هو غاية الاجتماع البشري [1] ، والحضارة هي أقصى ما يبلغه الإنسان في فنون المأكل و الملبس و الزينة و هي نتيجة طبيعية للملك و السلطان ، لأنه من شأن الملك تتبع عوائده [2] و الشيء الذي يؤكده ابن خلدون أن الحضارة و التحضر حالة غير قارة و أن لها أسبابها و مسبباتها و هي في غالب الأحيان نذير شؤم ، إذا بلغته أي أمة من الأمم أو مجتمع

---

[1] عبد الرحمان بن خلدون المقدمة ص : 35.

[2] عبد الرحمان بن خلدون ( المرج السابق ) ص : 140.

من المجتمعات فإنه يقضي على العلاقات الاجتماعية بما تنتجه الحضارة من أوباء اجتماعية فتاكة ، و ما يتبعها من ترف و بطر و لهو ، فتصبح الدولة و الأمة في مرحلة الضعف و الهرم ، و من ثم تسلم مقودها لدورة الحياة و الموت كل هذا المعاني يجملها ابن خلدون في مقدمته فيقول :« وقد بيّنا فيما سبق أن الملك و الدولة غاية للعصبية ، و أن الحضارة غاية البداوة و أن العمران كله بداوة وحضارة و سوقة و ملك ..له عمر محسوس كما أن للشخص الواحد من اشخاص المكونات عمرا محسوسا ... ثم تأخذ بعد ذلك في الانحطاط فلتعلم أن الحضارة في العمران أيضا كذلك لأنه غاية لا مزيد من وراءها و ذلك أن الترف و النعمة إذا حصلا لأهل العمران دعاهم بطبعه إلى مذاهب الحضارة و التخلق بعوائدها و الحضارة كما علمت هي التفنن في الترف و استجادة أحواله و الكلف بالصنائع .. فافهم ذلك .. و اعتبر أن غاية العمران في الحضارة ، و انه إذا بلغ غايته إنقلب إلى الفساد وأخذ في الهرم كالأعمار الطبيعية ، بل إن الأخلاق الحاصلة من الحضارة و الترف هي عين الفساد..»[1] .

يرى ابن خلدون أن بلوغ أي مجتمع مرحلة الحضارة حتى يصل إلى ذروتها يسير وفق مراحل معينة كالكائن البشري ، تماما ، فيمر المجتمع من طور الولادة فالشباب فالكهولة و الشيخوخة ثم الموت، فكل دولة أو امة بلغت قمة الحضارة فهي بلغت مرحلة الشيخوخة و الضعف و هكذا دواليك.«فمرحلة الولادة متمثلة في طور البداوة كمعيشة البدو في الصحاري و التتار في السهول»[2] ، و مرحلة الشاب متمثلة في دخول المجتمع عهد الدولة عقب الغزو و الفتح و الاستقرار ، أما مرحلة الشيخوخة و هي مرحلة الانغماس في الترف و النعيم و هي طور التدهور و الانحطاط ، و هذه المرحلة هي اقصى ما يبلغه المجتمع و الدولة من فنون الحضارة و العمران .

الحضارة في نظر ابن خلدون كالشعلة المتنقلة بين الأمم و الشعوب فإذا فقدت أية أمة أو مجتمع أسباب الحضارةلا بد أن تنتقل إلى أمة أخرى تمتلك الاستعداد الكافي

---

[1] عبد الرحمان بن خلدون المقدمة ص : 371-372-373-374

[2] آمنة تشيكوا مفهوم الحضارة عند مالك بن نبي و آرنولد توينبي الموسسة الوطنية للكتاب الجزائر ، ص : 26

و مبررات الشهود الحضاري ، و يضرب لذلك شواهد من التاريخ فيقول : « ... فانتقلت حضارة الفرس للعرب من بني أمية و بني العباس ، و انتقلت حضارة بني امية بالأندلس إلى ملوك المغرب من الموحدين و زناتة لهذا العهد ، و انتقلت حضارة بني العباس إلى الديلم ثم إلى الترك ثم إلى السلجوقية ثم إلى الترك المماليك بمصر و التتر بالعراقيين، و على قدر عظم الدولة يكون شأنها في الحضارة إذ أن أمور الحضارة من توابع الترف و الترف من توابع الثروة و النعمة والثروة من توابع الملك ...».[1]

و الحضارة أيضا ليست غاية في حد ذاتها و إنما هي حالة تصل إليها اية دولة أو مجتمع إبان تطورها ، و هي حالة طبيعية تعكس الطبيعة الانسانية الميالة دوما للدعة و السكون وطلب الرغد من العيش و التمتع بطيبات الحياة ، فإذا حصلت السيادة و الملك لأي مجتمع وفق المراحل التي ذكرناها فإنه يتحول شيئا فشيئا إلى إقامت العمران و الاستزادة في الملك و التفنن في متع الحياة و بذلك تتحول الأمة و ينتقل المجتمع من حالة البساطة التي كان عليها إلى التعقيد ، و من الخشونة في العيش إبان مرحلته البدوية إلى حالة الرقة و النعومة والترف وهكذا دواليك إلى أن يصير إلى الانحطاط ، و صورة المجتمع العربي وغيره من المجتمعات كيف تحولت من البداوة إلى الحضارة وكيف عادت أدراجها إلى البداوة مرة أخرى سنة الله في خلقه، و في هذا يقول ابن خلدون :«..ثم إنهم بعد ذلك انقطعت منهم عن الدولة أجيال نبذوا الدين فنسوا السياسة و رجعوا إلى قفرهم وجهلوا شأن عصبيتهم مع أهل الدولة ببعدهم عن الانقياد و إعطاء النصفة فتوحشوا كما كانوا و لم يبق لهم من إسم الملك ... و لما ذهب امر الخلافة و امحى رسمها انقطع الأمر جملة من ايديهم.. و اقاموا في بادية قفارهم لا يعرفون الملك و لاسياسته بل قد يجهل الكثير منهم أنهم قد كان لهم ملك في القديم و ما كان لأحد من الأمم في الخليقة ما كان لأجيالهم من الملك ...»[2].

---

[1] عبد الرحمان بن خلدون المقدمة ص :174

[2] عبد الرحمان بن خلدون ( المرجع السابق ) ص : 152

و مما يمكن أن نستخلصه من نظرية ابن خلدون في الحضارة تأثره البارز بحقائق القرءان الكريم ، فهو يعتبر الظاهرة الحضارية ظاهرة اجتماعية تسود أي مجتمع أو أمة بمجرد تحوله من حالة البساطة في العيش إلى تتبع متع الحياة و شهوات النفس ، و من ثم فهي في اغلب الأحيان ظاهرة تنبئ عن بلوغ هذا المجتمع درجة الانهيار فيتحول بذلك من حالة العمران التي هي جزء من مهمة الانسان في الأرض إلى حالة الإفساد المناقضة لجوهر الانسان ، مما يجعله يسقط الكثير من الوقائع على الآيات القرءانية و الأحاديث النبوية فيقول :«..و إذا كثر ذلك - الفساد- في المدينة أو الأمة تأذن الله بخرابها و انقراضها و هو معنى قول الله تعالى : ﴿وَإِذَآ أَرَدْنَآ أَن نُّهْلِكَ قَرْيَةً أَمَرْنَا مُتْرَفِيهَا فَفَسَقُوا۟ فِيهَا فَحَقَّ عَلَيْهَا ٱلْقَوْلُ فَدَمَّرْنَٰهَا تَدْمِيرًا [1] ...»[2] ، وهذا شأنه في الكثير من مواضع المقدمة فهو بالاضافة إلى كونه مؤرخا فهو مفسر للقرءان الكريم يتجلى ذلك في الآية السابقة و العديد من الايات المنتشرة في كتابه .

إننا نختلف مع الأستاذ مالك بن نبي في تقريره بأن ابن خلدون اقتصر في مفهومه للحضارة على احد منتوجاتها و هي الدولة [3] ، بل على العكس من ذلك فالمتتبع للمقدمة يدرك أن ابن خلدون استعمل مصطلح الحضارة بالمفهوم الذي استخدمه مالك بن نبي بدليل انه إعتبر الحضارة ظاهرة اجتماعية يبلغها أي مجتمع أو دولة إذا توفرت له اسباب الحضارة و يفقدها إذا فقد اسبابها و مسبباتها و كثيرة هي فصول المقدمة التي يذكر فيها العلامة ابن خلدون أسباب التحضر و الانحطاط [4] ، هذا من جانب و من جانب آخر نلمس الأثر البارز الذي تركته أفكار ابن خلدون في تقرير الدورة الحضارية التي لخصها الأستاذ مالك بن نبي و يتضح الأمر أكثر عند تعرضنا لمفهوم الحضارة عند مالك بن نبي ، و الأرجح عندي أن الأستاذ مالك لم يرجع إلى المقدمة كأصل و إنما إعتمد على ما كتب حول

---

[1] الإسراء الآية : 16

[2] عبد الرحمان بن خلدون المقدمة ص :371،372

[3] مالك بن نبي شروط النهضة ترجمة عبد الصبور شاهين دار الفكر الجزائر ، ص : 69

[4] تناول ابن خلدون هذا الموضوع في العديد من مواضع المقدمة كالصفحة : 172، 289 ، 371 ، 372 ...إلخ

دراسة موضوعية، وفعله الدكتور ساطع الحصري وحسن الساعاتي، وعبد المجيد مزيان ينحو هذا المنحى ويسير نحو الغاية المرجوة

**ب- نظرية مالك بن نبي :**

يرى الأستاذ مالك أن الحضارة شعلة متنقلة بين الأمم و الشعوب والمجتمعات، وهي بمثابة الشمس التي ترتفع عن أمة لتعود إليها مرة أخرى ، وهكذا دواليك .. فهي في حركة دائمة ، و انتقال و تحول مستمر يقول الأستاذ مالك : « فإذا نظرنا إلى الأشياء من الوجهة الكونية فأننا نرى أن الحضارة تسير كما تسير الشمس فكأنها تدور حول الأرض مشرقة في أفق هذا الشعب ثم متحولة إلى أفق شعب آخر ...» [1] .

هذه الحركة الدورية للحضارة استرعت فكر مالك و دفعته للبحث و الدراسة في ماهيتها و عن سر هذا الإنتقال و التحول ، و على ضوء هذه الدراسة عرف الحضارة على أنها :« جملة العوامل المعنوية و المادية التي تتيح لمجتمع ما أن يوفر لكل عضو فيه الضمانات الاجتماعية اللازمة لتطوره .. و هي تتموضع في شكل سياسة ، في صورة تشريع يمثلان إسقاطا مباشرا لعالم الأفكار على الصعيد الاجتماعي والأخلاقي .. » [2] .

و هي أيضا غاية ما يصبو إليه أي مجتمع من المجتمعات أو أمة من الأمم و على ضوء هذه الحركة يقسم المجتمعات البشرية إلى قسمين :

- مجتمع طبيعي ، و هو المجتمع الذي يعبر عنه علماء الاجتماع و التاريخ بالمجتمع البدائي ومن صفاته السكون وعدم التغير كمجتمع النمل والنحل و القبائل الإفريقية قبل الاستعمار .

-مجتمع تاريخي وهو المجتمع الذي يخضع لقانون وسنة التغير والتطور و من أخص صفاته الحركة و التغير ،فإذا كانت الطبيعة قد أوجدت المجتمع الطبيعي الساكن للحفاظ على النوع،فإن حركية المجتمع التاريخي تهدف إلى التقدم والرقي و إلى شكل أرقى للحياة،وهو ما يطلق عليه الأستاذ مالك بمصطلح الحضارة [3].

لا يمكن لأي مجتمع التقدم و الرقي و الوصول إلى درجة الحضارة إلا إذا توافقت عوالمه الثلاث :الأفكار ،الأشخاص ،الأشياء ، فهذه العوامل-كما يقول الأستاذ مالك-لا تعمل متفرقة

---

(1) مالك بن نبي شروط النهضة دار الفكر ط/2 سنة 1992 الجزائر ص : 55

(2) مالك بن نبي مشكلة الأفكار في العالم الإسلامي دار الفكر ط/3 سنة 1992 الجزائر ص 42 ، 43

(3) مالك بن نبي ميلاد مجتمع ( مرجع سابق ) ص : 19

لا تعمل متفرقة وإنما تتوافق [1] في عمل مشترك لصناعة التاريخ ومن ثم صناعة الحضارة ، و هذه الحركة هي التي تحدد طبيعة و مكانة هذا المجتمع أو ذاك من الحضارة ، فهناك مجتمعات ما قبل الحضارة كما يسميها مالك بن نبي ، و هي المجتمعات التي مازالت عوالمها الثلاث « الأفكار و الأشخاص و الأشياء » على طبيعتها و لم تستهلك بعد ، فهي بمثابة مواد خام ، و مجتمعات أخرى ما بعد الحضارة و هي التي ولت عنها شمس الحضارة و استنفذت و استهلكت كل مقومات الحضارة ( العوالم الثلاث ) ؛

غير أن السؤال الذي يطرح نفسه كيف يدخل مجتمع ما مرحلة الحضارة و كيف يخرج منها ؟ يجيب مالك بن نبي عن هذا السؤال بقوله : « أن لكل مجتمع تاريخي دورة حضارة و أي مجتمع يدخل مرحلة الحضارة حينما تدخل فكرة – و الأرجح فكرة دينية – في صورة طرف استثنائي أو تحد ليحدث التركيب العضوي بين عوالم المجتمع الثلاث ، و هذا التركيب يتفق مع ميلاد مجتمع معين كما يتفق مع بداية عمله التاريخي » [2] ، و هذه الفكرة الدينية في حقيقة الأمر علاقة بين الإنسان وخالقه تتولد عنها بالضرورة العلاقة الاجتماعية بين الإنسان و الإنسان ، و هذه العلاقة من الوجهة الكونية ، يقول الأستاذ مالك هي عنوان لحركة تطور اجتماعي صاعد في إطلو صناعة الحضارة و بذلك يدخل هذا المجتمع في دورة الحضارة ، يلخص الأستاذ مالك هذه الدورة بقوله : « فدورة الحضارة .. تبدأ حينما تدخل فكرة دينية معينة أو عندما يدخل التاريخ مبدأ أخلاقي معين .. على حد قول ( كسرلنج ) كما أنها تنهار حينما تفقد الروح نهائيا الهيمنة التي كانت لها على الغرائز المكبوتة أو المكبوحة؛ و قبل بدأ دورة من الدورات أو عند بدايتها يكون الإنسان في حالة سابقة للحضارة ، أما نهاية الدورة فإن الإنسان يكون قد تفسخ حضاريا و سلبت من الحضارة تماما فيدخل في عهد ما بعد الحضارة ...»[3] . نميز في دورة حضارة أي مجتمع حدين أساسيين هما الميلاد و الأفول و على ضوء هذين الحدين يقطع المجتمع دورته الحضارية في ثلاث مراحل ، مرحلة البناء و هي مرحلة التي تتميز بسيطرة الروح ثم مرحلة الأوج التي تزدهر فيها العلوم و الفنون و تتميز بسيطرة العقل ثم مرحلة الانحطاط التي تتحرر فيها الغرائز و فيها لم يعد للفكرة الدينية أي سيطرة على المجتمع [4] . و هكذا تنتقل الحضارة من مجتمع لم يعد في استطاعته الحفاظ عليها لمجتمع آخر يملك كل الاستعداد ليستقبلها و هكذا دواليك ...؛ جعل الأستاذ مالك من مرحلة الحضارة المرحلة القصوى التي تبلغها صيرورة الحركة التاريخية لأي مجتمع ، و هي أسمى مرحلة في عمر المجتمع ، لذلك فهو يرى أن مشكلة المجتمعات المختلفة هي مشكلة الحضارة أولا قبل كل شيء ، بما في ذلك المجتمع الإسلامي ، فهو في نظره يعيش في مرحلة ما قبل الحضارة لأن عوالمه الثلاث لم تزل مواد خام لم تستهلك بعد ، و لم تستخدم في صناعة أية دورة حضارية هذا الذي

---

(1) التوافق بين هذه العوامل الثلاث يتم عن طريق ما يسميه الأستاذ مالك بشبكة العلاقات الاجتماعية

(2) مالك بن نبي ميلاد مجتمع ص : 54 ، 55 ، 56

(3) مالك بن نبي شروط النهضة ( مرجع سابق ) ص: 78

(4) مالك بن نبي ميلاد مجتمع ( مرجع سابق ) ص: 76 ، 77 ، 78

جعله يضع كل كتبه تحت عنوان مشكلات الحضارة ، يقول الأستاذ مالك :« .. إن مشكلة كل شعب هي في جوهرها مشكلة حضارية ، ولا يمكن لشعب أن يحل مشكلته ما لم يرتفع بفكرته إلى الاحداث الانسانية و ما لم يتحقق في فهم العوامل التي تبني الحضارات أو تهدمها..»[1] .

إن الهدف الأسمى الذي رسمه الاستاذ مالك من صيرورة حركة المجتمع هي الوصول إلى الحضارة ، وهي الغاية ذاتها التي جعلها تونبي هدفا للحركة التاريخية ، و انتقال الانسان من عصر البداوة إلى الحضارة قبل أن يعدل عنه بالقول بديانة عليا كغاية للتطور التاريخي و هذا جوهر النقض الذي وجهه سوروكن لتونبي [2] ، والشيئ الملاحظ في دراسة الأستاذ مالك للحضارة تأثره بمقررات توينبي ، نلمس هذا من خلال الاحترام الكبير الذي يكنه مالك لتونبي و من صياغته لقانون التحدي و الاستجابة الذي فسر به تونبي حركة المجتمع نحو الحضارة بقانون الوعد و الوعيد[3]

رغم النقد الذي وجهه مالك لإبن خلدون إلا انه لم يخرج عن مقررات هذا الأخير حول المراحل التي تقطعها الحضارة من ميلادها إلى أفولها بل نعتبر أن ما قاله الأستاذ مالك هو عين ما قرره ابن خلدون ، فأسباب الانحطاط و التدهور واحدة كما أن أسباب تكون الحضارة أو المجتمع واحدة إلا أن مالكا يرى أن غاية الحركة الاجتماعية هي الوصول إلى الحضارة بينما ابن خلدون يرى بأن التحضر و الحضارة مرحلة يمر بها المجتمع أو الدولة حينما تبسط الدنيا على المجتمع و تنتشر كل اسباب الرفاهية ، وهذه هي علامات الانحطاط و التدهور ، و الفصل الثامن عشر من المقدمة شاهد على ذلك .

يقرر الأستاذ مالك من جهة أن مشكلة أي شعب هي مشكلة حضارة و من جانب آخر يرى أن الحضارة هي مرحلة و دورة تمر بساحة أي مجتمع إذا اتخذ أسبابها

---

(1) مالك بن نبي شروط النهضة ص : 211

(2) آمنة تشيكوا مفهوم الحضارة عند مالك بن نبي ... ص: 108

(3) مالك بن نبي ميلاد مجتمع ص: 23، 24

و مسبباتها و السؤال الذي يطرح نفسه أين هي المشكلة إذا مادامت الحضارة إقبالا وإدبارا؟

أرى أن الأستاذ مالك أراد من خلال ما كتبه من مواضيع تحت عنوان مشكلات الحضارة ، أن يدخل في روع المسلمين أن الحضارة ليست حكرا على المجتمع الغربي بل متعلقة بأسبابها و مسبباتها فبمقدور العالم الإسلامي أن يصنع حضارة كما صنعها اجداده ،و لذلك فإن كتابات الأستاذ مالك تعطينا صورة عن الانبهار الذي أصاب المجتمع الإسلامي بفعل السيطرة الغربية حتى جعلته يعتقد أن الحل كل الحل هو الإلتحاق بركب الغرب مهما كانت الأسباب و الأدوات.

يبدوا أن الأستاذ مالك قد تخلى عن اعتباره أن الحضارة مشكلة المجتمع بقدر ما هي فاعلية العوالم الثلاث التي تنشئ الحضارة .

إن الآراء التي عرضناها تبين بوضوح كيف استطاع العقل البشري من خلال النظر في آثار الأولين و مقارنتها بأحوال الناس اليوم التوصل إلى معرفة سنة التداول وهذا من خلال الظواهر التي تتداول حياة الانسان و المجتمع ، و ما الظاهرة الحضارية إلا نموذجا من هذه الظواهر.

إن تكرار و تداول هذه الظواهر دفع بالعديد من العلماء على غرار تونبي و اشبنجلر و مونتسكيو إلى القول بأن الحياة الاجتماعية تحكمها جملة من القوانين على غرار الحياة الكونية و المادية ، و أصبح الوصول إلى كنه هذه القوانين الغاية الكبرى التي يهدفون إليها من بحوثهم و دراساتهم، غير أن هذه الدراسات توجهت بصفة خاصة إلى العوامل و الأسباب و الشيئ الذي يظهر عدم اتفاقهم حول سبب معين أو هدف محدد في تفسيرهم لظاهرة من هذه الظواهر ، و السبب يعود في نظري إلى اختلاف المنطلقات الفلسفية و الأدوات المتبعة في مثل هذه الدراسات .

و في الأخير أؤكد على أن سنة التداول ما هي إلا شكل من أشكال التغيير كما أنها لا تقع اعتباطا و دون غاية كما يقرر اشبنجلر ، و إنما وفق عوامل ذاتية

موضوعية ، هذه العوامل والأسباب هي التي تدفع إلى التغيير الحتمي في طبيعة المجتمع وتجعل الظواهر الاجتماعية تتداول و تتكرر في حياة الانسان وواقعه .

ماهي هذه العوامل كيف تدفع بالعملية التغييرية كل هذه الأسئلة سنحاول الإجابة عنها في الفصول القادمة بحول الله .

جامعة الأمير عبد القادر للعلوم الإسلامية

## الفصـــل الخـــامس : التسخـــــــير .

ـــ المدلول القرآني للتسخير .

ـــ أنواع التسخير .

ـــ أسس التسخير .

ـــ علاقة الإنسان بالطبيعة.

ـــ صراع الإنسان مع الطبيعة في ميزان القرآن .

ـــ التسخير وعلاقته بالتغيير الإجتماعي .

ـــ الاستدراج ودور التسخير فيه .

جامعة الأمير عبد القادر للعلوم الإسلامية

## تمهيد:

إن الدراسة المسابقة أبرزت لنا بوضوح أن حركة المجتمع، أو الظواهر الاجتماعية و الحضارية تخضع في مجموعها لقوانين ثابتة لا تتغير و لا تتبدل، اصطلحنا على تسميتها " بالسنن الاجتماعية "و بينت أيضا أن عمل هذه السنن يتوقف على جملة من العوامل و الأسباب، و الواقع أن القرآن الكريم في عرضه لهذه السنن لا يفصلها عن أسبابها و مسبباتها بل على العكس من ذلك إذ يربط العلة بالمعلول و السبب بالمسبب ، و النتائج بالمقدمات، و هذا الأمر لا يتعارض ابتداء مع قدرة الله المطلقة في إيجاد الظواهر من غير أسباب و لا مسببات ﴿إِنَّمَا أَمْرُهُ إِذَا أَرَادَ شَيْئًا أَنْ يَقُولَ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ ﴾[1]، يقول شيخ الإسلام ابن تيمية : « ...وليكن معلوما أن كون الشيء سببا لغيره أو كونه عن غيره، هو من فعل الله تعالى و حكمه فهو خالق الأسباب و المسببات...»[2] .

إن التسخير هو المصطلح الذي حوى كل الأسباب و العوامل التي من شأنها أن تجعل حركة المجتمع و تداول الظواهر الاجتماعية و الحضارية أمرا محسوسا و واقعا ملموسا، فلا غرو إذ نجد كلمة التسخير تتكرر في القرآن الكريم في أكثر من مرة في العديد من السور و الآيات منها قوله تعالى :﴿اللهُ الذِي خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَ الأَرْضَ وَ أَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَخْرَجَ بِهِ مِنَ الثَّمَرَاتِ رِزْقًا لَكُمْ وَسَخَّرَ لَكُمُ الْفُلْكَ لِتَجْرِيَ فِي الْبَحْرِ بِأَمْرِهِ وَسَخَّرَ لَكُمُ الأَنْهَارَ وَسَخَّرَ لَكُمُ الشَّمْسَ وَالْقَمَرَ دَائِبَيْنِ وَسَخَّرَ لَكُمُ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ وَ آتَاكُمْ مِنْ كُلِّ مَا سَأَلْتُمُوهُ وَإِنْ تَعُدُّوا نِعْمَةَ اللهِ لا تُحْصُوهَا إِنَّ الإِنْسَانَ لَظَلُومٌ كَفَّارٌ﴾[3].

---

[1] يس الآية :82.

[2] أحمد بن تيمية تقي الدين مجموع الفتاوي ج8 ص : 70.

[3] إبراهيم : الآية 32-33-34.

**أولا : تعريف التسخير :**

جاء في لسان العرب « السخرة ما سخرت من دابة أو خادم بلا أجر و لا ثمن و يقال سخرته أي قهرته و ذللته ...و سخر تسخيرا كلفه ما لا يريد و قهره و كل مقهور مدبر لا يملك لنفسه ما يخلصه من القهر فهو بذلك مسخر ومنه قوله تعالى : ﴿أَلَمْ تَرَوْا أَنَّ اللَّهَ سَخَّرَ لَكُمْ مَا فِي السَّمَاوَاتِ ...﴾ [1] » [2]؛ قال الزجاج: « تسخير ما في السماوات ..تسخير الشمس و القمر و النجوم للآدميين و هو الانتفاع بها في بلوغ منابتهم و الإقتداء بها في مساكنهم و تسخير بحارها و أنهارها و دوابها و جميع منافعها ... و كل ما ذل و انقاد أو تهيأ لك ما تريد فقد سخر لك » [3]؛ ويرى الشيخ محمد الطاهر بن عاشور: « أن التسخير إنما هو تذليل كل ذي عمل شاق أو شاغل بقهر أو تخويف أو بتعليم و سياسة بدون عوض فمنه تسخير العبيد و الأسرى و منه تسخير الأفراس و الرواحل ...و يستعمل مجازا في تعريف الشيء غير ذي الإرادة في عمل عجيب أو عظيم من شأنه أن يصعب استعماله فيه بحيلة أو إلهام تصريفا يصيره من خصائصه و شؤونه كتسخير الفلك للمخر في البحر بالريح أو بالجذف ، و تسخير السحاب بالأمطار ، و تسخير النهار للعمل ، و الليل للسكون ...» [4]؛ إن التحليل اللغوي لكلمة التسخير يبين أنها تحمل ثلاث معاني متقاربة فهي بمعنى التذليل و الهيئة و القهر و كل هذه المعاني و المدلولات تؤكد على أن الشيء المسخر ليس من طبيعة الإذلال و القهر ، و إنما اكتسب هذه الصفات بفضل تدخل العناية الإلهية، التي تجعل الحيوان ينقاد للإنسان «حتى يقود الصبي الجمل العظيم ويصرفه كيف يشاء » [5] ، و تدفع الرياح السفن بمخر بها عباب البحر و ما إلى ذلك من المسخرات، و إلى هذا المعنى يشير العلامة " محمد الطاهر بن عاشور " بقوله « ...و تسخير الله الدواب هو خلقه إياها قابلة للترويض، فاهمة لمراد الراكب وتسخير الفلك حاصل لمجموع، الخلق صالح لسبع السفن على مائه، و خلق الرياح تهب فتدفع السفن على الماء و خلق حيلة الإنسان لصنع الفلك و رصد مهاب الرياح...و لولا ذلك لكانت قوة الإنسان دون أن تبلغ استخدام هذه الأشياء القوية...»[6] .كيف استطاع الإنسان أن يسخر هذه المخلوقات من أعظمها خلقه كالفيل ابتداء إلى أصغرها كالنمل، إنه لأمر يدعو للدهشة والغرابة بينما لا نزال مخلوقات

---

[1] لقمان : الآية 20.

[2] ابن منظور لسان العرب مج3 دار المعارف ص:1963.

[3] ابن منظور لسان العرب مج:3 دار المعارف ص:1963.

[4] محمد الطاهر بن عاشور التحرير والتنوير ج8 ص:168-169.

[5] القرطبي الجامع لأحكام القرآن ج15 دار إحياء التراث العربي ط1 سنة 1985 بيروت لبنان ص : 55.

[6] ابن عاشور محمد الطاهر التحرير و التنوير ج25 ص:175.

أخرى عصية عن طوع الإنسان، إلا أن تكون قد سخرت من جوانب أخرى يجهلها الإنسان.

**ثانيا : المدلول القرآني للتسخير :**

إن المتمعن في كلمة التسخير يلاحظ أنها ترمز إلى جملة من العلاقات المتداخلة، والتي تشكل التصور العام لسنة التسخير ، هذه العلاقات لا تتضح إلا من خلال استقراء النصوص القرآنية التي تطرقت لموضوع التسخير و الشيء البارز في هذا الموضوع أن كلمة التسخير وردت في القرآن الكريم غير ما مرة في العديد من السور و الآيات، بأساليب متنوعة و بإشارات مختلفة تتفاوت بين الإيجاز والتفصيل تارة والتلميح، و التصريح تارة أخرى، ومن الآيات التي تناولت هذا الموضوع قوله تعالى: ﴿ أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّا خَلَقْنَا لَهُمْ مِمَّا عَمِلَتْ أَيْدِينَا أَنْعَامًا فَهُمْ لَهَا مَالِكُونَ وَذَلَّلْنَاهَا لَهُمْ فَمِنْهَا رَكُوبُهُمْ وَمِنْهَا يَأْكُلُونَ وَلَهُمْ فِيهَا مَنَافِعُ وَمَشَارِبُ أَفَلَا يَشْكُرُونَ ﴾[1]، ﴿ وَسَخَّرَ لَكُمُ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ وَالشَّمْسَ وَالْقَمَرَ وَالنُّجُومُ مُسَخَّرَاتٌ بِأَمْرِهِ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَاتٍ لِقَوْمٍ يَعْقِلُونَ وَمَا ذَرَأَ لَكُمْ فِي الْأَرْضِ مُخْتَلِفًا أَلْوَانُهُ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَةً لِقَوْمٍ يَذَّكَّرُونَ وَهُوَ الَّذِي سَخَّرَ الْبَحْرَ لِتَأْكُلُوا مِنْهُ لَحْمًا طَرِيًّا وَتَسْتَخْرِجُوا مِنْهُ حِلْيَةً تَلْبَسُونَهَا وَتَرَى الْفُلْكَ مَوَاخِرَ فِيهِ وَلِتَبْتَغُوا مِنْ فَضْلِهِ وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴾[2] هُوَ الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ الْأَرْضَ ذَلُولًا فَامْشُوا فِي مَنَاكِبِهَا وَكُلُوا مِنْ رِزْقِهِ وَإِلَيْهِ النُّشُورُ[3].

عالجت الآيات القرآنية موضوع التسخير هذا من جانبين أوجز هما فيما يلي :

**الجانب الأول:** عالجته من خلال ذكر نعم الله على الإنسان إذ تناولت الآيات القرآنية تسخير الله تبارك و تعالى السماوات و الأرض و الحيوان و النبات و جميع مظاهر الطبيعة الظاهرة و الباطنة، كل هذه المخلوقات وضعت في يد الإنسان و تحت إمرته يتصرف فيها كيف يشاء، حتى يقوم بمهمته كخليفة لله على أكمل وجه هذا من جهة و من جهة ثانية فهي دليل على قدرة الله و عظمته لأن الآيات المبثوثة في الآفاق وفي نفس الإنسان تشير إلى الله الواحد الأحد فهو وحده الذي يستحق العبادة والشكر و لذلك جاء ختام آية النحل وغيرها من الآيات الأخرى بقوله ﴿ أَفَلَا يَشْكُرُونَ ﴾ .

---

(1) يس : الآية 71...73.

(2) النحل : الآية 12...14.

(3) الملك : الآية 15.

يقول سيد قطب تعليقا على موضوع التسخير « ...و قد سخر لهذا المخلوق الإنساني، ما في السماوات و الأرض، فجعل في مقدوره الانتفاع بشعاع الشمس و نور القمر و هدى النجوم و بالمطر، و الهواء و الطير السابح فيه، و سخر له ما في الأرض، و هذا أظهر و أيسر ملاحظة وتدبر فقد أقامه خليفة في هذا الملك الطويل العريض و مكنه من كل ما تدخر به الأرض من كنوز و منه ما هو ظاهر، و منه ما هو مستتر، و منه ما يعرفه الإنسان و منه ما لم يعرفه أصلا من أسرار القوى التي ينتفع بها دون أن يدرك و أنه لمغمور في كل لحظة من لحظات الليل و النهار بنعمة الله السابغة الوافرة التي لا يدرك مداها و لا يحصي أنماطها و مع ذلك كله فإن فريقا من الناس لا يشكرون و لا يتدبرون ما حولهم و لا يوقنون بالمنعم المفضل الكريم [1]

إلا أن السؤال الذي يطرح نفسه ما الغاية من جعل هذه المسخرات في يد بني الإنسان ؟

و الحقيقة أن جزء من الإجابة عن هذا السؤال تقدمت في المباحث السابقة و المتعلقة بموضوع الاستخلاف و الشيء المؤكد أن قوله تعالى: ﴿إِنَّا عَرَضْنَا الْأَمَانَةَ عَلَى السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَالْجِبَالِ فَأَبَيْنَ أَنْ يَحْمِلْنَهَا وَأَشْفَقْنَ مِنْهَا وَحَمَلَهَا الْإِنْسَانُ إِنَّهُ كَانَ ظَلُومًا جَهُولًا لِيُعَذِّبَ اللهُ الْمُنَافِقِينَ وَالْمُنَافِقَاتِ وَالْمُشْرِكِينَ وَالْمُشْرِكَاتِ وَيَتُوبَ اللهُ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ وَكَانَ اللهُ غَفُورًا رَحِيمًا﴾[2]،تحمل الإجابة الكاملة و توضح الغاية من وضع هذه المسخرات تحت تصرف الإنسان، و من ثم فالتسخير إنما هو في حقيقته ابتلاء للإنسان و تمحيص لمقدرته على القيام بمهمة الخلافة و الحفاظ على الأمانة التي تحمّلها بمحض إرادته،هذه الأمانة التي عجزت عن حملها السماوات و الأرض و الجبال، إن صورة هذا الامتحان المعبر عنه بلفظ الابتلاء تترجمه العديد من الآيات القرآنية منها قوله تعالى: ﴿وَلَنَبْلُوَنَّكُمْ بِشَيْءٍ مِنَ الْخَوْفِ وَالْجُوعِ وَنَقْصٍ مِنَ

---

[1] سيد قطب ظلال القرآن مج6 دار إحياء التراث العربي بيروت- لبنان ص: 77-78.

[2] الأحزاب : الآية 72-73.

الامْوَالِ وَ الانْفُسِ وَ الثَّمَرَاتِ وَبَشِّرِ الصَّابِرِينَ ﴾[1]، ﴿ وَلَوْ شَاءَ اللهُ لَجَعَلَكُمْ أُمَّةً وَاحِدَةً وَلَكِنْ لِيَبْلُوَكُمْ فِيمَا آتَاكُمْ فَاسْتَبِقُوا الْخَيْرَاتِ إِلَى اللهِ مَرْجِعُكُمْ جَمِيعًا فَيُنَبِّئُكُمْ بِمَا كُنْتُمْ فِيهِ تَخْتَلِفُونَ ﴾[2] ، ﴿ هُوَ الَّذِي جَعَلَكُمْ خَلَائِفَ الْأَرْضِ وَ رَفَعَ بَعْضَكُمْ فَوْقَ بَعْضٍ دَرَجَاتٍ لِيَبْلُوَكُمْ فِيمَا آتَاكُمْ إِنَّ رَبَّكَ سَرِيعُ الْعِقَابِ وَ إِنَّهُ لَغَفُورٌ رَحِيمٌ ...﴾[3] ، لذلك زود الله الإنسان بخاصية العقل، بها يستطيع التفريق بين الخير و الشر، الضار و النافع ليتحمل مسئوليته كاملة يوم القيامة عن الأمانة التي تكفل بحفظها وصيانتها،إن فقدان جميع المخلوقات لهذه الخاصية جعلها تعجز عن حمل الأمانة و خوض الامتحان و في هذا يقول العلامة محمد الطاهر بن عاشور: « اقتضت الحكمة أن يكون الإنسان مستودع العقل من بين الموجودات العظيمة ، لأن خلقته ملائمة لأن يكون عاقلا فإن العقل يبعث على التغيير و الانتقال من حال إلى حال و من مكان إلى غيره فلو جعل ذلك في سماء من السماوات أو في الأرض أو في جبل من الجبال أو جميعها لكان سببا في اضطراب العوالم و اندكاكها ...»[4] .

**و الجانب الثاني** في معالجة القرآن لموضوع التسخير ذلك التأثير الهائل الذي تحدثه هذه المسخرات في حياة الإنسان النفسية و الاجتماعية و كيف يؤدي ذلك إلى تنوع مظاهر الحياة و تقلبها و إلى حدوث التبدلات العميقة في المجتمع انطلاقا من تغير مزاج الشخص إلى التحولات الاجتماعية العميقة، إن المتأمل لقول الله تعالى ﴿...وَ هُوَ الَّذِي يُرْسِلُ الرِّيَاحَ نُشُرًا بَيْنَ يَدَيْ رَحْمَتِهِ حَتَّى إِذَا أَقَلَّتْ سَحَابًا ثِقَالًا سُقْنَاهُ لِبَلَدٍ مَيِّتٍ فَأَنْزَلْنَا بِهِ الْمَاءَ فَأَخْرَجْنَا بِهِ مِنْ كُلِّ الثَّمَرَاتِ كَذَلِكَ نُخْرِجُ الْمَوْتَى لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ وَ الْبَلَدُ الطَّيِّبُ يَخْرُجُ نَبَاتُهُ بِإِذْنِ رَبِّهِ وَ الَّذِي خَبُثَ لَا يَخْرُجُ إِلَّا نَكِدًا كَذَلِكَ نُصَرِّفُ

---

[1] البقرة : الآية 155.

[2] المائدة : الآية 48.

[3] الأنعام : الآية 165.

[4] محمد الطاهر بن عاشور التحرير و التنوير ج22 ص: 127.

الآيَاتِ لِقَوْمٍ يَشْكُرُونَ ﴾ [1]، ﴿ اللَّهُ الَّذِي يُرْسِلُ الرِّيَاحَ فَتُثِيرُ سَحَابًا فَيَبْسُطُهُ فِي السَّمَاءِ كَيْفَ يَشَاءُ وَ يَجْعَلُهُ كِسَفًا فَتَرَى الْوَدْقَ يَخْرُجُ مِنْ خِلَالِهِ ،فَإِذَا أَصَابَ بِهِ ، مَنْ يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ ، إِذَا هُمْ يَسْتَبْشِرُونَ وَإِنْ كَانُوا مِنْ قَبْلِ أَنْ يُنَزَّلَ عَلَيْهِمْ مِنْ قَبْلِهِ لَمُبْلِسِينَ فَانْظُرْ إِلَى أَثَرِ رَحْمَةِ اللَّهِ كَيْفَ يُحْيِي الْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا إِنَّ ذَلِكَ لَمُحْيِي الْمَوْتَى وَهُوَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ وَلَئِنْ أَرْسَلْنَا رِيحًا فَرَأَوْهُ مُصْفَرًّا لَظَلُّوا مِنْ بَعْدِهِ يَكْفُرُونَ ...﴾ [2] يدرك الأثر الذي تحدثه المسخرات في حياة الإنسان ، يشير الطاهر بن عاشور إلى تأثير العامل البيئي و مظاهر التسخير في تغير و تبديل أحوال الناس في تعليقه على الآية السابقة من سورة الروم بقول: « و ذكر اختلاف أحوال العباد في وقت انحباسه بين استبشار و إبلاس وإدماج للتذكير برحمة الله إياهم و الاعتبار باختلاف تأثر نفوسهم في السراء والضراء ،و في ذلك إيماء إلى عظيم تصرف الله في خلقة الإنسان إذ جعله قابلا لاختلاف الانفعال مع اتحاد الفعل و هو خروج الودق من خلاله » [3].

و لذلك فإن دراسة التغيرات الاجتماعية لا يمكن أن تتم بمعزل عن مظاهر التسخير التي وضعت تحت يد الإنسان و تتحكم في الكثير من الأحيان في أنشطته؛ غير أننا سنترك الحديث عن تأثير البيئة و علاقة الإنسان بمظاهر التسخير لنستعرض أولا أنواع التسخير المعروضة في القرآن الكريم .

**ثالثا : أنواع التسخير :**

تنوعت و تعددت مظاهر التسخير في القرآن الكريم ، إذ لم يترك شيئا ينتفع به الإنسان دون الإشارة إليه من قريب أو من بعيد ، على سبيل الإجمال تارة أو التفصيل تارة أخرى ، و لعل البشرية لم تعرف كتابا تطرق للطبيعة الظاهرة منها و الباطنة الشاهدة ، منها و الغائبة ،الحية منها و الساكنة ، كالقرآن الكريم ، و عالم الشهادة هو المثال الحي الصارخ الذي يتفاعل معه الإنسان مباشرة و يلمس آثاره بادية صباح مساء ، و الحقيقة أن ما سخره الله للإنسان منه ما هو ظاهر و منه ما هو خفي مستتر و سنحاول أن نتطرق إليها بشيء من التفصيل من خلال عالمي الشهادة و الغيب .

**أ – عالم الشهادة** : حفلت آيات القرآن الكريم بذكر أنواع النبات و الحيوان من أبسط نوع إلى أعقده فذكرت النملة و العنكبوت و الذبابة بجانب الفيل و الخيل و الجمل و ذكر النخيل و الزيتون و الرمان إلى جانب العنب و الحب و أنوع كثيرة من الخضروات

---

[1] سورة الأعراف : الآية 57-58 .

[2] الروم الآية 48....51.

[3] محمد الطاهر بن عاشور التحرير و التنوير ج21 ص :122 .

و الفواكه، هذا بالإضافة إلى ما تتخذه الحيوانات من أنواع العلف، و لم تقتصر المسخرات على المظاهر الحية الحيوانية و النباتية ، بل تعددت و تنوعت لتشمل مظاهر الطبيعة الساكنة كالجبال و الأنهار ، و البحار ، و الصخور و الرياح و الأمطار ... و السحب، و الرعد و البرق ....رغم أن الإنسان يشعر في الكثير من الأحيان بالضعف و العجز بجانب ما تبديه هذه المسخرات من قوة، إلا أنه مع ذلك استطاع أن يذللها و يسخرها بما يعود عليه بالنفع و الفائدة، كل هذه المظاهر يجملها القرآن في بضع آيات منها قوله تعالى: ﴿ وَ الأَنْعَامَ خَلَقَهَا لَكُمْ فِيهَا دِفْءٌ وَ مَنَافِعُ وَ مِنْهَا تَأْكُلُونَ وَ لَكُمْ فِيهَا جَمَالٌ حِينَ تُرِيحُونَ وَ حِينَ تَسْرَحُونَ وَ تَحْمِلُ أَثْقَالَكُمْ إِلَى بَلَدٍ لَمْ تَكُونُوا بَالِغِيهِ إِلاَّ بِشِقِّ الأَنْفُسِ إِنَّ رَبَّكُمْ لَرَؤُوفٌ رَحِيمٌ وَ الخَيْلَ وَ البِغَالَ وَ الحَمِيرَ لِتَرْكَبُوهَا وَ زِينَةً وَ يَخْلُقُ مَا لاَ تَعْلَمُونَ وَ عَلَى اللهِ قَصْدُ السَّبِيلِ وَ مِنْهَا جَائِرٌ وَ لَوْ شَاءَ لَهَدَاكُمْ أَجْمَعِينَ ﴾[1] ، ﴿ فَلْيَنْظُرِ الإِنْسَانُ إِلَى طَعَامِهِ إِنَّا صَبَبْنَا المَاءَ صَبًّا ثُمَّ شَقَقْنَا الأَرْضَ شَقًّا فَأَنْبَتْنَا فِيهَا حَبًّا وَ عِنَبًا وَ قَضْبًا وَ زَيْتُونًا وَ نَخْلاً وَ حَدَائِقَ غُلْبًا وَ فَاكِهَةً وَ أَبًّا مَتَاعًا لَكُمْ وَ لِأَنْعَامِكُمْ ﴾[2] ، ﴿هُوَ الَّذِي يُرِيكُمُ البَرْقَ خَوْفًا وَ طَمَعًا وَ يُنْشِئُ السَّحَابَ الثِّقَالَ وَ يُسَبِّحُ الرَّعْدُ بِحَمْدِهِ وَ المَلاَئِكَةُ مِنْ خِيفَتِهِ وَ يُرْسِلُ الصَّوَاعِقَ فَيُصِيبُ بِهَا مَنْ يَشَاءُ... ﴾[3] .

إلا أن السؤال الذي يطرح نفسه: كيف استطاع الإنسان أن يسخر الجمل و الحصان و يستفيد من التنوع النباتي في طعامه و يسخر الرياح و الحديد في كل أغراضه و مآربه؟.

الواقع أن الله تبارك و تعالى هو الذي هيأ للإنسان المقام في الأرض قبل خلقه ابتداء، و جعلها مطواعا للإنسان كما ركب في هذه الحيوانات و النبات غريزة

---

[1] النحل : الآية 5.....9.

[2] عبس : الآية 24....32.

[3] الرعد : الآية 12-13.

الانقياد و التذليل، و إلا فكيف نفسر بقاء بعض الحيوانات عصية عن طوع الإنسان و إرادته، هذا من جانب و من جانب أخر لو لم تكن العناية الإلهية هي المدبرة و هي المسخرة فلا وجه لمقارنة قوة الإنسان مع قوة الحيوان حتى أصغر خلقة و إلى هذا المعنى تشير الآية الكريمة ﴿وَإِنْ يَسْلُبْهُمُ الذُّبَابُ شَيْئًا لَا يَسْتَنْقِذُوهُ مِنْهُ ضَعُفَ الطَّالِبُ وَالْمَطْلُوبُ﴾[1]، يقول العلامة الرازي: « ...و التسخير عبارة عن القهر، لا يليق ذلك إلا بمن هو قادر يجوز أن يقهر فكيف يصح ذلك في الليل و النهار و في الجمادات و الشمس و القمر ؟ و الجواب أنه سبحانه و تعالى لما ذكر هذه الأشياء على طريقة واحدة مطابقة لمصالح العباد صارت شبيهة بالعبد المنقاد المطواع، فهذا المعنى أطلق على هذا النوع من التدبير لفظ التسخير »[2]، كما ركب الله في الإنسان خاصية العقل، به امتاز عن سائر المخلوقات الأخرى و بفضله استطاع أن يسخر الجمل و الحصان و يوقد النار و يستثمر كل مظاهر الحياة الأخرى، فعرف البحر و مخر عبابه و استخرج منه حليه و كنوزه كما عرف الريح و ما تحمله من تباشير النعمة أو ما تحمله من علامات النقمة، و أدرك بفضل قوة العقل ما تستطيع أن تقوم به أنواع بسيطة من المخلوقات من خدمات يعجز أو يستحيل عليه القيام بها .

بل إن الإنسان في حد ذاته مسخر لبني جنسه فهو في حاجة إلى أخيه الإنسان ليحصل على لقمة عيشه، و إلى هذا النوع من التسخير يشير الجاحظ [3] بقوله « ثم اعلم رحمك الله تعالى أن حاجة بعض الناس إلى بعض صفة لازمة في طبعهم ،و خلقة قائمة في جوارهم و ثابتة لا تزايلهم ،و محيطة بجماعتهم و مشتملة على أدناهم

---

[1] الحج : الآية 73.

[2] الفخر الرازي التفسير الكبير ج20 ص: 4.

[3] هو أبو عثمان عمر بن بحر بن محبوب الكناني التميمي البحري لقب بالجاحظ لجحوظ عينيه ولد سنة 160هـ 777م بالبصرة نشأ يتيما فقير ميالا إلى العلم، خالط كبار العلماء في مسجد البصرة مما أعانه على تحصيل علوم العربية و غيرها فأخذ علوم اللغة و الأدب من أبي عبيدة و الأصمعي و غيرهم و علم الكلام عن إبراهيم بن سيار المعروف بالنظام انتسب الجاحظ إلى فرقة المعتزلة و كان له أتباع عرفوا بالجاحظيين ، رحل إلى بغداد و اتصل بكبار العلم و الأدب، عمل في ديوان الرسائل عند الخليفة المأمون ثم استقدمه الخليفة المتوكل لتأديب بعض ولده ، نال احترام الخلفاء و الامراء فقربوه إليهم ، تنقل الجاحظ في البلاد الإسلامية، ألف العديد من الكتب بلغت 360 كتابا توفي سنة 255هـالموافق ات869 م.

و أقصاهم ، و حاجتهم إلى ما غاب عنهم مما يعيشهم و يحييهم » [1] ، هذه الحاجة هي التي تدفع بالإنسان إلى التعاون و التآزر مع بني جنسه فالحاكم في حاجة إلى المحكومين و المحكومون في حاجة إلى الحاكم و الصانع بحاجة إلى صاحب المال و صاحب المال بحاجة إلى الصانع و هكذا دواليك.. فتتفاوت مراتبهم بحسب ما يقومون به من عمل ، و في النهاية كل يحقق مآربه و يصل إلى غايته في إطار من التكامل على حد قول الشاعر :

الناس للناس من بدو و من حاضرة  بعض لبعض و إن لم يشعروا خدموا [*]

فلا غرو حينما نجد أن الآية تشير إلى هذا النوع من التسخير في إطار من التكامل و التعاون قال تعالى : ﴿أَهُمْ يَقْسِمُونَ رَحْمَةَ رَبِّكَ نَحْنُ قَسَمْنَا بَيْنَهُمْ مَعِيشَتَهُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَرَفَعْنَا بَعْضَهُمْ فَوْقَ بَعْضٍ دَرَجَاتٍ لِيَتَّخِذَ بَعْضُهُمْ بَعْضًا سُخْرِيًّا وَرَحْمَةُ رَبِّكَ خَيْرٌ مِمَّا يَجْمَعُونَ﴾ [2] .

يقول الزمخشري في تفسيره لهذه الآية « ... ثم ضرب بهم مثلا فاعلم أنهم عاجزون عن تدبير خويصة أمرهم و ما يصلحهم في دنياهم و أن الله عز و جل هو الذي قسم بينهم معيشتهم و قدرها و دبر أحوالهم تدبير العالم بها، فلم يسو بينهم و لكن فاوت بينهم في أسباب العيش، و غاير منازلهم فجعل أقوياء و ضعفاء و أغنياء و محاويج و موالي و خدما، يصرف بعضهم بعضا في حوائجهم و يستخدموهم في أشغالهم حتى يتعايشوا و يترافدوا و يصلوا إلى منافعهم و يحصلوا على مرافقهم و لو وكلهم إلى أنفسهم وولاهم تدبير أمرهم لضاعوا و هلكوا، و إذا كانوا في تدبير المعيشة الدينية في الحياة الدنيا على هذه الصفة فما ضنك بهم في تدبير أمور الدين الذي هو رحمة الله الكبرى و رأفته العظمى ؟ ...» [3] .

---

[1] الجاحظ الحيوان ج1 تحقيق عبد السلام محمد هارون دار الجيل بيروت – لبنان سنة 1992 ص: 35.

[*] ينسب البيت إلى المعري

[2] الزخرف : الآية 32.

[3] الزمخشري محمود بن عمر الكشاف مج1 دار الكتاب لبنان ط: 3 سنة 1987 ص: 248 .

نود أن نشير هنا إلى أن إقرار القرآن إلى تفاوت النـــاس في ســبيل العيــش و مراتبــه لا يعــني ذلــك إقراره مفهوم الطبقية التي اتخذها الماركسية عنوانـــا لكفاحــها السياســي والاقتصــادي و مطالبتــها بتغيــير وجه العالم؛ إن العلاقة التي تربط العالم برب العمل و الفــلاح بصــاحب الأرض ليســت علاقــة اســتغلال و تسلط بقدر ما هي علاقة تكامل و تبــادل للمنــافع و لذلــك جــاءت تشريعــات الإســلام و أحكامــه تصب في هذا الإطار لتوطيد روح التعاون و التناصح و الإيثـــار و حــب الخـــير، علــى النقيــض مــن ذلك تعمل الماركسية على زرع الكره والحقد وروح الانتقام و إشــاعة كــل مظــاهر العــداء في المجتمــع؛ إن قول الرسول صلى الله عليه وسلم : « إِنَّ اللهَ يُحِبُّ إِذَا عَمِلَ أَحَدُكُمْ عَمَلاً أَنْ يُتْقِنَهُ » [1] ، و قولــه : « أَعْطُوا الأَجِيرَ حَقَّهُ قَبْلَ أَنْ يُجِفَّ عَرَقُهُ » [2] ، و قوله أيضا: « مَــنْ أَحْيَــا أَرْضًــا مَوَاتًــا فَــهِيَ لَــهُ » [3] و غيرها من الشواهد التي تصب كلها في الإطــار العــالم لفلســفة الإســلام القائمــة علــى إعمــار الأرض و تحقيق الظروف الملائمة ليؤدي الإنسان دوره على أكمل وجـــه في حــين لا تتــوانى الماركســية مــن أجــل تحقيق أهدافها من سلوك كل السبل حتى و لو كانت نتائجــها الخــراب و الدمــار .

**ب- عام الغيــب :**

ما يميز القرءان الكريم إفراده لمساحات واسعة للمسألة الغيبيــة ، فهـــو بالإضافــة إلى تناولــه لمظــاهر التسخير المرئية و المحسوسة و المعبر عنـــها بعــالم الشــهادة ، يشــير إلى وجــود مســخرات فــوق الإدراك البشري، تساهم بشكل أو آخر في إيجاد و صنع التفاعل بين الإنســان و مظــاهر الحيــاة ، هــذه المخلوقــات تندرج في التعبير القرآني في كلمة الغيب؛ ترددت في القرءان مســميات لمخلوقــات غيبيــه بــالتصريح تــارة و بالتلميح تارة أخرى، و من المخلوقــات التــي صرح القـــرآن الكــريم بوجودهــا الجــن و الملائكــة ، و أخرى كثيرة وردت الإشارة إليـــها بصيغــة العمــوم كقولــه تعــالى :﴿ وَمَا مِنْ دَابَّةٍ فِي الأَرْضِ وَلا طَائِرٍ يَطِيرُ بِجَنَاحَيْهِ إِلاَّ أُمَمٌ أَمْثَالُكُمْ ، مَا فَرَّطْنَا فِي الْكِتَابِ مِنْ شَيْءٍ ثُمَّ إِلَى رَبِّهِمْ يُحْشَرُونَ ﴾ [4] ﴿ ... وَ يَخْلُقُ مَا لا تَعْلَمُونَ ﴾ [5]؛ و السؤال المنطقي الذي يطرح نفسه ما علاقــة هــذه المخلوقــات الغيبيــة بمظــاهر التسخير و بالإنسان على وجه الخصوص ؟؛ و الحقيقة أن آيات عــدة تنــاولت هــذه المخلوقــات الغيبيــة ( الجن و الملائكة ) من خلال تعاونها مع الإنسان و مشـــاركته أفراحــه و أحزانــه بــل في دفعــه إلى ســلوك مسالك معينة أو اتخاذ جملة من القــرارات الحاسمــة .

---

(1) الهيثمي مجمع الزوائد و منبع الفوائد مج4 كتاب الجوامع 2 ح رقم : 53.

(2) البخاري الجامع الصحيح مج2 : كتاب البيوع ح رقم 106 ،كتاب الإجارة ح رقم 10 و ابن ماجة في الرهن ، ح رقم 4 .

(3) الدارمي سنن الدارمي مج2 كتاب البيوع ح رقم 65 ، و أحمد مج3 ص: 304 .

(4) الأنعام : الآية 38 .

(5) النحل : الآية 8 .

كانت مشاركة الملائكة بقيادة جبريل عليه السلام في معركة بدر حاسمة في تغير و جهة المعركة و للحفاظ على العصبة المؤمنة و دفع الدعوة الإسلامية قدما إلى الأمام لتحقيق أهدافها ، هذا التأييد الملائكي تجسده الآية الكريمة ﴿ إِذْ تَسْتَغِيثُونَ رَبَّكُمْ فَاسْتَجَابَ لَكُمْ أَنِّي مُمِدُّكُمْ بِأَلْفٍ مِنَ الْمَلَائِكَةِ مُرْدِفِينَ ﴾ [1] .

إن الصورة التي تقدمها الآيات القرآنية عن الملائكة بصفتها مخلوقات نورانية تدفع الإنسان إلى عمل الخير و تتألم لكل عمل يسير في نقيض هذا التوجه .

بينما على النقيض من ذلك تقف مخلوقات أخرى غيبية يعبر عنها القرآن **بالشياطين** يرأسها إبليس اللعين تدفع بالإنسان في اتجاه الشر و كل عمل يتصف بالقذارة و الرجس، و من ثم نجد هذا النوع من المخلوقات يقترن ذكره في القرءان **بأنواع** الموبقات كلها ، و هذه الآيات تؤكد هذا المعنى بوضوح قال تعالى:

﴿وَلَا تَأْكُلُوا مِمَّا لَمْ يُذْكَرِ اسْمُ اللَّهِ عَلَيْهِ وَإِنَّهُ لَفِسْقٌ وَإِنَّ الشَّيَاطِينَ لَيُوحُونَ إِلَىٰ أَوْلِيَائِهِمْ لِيُجَادِلُوكُمْ وَإِنْ أَطَعْتُمُوهُمْ إِنَّكُمْ لَمُشْرِكُونَ﴾[2] ، ﴿إِنَّمَا يُرِيدُ الشَّيْطَانُ أَنْ يُوقِعَ بَيْنَكُمُ الْعَدَاوَةَ وَالْبَغْضَاءَ فِي الْخَمْرِ وَالْمَيْسِرِ﴾[3] ، و لعل كلمة الجن هي اقرب المصطلحات التي يشار إليها عادة للتقاء و تعاون القدرة الإنسانية مع المخلوقات الغيبية و الحقيقية أن الجن مخلوق كبقية المخلوقات الأخرى فيه المؤمن و فيه أيضا الكافر بدليل قوله تعال: ﴿وَإِذْ صَرَفْنَا إِلَيْكَ نَفَرًا مِنَ الْجِنِّ يَسْتَمِعُونَ الْقُرْآنَ فَلَمَّا حَضَرُوهُ قَالُوا أَنْصِتُوا فَلَمَّا قُضِيَ وَلَّوْا إِلَىٰ قَوْمِهِمْ مُنْذِرِينَ ﴾[4] .

---

[1] الأنفال : الآية : 9 .

[2] الأنعام : الآية 121.

[3] المائدة : الآية : 91 .

[4] الأحقاف : الآية : 29.

و الصورة الواضحة لتسخير المخلوقات الغيبية ما ذكره الله بشأن سليمان عليه السلام و امتلاكه لناصية الجن و تسخيرها لخدمته ﴿ وَلِسُلَيْمَانَ الرِّيحَ غُدُوُّهَا شَهْرٌ وَرَوَاحُهَا شَهْرٌ وَأَسَلْنَا لَهُ عَيْنَ الْقِطْرِ وَمِنَ الْجِنِّ مَنْ يَعْمَلُ بَيْنَ يَدَيْهِ بِإِذْنِ رَبِّهِ وَمَنْ يَزِغْ مِنْهُمْ عَنْ أَمْرِنَا نُذِقْهُ مِنْ عَذَابِ السَّعِيرِ﴾[1] ، و من المؤكد أن هذه المخلوقات الغيبية تساهم بشكل أو بآخر في إحداث التغيرات الاجتماعية بما تلهم من أفكار و تصورات أو بما تشارك من أعمال و ممارسات، إن قول الله تعالى لإبليس اللعين و هو إحدى هذه المخلوقات الغيبية ،﴿وَاسْتَفْزِزْ مَنِ اسْتَطَعْتَ مِنْهُمْ بِصَوْتِكَ وَأَجْلِبْ عَلَيْهِمْ بِخَيْلِكَ وَرَجِلِكَ وَشَارِكْهُمْ فِي الْأَمْوَالِ وَالْأَوْلَادِ وَعِدْهُمْ وَمَا يَعِدُهُمُ الشَّيْطَانُ إِلَّا غُرُورًا ﴾[2] .

تؤكد مساهمة هذه المخلوقات الغيبية في قدر كبير في الأحداث الإنسانية و مشاركة إبليس كما تبين الآية، تتعلق بأبرز مظاهر التسخير التي وضعت تحت تصرف الإنسان و من ثم جاء في تفسير هذه الآيات « ...أما المشاركة في الأموال و الأولاد فكل معصية يحملهم عليها في بابها كالربا و المكاسب المحرمة و البحيرة و السائبة و الإنفاق في الفسوق و الإسراف و منع الزكاة و التوصل إلى الأولاد بسبب الحرام و دعوى ولد بغير سبب ...و الحمل على الحرف الذميمة و الأعمال المحضورة و غير ذلك ...»[3] .

و الشيء المؤكد أن ما سخره الله للإنسان من مظاهر ظاهرة باطنة مشاهدة و غير مشاهدة يعجز الإنسان عن إحصائها بله أن يدركها و من ثم جاء التقرير

---

(1) سبأ: الآية 12.

(2) الإسراء: الآية 64.

(3) الزمخشري : الكشاف ، مج2، ص 678.

الربـاني ﴿ وَإِنْ تَعُدُّوا نِعْمَةَ اللَّهِ لَا تُحْصُوهَا ... ﴾ [1] .

« و لذلك ستظل عقول الخلق قاصرة عن معرفة أقسام نعم الله تعالى و أن كل جزء من آجزاء البدن الإنساني لو ظهر فيه أدنى خلل لتنغص العيش على الإنسان و لتمنى أن ينفق كل الدنيا حتى يزول عنه ذلك الخلل ، ثم إنه تعالى يدبر أحوال بدن الإنسان على وجه الأكمل و الأصلح ...» [2] .

إن تنوع مظاهر التسخير التي وضعت بين يدي الإنسان يدفعنا للتساؤل عن طبيعة العلاقة التي ينبغي أن تكون بين الإنسان و هذه المخلوقات، و لفهم حقيقة هذه العلاقة ينبغي أن نقف أولا على الأسس التي تقوم عليها لاسيما و قد اتضح المفهوم القرآني للتسخير .

**رابعا : أسس التسخير**

إن الدراسة السابقة لمدلول كلمة التسخير جعلتنا نحدد بصفة دقيقة العناصر الرئيسية التي تشكل سنة التسخير ، و على ضوئها أمكنتنا تحديد طبيعة العلاقة الموجودة بين هذه العناصر ،و في الحقيقة أن هذه العناصر هي بمثابة الأسس و اللبنات التي يقوم عليها التصور القرآني لهذه السنة ، و لذلك نرى ضرورة التطرق إليها و تبيانها حتى تكتمل الصورة و يتضح المفهوم أكثر فأكثر .

إن التسخير هو نتاج العلاقة القائمة بين الله سبحانه و تعالى بصفته مسخرا و بين الإنسان على اعتبار أنه الكائن الوحيد الذي وضعت تحت تصرفه و تدبيره هذه المسخرات و بين مظاهر التسخير، هذه العناصر الثلاث هي بمثابة الأسس التي تقوم عليها سنة التسخير في المدلول القرآني و لذلك سنتطرق لكل واحدة منها بشيء من التفصيل .

---

[1] سورة إبراهيم : الآية : 34.

[2] فخر الدين الرازي ، التفسير الكبير ،مج20، ص :15.

### أ- تسخير الله للكائنات :

إن كل مظهر من مظاهر التسخير ، الظاهرة منها و الباطنة ، الحية و الساكنة الشاهدة و الغائبة تنبئ عن الله سبحانه و تعالى، و تشهد بعنايته و بحكمته الباهرة فهو موجد هذه المخلوقات و هو الذي أودع فيها قابلية التذليل و التهيئة و القهر فلولا الله سبحانه و تعالى لما استطاع الإنسان أن يسخر هذه المخلوقات و لولا إلهامه له لما عرف كيف يزرع و يحصد و يدخر، و يركب البحر و يستخرج اللؤلؤ و المرجان .بل كيف يدفع أذيتها عنه ، و لذلك فكل الآيات القرآنية الواردة في هذا الشأن أو التي تشير إلى أ نعم الله على الإنسان تبرز بوضوح العلاقة التي تربط هذه المسخرات بالمسخر و النعم بالمنعم إن قول الله تعالى يؤكد هذا المعنى بكل وضوح .

قال تعالى :﴿هُوَ الذِي جَعَلَ الشَّمْسَ ضِيَآءً وَالقَمَرَ نُورًا وَ قَدَّرَهُ مَنَازِلَ لِتَعْلَمُوا عَدَدَ السِنِينَ وَالحِسَابَ مَا خَلَقَ اللهُ ذَلِكَ إِلاَ بِالحَقِ نُفَصِلُ الآيَاتِ لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ﴾ [1] .

﴿وَهُوَ الذِي مَدَّ الأَرْضَ وَجَعَلَ فِيهَا رَوَاسِيَ وَأَنْهَارًا وَمِنْ كُلِ الثَّمَرَاتِ جَعَلَ فِيهَا زَوْجَيْنِ اثْنَيْنِ يُغْشِي اللَيْلَ وَالنَهَارَ إِنَ فِي ذَلِكَ لآيَاتٍ لِقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ﴾[2]

لا هدف للإنسان و لا غاية له في هذه الحياة إلا عبادة الله المسخر و المنعم الواهب للحياة و هي غاية مشتركة تشاركه فيها بقية المخلوقات الأخرى سواء التي أعطى السيادة عليها أو الخارجة عن سلطانه بدليل قوله تعالى : ﴿وَمَا خَلَقْتُ الجِنَّ وَالإِنْسَ إِلاَّ لِيَعْبُدُونِ مَا أُرِيدُ مِنْهُمْ مِنْ رِزْقٍ وَمَا أُرِيدُ أَنْ يُطْعِمُونِ إِنَّ اللهَ هُوَ الرَزَّاقُ ذُو القُوَةِ المَتِينُ﴾ [3]

---

[1] يونس : الآية 5.

[2] الرعد : الآية 3. 4

[3] الذاريات : الآية 56-57

﴿يُسَبِّحُ لَهُ السَّمَاوَاتُ السَّبْعُ وَالْأَرْضُ وَمَنْ فِيهِنَّ وَإِنْ مِنْ شَيْءٍ إِلَّا يُسَبِّحُ بِحَمْدِهِ وَلَكِنْ لَا تَفْقَهُونَ تَسْبِيحَهُمْ إِنَّهُ كَانَ حَلِيمًا غَفُورًا﴾ [1] .

إن تأكيد القرءان على فعل القدرة الإلهية في مظاهر الحياة الظاهرة و الباطنة ، يؤكد بما لا يدع مجالا للشك ,انتفاء ما يصطلح عليه بالصدفة أو إرادة الطبيعة الصماء و إنما هي إرادة القدرة الإلهية التي تهيمن على الكون هذا من جانب و من جانب آخر تأكيد على غائية الحياة و أن لكل مظهر من مظاهر الحياة غاية و هدفا خلق لأجله ،فوجود الحياة و مظاهر الطبيعة إنما هدف منها عبادة الله و ليست تمثيلية لا معنى لها ! .

## ب- تذليل و انقياد المسخرات للإنسان :

إن الحديث عن المسخر يقود حتما للحديث عن من سخرت له هذه المخلوقات و عن الميزة التي جعلته يحظى بهذا التشريف و التبجيل، و الحقيقة أن القرآن فصل القول في هذه القضية من البداية إذ اعتبر المخلوق الأدمي المعبر عنها بالانسان هو الكائن الوحيد المهيأ و القادر على تحمل تبعات هذه المسؤولية و هذا قبل خلقه وتكليفه، ﴿وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَائِكَةِ إِنِّي جَاعِلٌ فِي الْأَرْضِ خَلِيفَةً﴾[2] و هذه المسؤولية و هذا التشريف جعله يتبوأ مكان الصدارة في العالم و لأدل على ذلك سجود الملائكة له اعترافا منهم بمكانة آدم و تفضيله عليهم و بقداسة العمل الذي ينتظر منه القيام به.

إن المتأمل في خلقة الإنسان يدرك بداهة السر في اختيار الله له و تحميله مسؤولية عمارة الأرض وخلافة الله عز وجل، إذ جعله منتصب القامة مهيأ لعمارة الأرض وركب فيه من الشهوة مما يجعله يستمتع بخيرات الأرض ويستفيد من كل مظهر من مظاهر التسخير، وبالإضافة إلى ذلك زوده الله بجوهر العقل، وبفضله

---

[1] الإسراء :الآية 44

[2] البقرة :الآية 30.

استطاع أن يغير ويبدل في مظاهر الحياة فأنشأ حضارة وصنع مدنية وترك آثار تشير بشكل واضح إلى التطور الذي شهده الإنسان ، بينما تنعدم هذه الصفات والخصائص في بقية المخلوقات الأخرى ومن ثم ندرك سبب إحجام السماوات والأرض والجبال عن تحمل الأمانة حينما عرضها الله عليها وتحملها الإنسان، ولذلك جاء التفضيل والتكريم واضحا وصريحا في القرآن الكريم، قال تعالى: ﴿وَلَقَدْ كَرَّمْنَا بَنِي آدَمَ وَحَمَلْنَاهُمْ فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ وَرَزَقْنَاهُمْ مِنَ الطَّيِّبَاتِ وَفَضَّلْنَاهُمْ عَلَى كَثِيرٍ مِمَّنْ خَلَقْنَا تَفْضِيلًا﴾[1].

يعلق الزمخشري على الآية بقوله: «...كرمه الله بالعقل، والنطق، والتمييز و الخط ، والصورة الحسنة والقامة المعتدلة، وتدبير أمر المعاش والمعاد، وقيل بتسليطهم على ما في الأرض وتسخيره لهم، وقيل كل شيء يأكل بفمه إلا ابن آدم»[2] وفي هذه المسألة أيضا يقول العلامة بن عاشور :« والتكريم، جعله كريما أي نفيسا غير مبذول ولا ذليل في صورته، ولا في حركة مشيه، وفي بشرته، فإن جميع الحيوان لا يعرف النظافة، ولا اللباس ولا ترفيه المضجع والمأكل، ولا حسن كيفية تناول الطعام والشراب، ولا الاستعداد لما ينفعه ودفع ما يضره ولا شعوره بما في ذاته وعقله من المحاسن فيستزيد منها والقبائح فيسترها ويدفعها، بله الخلو عن المعارف والصنائع وقبول التطور في أساليب حياته وحضارته وقد مثل ابن عباس للتكريم بأن الإنسان يأكل بأصابعه، يريد أنه لا ينتهش الطعام بفمه بل يرفعه إلى فيه بيده ولا يكرع في الماء بل يرفعه إلى فيه بيده , فإن رفع الطعام بمغرفة والشراب بقدح فذلك من زيادة التكريم وهو تناول باليد...»[3] .

إن تكريم الإنسان وتفضيله على سائر المخلوقات يدفع بعيدا شبهة القول بالتطور وانتقال الإنسان من خلقة إلى أخرى عبر السنين، بدليل أن كل المخلوقات من أدناها إلى أعلاها مرتبة لا تشابه بله تضاهيه في تفكيره وعقله ومدنيته وبكلمة

---

[1] الإسراء : الآية 70.

[2] الزمخشري الكشاف مج2 دار الكتاب العربي ص:680.

[3] محمد الطاهر بن عاشور التحرير والتنوير ج15 ص:165.

مختصرة هو نسيج من صنع خاص، وظل يحافظ على هذا التميز منذ أن اختير كخليفة الله على الأرض، ولذلك فهو مطالب بالعبادة والشكر في مقابل التكريم والتشريف.

إن وضع المسخرات بما فيها المخلوقات الأرضية تحت تصرف الإنسان و تذليلها له بما يخدم مصالحه وأهدافه،قد توحي بأن العلاقة التي تربط الإنسان بمظاهر التسخير هي علاقة مبنية على السيطرة والقهر، ومن ثم حق لنا أن نتساءل عن طبيعة هذه العلاقة؟

ولماذا تبدي الطبيعة في الكثير من الأحيان الغضب تجاه ممارسات الإنسان مع أنها مسخرة ومذللة له، لهذا نرى ضرورة دراسة العلاقة التي تربط الإنسان بالطبيعة وفق المفهوم القرآني للتسخير ومقارنتها بالنظريات التي تناولت هذا الموضوع.

**خامسا : علاقة الإنسان بالطبيعة:**

مصطلح الطبيعة في القرآن الكريم يشير إلى الكون بأسره من سماوات وأرض وجبال وصخور ونبات وحيوان وتربة..كل هذه المخلوقات تشكل المفهوم العام للطبيعة، فهي إذن ثمرة التفاعل بين عالم الغيب والشهادة، فلا يمكن للإنسان بصفته -فردا أو جماعة -أن يستخلص طعامه وشرابه وملبسه من غير تكاثف وتظافر كل هذه القوى «فإنبات حبة واحدة -على سبيل المثال- يحتاج إلى القوة المهيمنة على هذا الكون لتسخر أجرامه وظواهره في إنبات هذه الحبة وإمدادها بعوامل الحياة من تربة وماء وأشعة و هواء....إن ، أقل رزق يرزقه الكائن الإنساني في هذا الكون يقتضي تحريك أجرام هذا الكون وفق ناموس يوفر مئات من المرافقات المتواكبة المتناقضة التي لولاها لم يكن لهذا الكائن ابتداء وجود و لم تكن له بعد وجوده حياة وامتداد...»[1]

فالطبيعة لا تقتصر على البيئة التي يراد منها عادة المظاهر الحسية المشاهدة والتي

---

[1] سيد قطب في ظلال القرآن مج5، ، ط3، دار أحياء التراث العربي بيروت-لبنان. ص:168

تؤثر في الإنسان تأثيرا مباشرا، بل كل ما له علاقة بالإنسان بصورة ظاهرة وباطنة مرئية وغير مرئية، ويدخل ضمن مدلولات هذا المصطلح، والبيئة جزء من هذه المؤثرات، وعلى ضوء هذا الاستدراك نستطيع أن نميز التصور القرآني للطبيعة من المفاهيم والتصورات الوضعية.

إن علاقة الإنسان بالطبيعة جد وطيدة، فهو المخلوق الذي عجن من تربتها ويحمل كل عناصرها، فلا غرو إذ نجده يشابه إلى حد كبير عددا من المخلوقات وتشترك معه في العديد من الخصائص والصفات وإليها تشير العديد من الآيات منها على سبيل المثال لا الحصر قوله تعالى : ﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَا الإِنسَانَ مِنْ سُلَالَةٍ مِنْ طِينٍ ثُمَّ جَعَلْنَاهُ نُطْفَةً فِي قَرَارٍ مَكِينٍ [1] ﴿وَاللهُ أَنبَتَكُم مِنَ الأَرْضِ نَبَاتًا ثُمَّ يُعِيدُكُمْ فِيهَا وَيُخْرِجُكُمْ إِخْرَاجًا﴾ [2]، يعلق الشيخ محمد الطاهر بن عاشور على الآية بقوله :«وأطلق معنى أنبتناكم فعل «أنبتكم»للمشابهة بين إنشاء الإنسان وإنبات النبات من حيث أن كليهما تكوين كما قال تعالى : ﴿وَأَنبَتَهَا نَبَاتًا حَسَنًا﴾[3] إي أنشأها وكما يقولون: زرعك الله للخير، ويزيد وجه الشبه هنا قريبا من حيث إن إنشاء الإنسان مركب من عناصر الأرض، وقيل التقدير، أتبت أصلكم ، أي آدم عليه السلام قال تعالى: ﴿كَمَثَلِ آدَمَ خَلَقَهُ مِنْ تُرَابٍ﴾ [4] »[5].

لم يقصر القرآن علاقة الإنسان بالطبيعة على أصل خلقته بل تعداه إلى أكثر من صعيد، فالطبيعة هي مرتع الإنسان، يستقي منها طعامه وشرابه وكل ما تشتهيه نفسه، ولذلك فهو لا يستطيع الاستغناء عنها في أي لحظة من لحظات حياته، فهو من

---

[1] المومنون: الآية 12-13.

[2] نوح: ا الآية 17 -18.

[3] ءا ل عمران: الآية 37.

[4] ءآل عمران : الاية 59

[5] محمد الطاهر بن عاشور التحرير والتنوير ج29 ص:204.

هذا الجانب عبدا لها يشعر بالضعف حيالها وتبعا لذلك فهو شديد الحساسية لكل تغير يعتري الطبيعة أو أي عنصر من عنصرها، لما له من انعكاس مباشر على حياته النفسية والاجتماعية .

أدرك الإنسان منذ القدم التأثير الذي تحدثه المتغيرات البيئية و الطبيعية فيه فنقل عن فلاسفة اليونان قولهم :«وجميع تغيرات أحوال الحيوان من الناطقين و غيرهم فمن الهواء، هو الذي يغير حالات الناس مرة إلى الغضب و مرة إلى السكون، و إلى الهم والسرور و غير ذلك، و إذا استوت حالات الهواء استوت حالات الناس وأخلاقهم ...»[1] ،و أشار الجاحظ في كتابه الحيوان إلى تأثير تغيير البيئة على الحيوان فلاحظ أن تصرف الطائر الصائد في موطنه يختلف عنه في موطن آخر وهذا الإختلاف يعود في رأيه إلى تغير مزاجه لتغير الظروف المحيطة به و في هذا يقول:«و قد علمنا أن الطائر الصيود من الجوارح ، لو أقام في بلاده مائة عام لم يحدث لمنسره زوائد و عير العانة إذاأقام في غير بلاده احتاج إلى الأخذ من حافره و إلى أن يختلف به إلى البيطار، والطائر الوحشي من هذه المغنيات و النوائح لو أقام عدنا دهرا طويلا لم يصوت إذا أخذناه ، وقد كرز –سقط ريشه– و كذلك المزاوجة و التعشيش »[2] و ما يقال عن الحيوان يقال عن الإنسان ، و لعل ما ذكره العلامة ابن خلدون في أثر البيئة و تنوع الأقاليم الجغرافية و تحكمها في أماكن تواجد الإنسان بل في لون بشرته و نشاطه أيضا أفضل ما نقل عن الأقدمين [3] .

إن هذا التحليل يوضح لنا جليا علاقة الإنسان بالطبيعة و مظاهر التسخير ، هذه العلاقة نوجزها في كلمتين :تأثر و تأثير .

ولما كان للطبيعة هذا التأثير العميق في حياة الإنسان، دفع بالإنسان البدائي إلى إضفاء صفة القداسة عليها و تأليه بعض الظواهر الطبيعية و ما ظاهرة تقديم القرابين إلا دليل على ذلك .

لقد وردت في القرآن الكريم إشارات إلى مثل هذه الظواهر كقوله تعالى : ﴿إِنِّي وَجَدْتُ امْرَأَةً تَمْلِكُهُمْ وَأُوتِيَتْ مِن كُلِّ شَيْءٍ وَلَهَا عَرْشٌ عَظِيمٌ وَجَدْتُهَا وَقَوْمَهَا يَسْجُدُونَ لِلشَّمْسِ مِن دُونِ اللَّهِ وَزَيَّنَ لَهُمُ الشَّيْطَانُ أَعْمَالَهُمْ فَصَدَّهُمْ عَنِ السَّبِيلِ فَهُمْ لَا يَهْتَدُونَ﴾ [4] .

---

[1] المسعودي مروج الذهب و معادن الجواهر مج2 دار المعرفة –بيروت–لبنان سنة 1992 ص:231.

[2] الجاحظ الحيوان ج7 تحقيق عبد السلام محمد هارون ، دار الجيل –بيروت – لبنان سنة 1992 ، ص:100.

[3] تطرف ابن خلدون إى هذا الموض في كتابه المقدمة في فصل تحت عنوان : في المعتدل من الأقاليم و المنحرف و تأثير الهواء في ألوان البشر والكثير في أحوالهم ص: 82...86 .

[4] النمل : الآية : 23-24 .

وقصة [1] إبراهيم الخليل مع عبدة الكواكب ترمز إلى مظاهر التقديس التي أضافها الإنسان على مظاهر الطبيعة . فإذا كان الإنسان البدائي ظل و لفترة من الزمن ينظر لمظاهر التسخير نظرة تقديس و خضوع فإن الإنسان العصري أعلن ثورة عليها و اعتبرها عدوة له، و من ثم فهو في عراك دائم معها للسيطرة عليها و تطويعها أكثر فأكثر لخدمة مصالحه و مآربه؛ أما تأثير الإنسان على الطبيعة فواضح للعيان، لقد وهب هذا المخلوق الآدمي قوة رهيبة جبارة استطاع من خلالها تغيير وجهة الحياة، مما جعله يتميز عن باقي المخلوقات التي بقيت على الكيفية التي وجدت عليها منذ الأزل ، استطاع الإنسان تدجين الحيوان و حراثة الأرض وتنويع مصادر الطاقة وتطويع الحديد وغيره من كنوز الأرض ،ولذلك فهو في حالة تطور دائم و تغير مستمر،لقد انتقل الإنسان من حياة البساطة إلى حياة التعقيد ومن حياة الكهوف إلى ناطحات السحاب ومن حياة الصيد والرعي إلى حياة الصناعة و الزراعة الكيميائية و من حرب الخنجر و الرمح إلى المدافع العملاقة و الصواريخ العابرة للقارات و هو في هذه الأثناء يحاول التطواف بين الكواكب و لا ندري ما يحمله المستقبل؛ إن حضارة الإنسان منذ فجر التاريخ إلى يومنا هذا شاهدة على الأثر الكبير الذي تركه الإنسان في الطبيعة، إن أهرامات الحضارة الفرعونية ، و صور الصين العظيم ، و منطق اليونان ، و حكم فارس ، وشعر العرب و غيرها من الآثار تشهد على مقدرة الإنسان في التغيير و التبديل؛ و لعل قول الله تعالى يشير إلى هذا المعنى:﴿أَوَلَمْ يَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَيَنْظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ كَانُوا أَشَدَّ مِنْهُمْ قُوَّةً وَأَثَارُوا الْأَرْضَ وَعَمَرُوهَا أَكْثَرَ مِمَّا عَمَرُوهَا ...﴾ [2]؛ هذا التأثير و التبديل يصل في الكثير من الأحيان إلى درجة الإفساد و الفساد مما يعود بالوبال على الإنسان و محيطه،فهذا الأثر العكسي لعمل الإنسان في الطبيعة دفع بالعلماء و الدارسين للبيئة على وجه الخصوص، إلى الوقوف على حقيقة التوازن الطبيعي الذي خلق عليه الكون، و أدركوا أن إمعان الإنسان في تحويل مناطق عن طبيعتها، أو القضاء على الكثير من المخلوقات بحجة أذيتها للإنسان يشكل خطرا على الإنسان و يهدد مصيره من حيث لا يدري، و ما مسألة التلوث التي أصبحت شغل العالم اليوم إلا نتيجة لهذا الاستغلال؛ لقد أشار القرآن إلى طبيعة الفساد الذي يعتري الطبيعة بفعل الإنسان و تصرفاته غير المسؤولة بقوله:﴿ظَهَرَ الْفَسَادُ فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ بِمَا كَسَبَتْ أَيْدِي النَّاسِ لِيُذِيقَهُمْ بَعْضَ الَّذِي عَمِلُوا لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ﴾ [3] .

يعلق العلامة بن عاشور على الآية بقوله : « أن الله خلق العالم على نظام محكم ملائم ، صالح للناس فأحدث الإنسان فيه أعمالا سيئة مفسدة فكانت وشائج لأمثالها فأخذ الاختلال يتطرق إلى نظام العالم .... وإن فساد

---

[1] إشارات إلى الآيات 75...78 من سورة الأنعام .

[2] الروم : الآية 9 .

[3] الروم : الآية 41-42-43-44.

البر يكون بفقدان منافعه وحدوث مضاره، مثل حبس الأقوات من الزرع والثمار والكلأ، وفي موتان الحيوان المنتفع به وفي انتقال الوحوش التي تصاد من جراء قحط الأرض إلى أراضي أخرى وفي حدوث الحوائج من جراد وحشرات وأمراض .

وفساد الأرض وكذلك يظهر في تعطيل منافعه من قلة الحيتان واللؤلؤ والمرجان... وكثرة الزوابع الحائلة عن الأسفار في البحر، ونضوب مياه الأنهار وانحباس فيضانها الذي به يستقي الناس...»[1] .

والحقيقة أن شيئا من هذا القبيل يقع بإرادة الله وقدرته و شأنه في تعلق الظواهر بأسبابها و مسبباتها بدليل قوله تعالى: ﴿ وَإِذَآ أَرَدْنَآ أَن نُّهْلِكَ قَرْيَةً أَمَرْنَا مُتْرَفِيهَا فَفَسَقُوا۟ فِيهَا فَحَقَّ عَلَيْهَا ٱلْقَوْلُ فَدَمَّرْنَٰهَا تَدْمِيرًا . . . ﴾[2]

ولذلك نجد العلامة الألوسي يشير إلى هذه القضية في تعليقه على الآية السابقة بقوله : «إن الله أفسد أسباب دنياهم و محقها وبال بعض أعمالهم في الدنيا قبل أن يعاقبهم بجميعها في الآخرة. لعلهم يرجعون عما هم عليه».[3]

إن تصرف الإنسان في الطبيعة إلى حد الإفساد يجعلنا نتساءل عما يجب أن تكون عليه العلاقة بين الإنسان ومظاهر الطبيعة، هل الإنسان خاضع لإرادة الطبيعة ولا فكاك له عنها؟ أم أن الطبيعة هي التي تخضع للإنسان وهو الفاعل المسيطر ، الأمر الناهي؟ .

إن القرآن الكريم وحده هو الذي يستطيع أن يقدم الإجابة الكافية والشافية على كل سؤال يطرحه الإنسان بما فيها ، العلاقة التي تربطه بالطبيعة أو ما يعبر عنها القرآن بسنة التسخير.

---

[1] محمد الطاهر بن عاشور التحرير والتنوير ج:21 ص: 110-112.

[2] الإسراء: الآية 16.

[3] الألوسي شهاب الدين روح المعاني مج 7 ج21 دار الفكر بيروت لبنان ص:48.

## سادسا: صراع الإنسان مع الطبيعة في ميزان القرآن:

إن التأثير المتبادل للإنسان والطبيعة يدفع للتساؤل عن طبيعة العلاقة التي تربط الطبيعة بالإنسان هل تقوم على الود والمحبة أم على الصراع والسيطرة؟

تقف الطبيعة في الكثير من الأحيان حجر عثرة أمام تحقيق الإنسان لمطامحه ورغباته بل أكثر من ذلك، فهي تسبب له الكثير من الأحزان والمتاعب، فالزلازل والبراكين، وسنوات الجفاف والأعاصير وغيرها من الظواهر الطبيعية تترك الإنسان مذهولا خائر العزائم، لا يجد من حيلة سوى الاستسلام لقدره المحتوم.

هذه الغطرسة والتمرد الذي تبديه الطبيعة بين الحين والآخر جعلت الإنسان "البدائي" ينظر إليها نظرة تقديس وتأليه، فهي في نظره علامة لغضب الآلهة لسبب من الأسباب ولذا كان لابد على الإنسان من تكفير أفعاله الشنيعة وذلك بتقديم القرابين مثلما كان يفعل أقباط مصر حين ينخفض منسوب النيل عن المستوى المعهود فهو في نظرهم علامة على غضبه وعدم رضاه ولذلك يقدمون له كل عام أحسن ما عندهم من عرائس لتعود الأمور إلى طبيعتها وليرتفع منسوب النيل...وما إلى ذلك من الأمثلة.

تلك هي صورة الإنسان "البدائي" في علاقته مع الطبيعة بينما يقف منها الإنسان العصري موقف العداء فهو يرى في الكوارث الطبيعية تحد ترفعه الطبيعة في وجهه ومن ثم يسعى دائما وبكل الوسائل للرد على هذا التحدي و السيطرة على مظاهر القلق و الاضطراب، فكل انتصار يحققه الإنسان في معترك الحياة، إنما هو انتصار على الطبيعة، ومن ثم فإن المستقبل القريب يحمل تباشير انتصار الإنسان على قوى الطبيعة،وللتعبير عن هذا العداء الذي يكنه الإنسان للطبيعة يستعمل عادة مصطلح الصراع،«والشيء الملاحظ أن مفهوم الصراع ساد كثيرا في عالمنا خاصة في القرون الأخيرة، وفي الكثير من الأحيان كان الحديث عن العلم باعتباره السلاح الصالح للفوز

في هـذا الصـراع».[1]

إن التصـور القرآني لعلاقـة الإنسـان بالطبيعـة وبكـل مـا تحملـه مـن مظـاهر يقـوم ابتداء علـى اعتبارهـا وسيلة لمعرفـة الله عـز وجـل ودليـلا على قدرتـه وهيمنتـه المطلقـة على الكون، ومن ثـم فـلا يمكـن بـأي حـال مـن الأحـوال إضفـاء صبغـة القداسـة والألوهيـة عليهـا في أي شـكل مـن الأشـكال بـل يعتبرهـا هـي في حـد ذاتهـا مخلوقـا كبقيـة المخلوقـات الأخـرى تخضـع لإرادة الله وتلهـج لـه بالتسـبيح والتحميـد والعبـادة قـال تعـالى :﴿ وَإِنْ مِنْ شَيْءٍ إِلَّا يُسَبِّحُ بِحَمْدِهِ وَلَكِنْ لَا تَفْقَهُونَ تَسْبِيحَهُمْ. [2]﴾.

إن المتـأمل في خلـق الإنسـان يـدرك أنـه مخلـوق مـن عنـاصر الطبيعـة وأن كـل تشـابه بـين الإنسـان والطبيعـة يعـود إلى اشـتراكه في ذات العنـاصر، وهـي الأم الحقيقيـة للإنسـان تفتح له ذراعيها وتضـم جسده بعـد مماتـه ويتحـول إلى أديمهـا على حـد قـول المعـري:

صاح هذه قبورنـا تمـلأ الرحـب فـأين القبـور مـن عهـد عـاد؟

خفـف الـوطء مـا أظـن أديـم الأرض إلا مـن هـذه الأجسـاد

فمـن المفـترض أن تكـون علاقتـه بهـا علاقـة بـر وأمـان وإحسـان لا سـيما أنـه خلـق منهـا وإليهـا يعـود، فعلاقـة الـبر هـذه تسـتوجب منـه ضـرورة المحافظـة عليهـا كلمـا أراد الاسـتمتاع بخيراتهـا، غـير مخـرب ولا مفسـد، وفي الحقيقـة أن هـذه العلاقـة هـي عـين مـا يطلبه القرآن من الإنسـان في كـل تعاملاتـه معهـا ومـع كـل مـا وضـع تحـت يـده مـن أسـباب التسـخير، فـلا يقطـع شـجرا ولا يخـرب عـامرا ولا يحـرق نخـلا فـإذا كـان هـذا شـأنه مـع النبـات والجمـاد فمـن بـاب أولى أن تكـون تلـك سمتـه مـع كـل مخلـوق ذي روح ينبـض بالحيـاة، إننـا إذا أردنـا أن نلخـص نظـرة القـرآن لعلاقـة الإنسـان بالطبيعـة ومظاهرهـا فإننـا

---

[1] صديقي أحمد الديجاني مفهوم الكارثة الطبيعية مطبوعات أكاديمية المملكة المغربية سلسلة الدورات دورة "الكوارث الطبيعية آفة الجراد" (ربيع الثاني 1909 هـ ، 1988 م ) المغرب ، ص 15

[2] الإسراء: الآية 44.

نقول بكلمة واحدة إنها «أنها علاقة انسجامية و معنى الإنسجامية أن الطبيعة خلقت للإنسان وأن الإنسان خلق لها ولا تتحمل هذه النظرية أي تدخل للصدفة أو العبث أو التقتير أو الإسراف في الخلق فالطبيعة مضبوطة مقننة أو بلغت معاصرة مبرمجة مسبقا..» [1] ، بل إن القرآن يأمر الإنسان صراحة بعمارة الأرض بما يحقق أهدافه وغاياته في الحياة، و العمارة تتنافى و كل معاني التبذير و الإسراف و الإفساد، و لأدل على ذلك قول الرسول صلى الله عليه وسلم: «لَوْ أَنَّ فِي يَدِ أَحَدِكُمْ فَسِيلَةً وَاسْتَطَاعَ أَنْ يَغْرِسَهَا فَلْيَفْعَلْ..» [2] .

إن الله سخر الأرض بما فيها للإنسان وذللها له بما يتلاءم و تركيبته الآدمية، وهذا لأجل عمارة الأرض و عبادة الله وحده، و هو الغرض الأساسي من التسخير الذي تناوله القرآن في العديد من المواضع، فعلاقة الإنسان بالطبيعة إذا علاقة تكاملية، إذ لا يمكن أن تكون للحياة أي معنى و لا لمظاهر التسخير أي دون وجود الكائن الإنساني المتصرف الواعي، كما أنه لا يمكن للإنسان أن يصنع حضارة، و لا أن يتميز عن سائر المخلوقات من غير أن تكون تحت تصرفه هذه المسخرات، يتصرف فيها كيف يشاء بكامل حريته و بمطلق إرادته .

« إن الصورة الفذة التي يطرحها القرآن عن ذلك التناغم بين الإنسان و الطبيعة وما وراءها وذلك التوازن الرائع بين تسخير قوى الطبيعة المادية وتصنيعها و بين عبادة الله سبحانه وتعالى، وذلك التقابل المبدع بين النزعتين الجماليتين والعلمية،وهذه المعادلة الواضحة بين جبروت الإنسان وقدرته الفعالة، و بين سببيته و ضعفه و حاجته الدائمة إلى الله وهكذا التأكيد المستمر على حماية الفاعلية البشرية من الجنوح والإنحراف بعيدا عن المتطلبات المادية والطبيعية..نجدها تبلغ القمة في ذلك العرض القرآني الرمزي إن صح التعبير لتجربة داوود وسليمان عليهما السلام، و التي لم تأت عبثا ﴿ وَلَقَدْ آتَيْنَا دَاوُودَ مِنَّا فَضْلًا يَا جِبَالُ أَوِّبِي مَعَهُ وَالطَّيْرَ وَأَلَنَّا لَهُ الْحَدِيدَ أَنِ اعْمَلْ سَابِغَاتٍ وَقَدِّرْ فِي السَّرْدِ وَاعْمَلُوا صَالِحًا إِنِّي بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ ﴾ [3] ..» [4]

إن الإنسان و الطبيعة يسيران في فلك واحد نحو غاية واحدة يتميز الإنسان عنها بأنه ممسك بمقود الحياة و عليه أن يوجه المركب نحو الوجهة الصحيحة و إلا سيدمر نفسه و من معه، ولذلك فهو مسؤول عن هذه القيادة يوم القيامة .

---

[1] عبد المجيد أمزيان النظريات الإقتصادية عند ابن خلدون الشركة الوطنية للنشر و التوزيع سنة 1981 الجزائر ص: 210.

[2] أحمد بن حنبل المسند مج3 ص: 184-185 .

[3] سبأ : الآية 10-11.

[4] عماد الدين خليل التفسير الإسلامي للتاريخ ( مرجع سابق ) ص: 218.

**سابعا: التسخير وعلاقته بالتغيير الاجتماعي:**

خلق الله الإنسان وزوده بموهبة العقل وبفضلها استطاع أن يغير ويبدل في طرائق عيشه وأسلوب حياته، فانتقل من الرعي إلى الزراعة ومن الزراعة إلى الصناعة ومن سكنى الكهف إلى العمارة ومن السير على الأقدام إلى امتطاء الحيوانات والمركبات وهكذا دواليك..

إن المتأمل في مسيرة الإنسان يدرك أنها ليست العقلية الإنسانية وحدها هي التي جعلته يقيم حضارته ويكتب تاريخه، والشيء المؤكد أن ما وضع تحت تصرف الإنسان من مظاهر التسخير والكيفية التي خلقت عليها سهلت عليه مهمة تكييفها وتطويعها بما يحقق رغباته وطموحاته، هذه الخاصية كانت سببا قويا وعاملا أساسيا في كل ما حققه الإنسان من تقدم وتطور، وعلى ضوء هذا التحليل ترتسم العملية التغييرية التي يمارسها الإنسان وأنها لا تتم دون سنة التسخير بكل ما تحمله من مظاهر.

فالمعادلة التغييرية ترتبط في شقيها بسنة التسخير، لأن الإنسان لن يكون له أي أثر في الحياة بله أن يصنع حضارة ما لم تكن مظاهر التسخير تحت إمرته وتصرفه، كما أن جميع مظاهر الحياة لن يكون لها أي معنى أو هدفا غائيا دون الفعل الإنساني، ولما كان الفعل الإنساني تتحكم فيه جملة من القضايا، بدء بأهواء الإنسان ورغباته انعكس بالضرورة على مسار المعادلة التغييرية والعملية ككل، فبدلا من أن تصبح العملية عمارة الأرض وإسعاد الإنسان وهو الطابع الإيجابي تتحول إلى التدمير والإفساد، ولذلك كانت مظاهر التسخير بين الحين والآخر تظهر ردة فعل عنيفة ورهيبة تطيح من غرور الإنسان وتوقفه عند حده وتعيد الأمور إلى نصابها محافظة بذلك على المعمار الكوني وعلى عنصر التوازن الذي سعى الإنسان إلى إخلاله بما يقدم عليه من أعمال وأفعال.

إن قدرة الإنسان الرهيبة في تغيير وجه الحياة، تذكيها رغبته الجامحة في السيطرة والتملك، مما يدفعه ذلك إلى الشعور بالقوة والإستعلاء والاستغناء يجعله يرتكب حماقات تعود بالوبال عليه وعلى محيطه والآية الكريمة تشير إلى هذا الشعور المدمر وما ينتج عنه من سلوك قال تعالى: ﴿كَلَّا إِنَّ الْإِنسَانَ لَيَطْغَىٰ أَن رَّآهُ اسْتَغْنَىٰ إِنَّ إِلَىٰ رَبِّكَ الرُّجْعَىٰ...﴾[1].

إن القرآن الكريم من خلال إشاراته المختلفة لردة الطبيعة على أفعال الإنسان إنما يهدف من ورائها إلى إصلاح ما أفسده الإنسان وذلك بتذكيره بضعفه ووهن قوته لعله يدفعه ذلك إلى مراجعة نفسه والمسار الذي يسير عليه. فالفساد الذي ارتكبه قوم نوح وعاد وقوم لوط وغيرهم من الأقوام تكفلت مظاهر الطبيعة بتطهيره ومحو آثاره بأمر الله عز وجل فتحولت مظاهر التسخير إلى موارد جبار يقصم ظهور الجبابرة ويحطم كبرياءهم والصورة أوضح من كل تعبير ترسم مشاهدها هذه الآيات ﴿فَفَتَحْنَا أَبْوَابَ السَّمَاءِ بِمَاءٍ مُّنْهَمِرٍ وَفَجَّرْنَا الْأَرْضَ عُيُونًا فَالْتَقَى الْمَاءُ عَلَىٰ أَمْرٍ قَدْ قُدِرَ وَحَمَلْنَاهُ عَلَىٰ ذَاتِ أَلْوَاحٍ وَدُسُرٍ تَجْرِي بِأَعْيُنِنَا جَزَاءً لِّمَن كَانَ كُفِرَ﴾،[2] ﴿فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ رِيحًا صَرْصَرًا فِي أَيَّامٍ نَّحِسَاتٍ لِّنُذِيقَهُمْ عَذَابَ الْخِزْيِ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَلَعَذَابُ الْآخِرَةِ أَخْزَىٰ وَهُمْ لَا يُنصَرُونَ﴾[3].

إن الطبيعة ستظل بالمرصاد لكل عمل مفسد يقوم به الإنسان، تشعره دوما بالعجز والضعف مهما أوتي من قوة حتى يعود إلى رشده و إلى طريق الخير والصلاح، ومن رحمة الله بأمة الإسلام أن منع عنها ما أصاب الأقوام السابقة فقد ورد في الحديث الشريف أن رسول الله صلى الله عليه وسلم سأل ربه أن لا يهلك أمته بسنة

---

[1] العلق: الآية 6-7-8.

[2] القمر: الآية 10-11.

[3] فصلت: الآية 16.

عامة، والسنة العامة كالقحط والجفاف وغيرها من مظاهر الطبيعة، فقد أخرج مسلم في الصحيح قوله صلى الله عليه وسلم: «..سَأَلْتُ رَبِّي ثَلاَثًا فَأَعْطَانِي ثِنْتَيْنِ وَمَنَعَنِي وَاحِدَةً، سَأَلْتُ رَبِّي أَنْ لاَ يُهْلِكَ أُمَّتِي بِالسَّنَةِ فَأَعْطَانِيهَا وَسَأَلْتُهُ أَنْ لاَ يُهْلِكَ أُمَّتِي بِالْغَرَقِ فَأَعْطَانِيهَا وَسَأَلْتُهُ أَنْ لاَ يَجْعَلَ بَأْسَهُمْ بَيْنَهُمْ فَمَنَعَنِيهَا..»[1] .

هذا لا يعني أن أمة محمد صلى الله عليه وسلم لا تنطبق عليها سنن الله، وإنما هو دليل على أن الأمة الإسلامية لا يمكن لها بأي حال من الأحوال أن ترتكب من الذنوب بقدر ما ارتكبت الأمم السابقة فاستحقت بذلك العقاب بدليل قوله صلى الله عليه وسلم: «إِنَّ الشَّيْطَانَ قَدْ آيَسَ أَنْ يَعْبُدَهُ الْمُصَلُّونَ فِي جَزِيرَةِ الْعَرَبِ وَلَكِنْ فِي التَّحْرِيشِ بَيْنَهُمْ..»[2] ، فمهما بلغت الأمة الإسلامية من الذنوب فإنها لن تصل إلى الحد الذي يستوجب العقاب الدنيوي أو المحق الأبدي.

إن العملية الحضارية التغييرية في التعبير القرآني لا تتعدى حدود عمارة الكون بما يخدم هدف الإنسان الجوهري في هذه الحياة هذا الهدف المتمثل في خلافة الله وفق المنهج الرباني، هذا التصور هو الذي جعل المسلمين في تاريخهم إبان سيادتهم على العالمين لا ينتهجون منهج من سلفهم كالفرس والرومان في بناء الآثار العظيمة والمباني العملاقة التي لا هدف لها إلا المباهاة وإشباع الغرور، مما يدفعنا إلى التساؤل عن الغاية والهدف من وراء بناء أهرامات الحضارة الفرعونية وعن إيوان كسرى ومسارح الرومان العملاقة هذه الميزة هي التي دفعت بالعلامة ابن خلدون إلى تبين الفارق بين الحضارة الإسلامية وغيرها من الحضارات الأخرى، من خلال فصل عقده في مقدمته تحت عنوان: " في بيان السبب في كون المباني والمصانع في الملة الإسلامية قليلة بالنسبة إلى قدرتها وإلى من كان قبلها من الدول "[3] ، ويرجع سبب ذلك إلى طبيعة الدين الإسلامي فيقول: «..فكان الدين في أول الأمر مانعا من المغالاة في البنيان والإسراف

---

(1) مسلم بن الحجاج صحيح مسلم مج4 كتاب الفتن وأشراط الساعة ح رقم 20 ص: 2216.

(2) مسلم بن الحجاج صحيح مسلم مج4 كتاب صفات المنافقين ح رقم 65 ص2166.

(3) الفصل الثامن من المقدمة.

فيه في غير القصد كما عهد لهم عمر حين استأذنوه في بناء الكوفة بالحجارة وقد وقع الحريق في القصب الذي كانوا بنوا به من قبل فقال: «افعلوا ولا يزيدن أحد على ثلاثة أبيات، ولا تطالوا في البنيان والزموا السنة تلزمكم الدولة وعهد إلى الوفد وتقدم إلى الناس أن لا يرفعوا بنيانا فوق القدر قالوا وما القدر قال : لا يقربكم من السرف ولا يخرجكم عن القصد...»[1] ورسالة عمر بن الخطاب رضي الله عنه تنطلق ابتداء من فهمه لروح الإسلام وحقيقة وظيفة الإنسان في الحياة انطلاقا من عدة نصوص تشريعية منها قوله صلى الله عليه وسلم في الحديث المشهور: «أَنْ تَرَى الحُفَاةَ العُرَاةَ رِعَاءَ الشَّاءِ يَتَطَاوَلُونَ فِي البُنْيَانِ...»[2] إلا أن هذا التحفظ وهذا الإحراج ذهب مع السنين فساروا على نهج من سبقهم فذهبت دولتهم وحضارتهم أدراج الرياح، ولم يخف هذا الأمر عن ابن خلدون مشيرا إليه بقوله «فلما بعد العهد بالدين والتحرج في أمثال هذه المقاصد وغلبت طبيعة الملك والترف واستخدام العرب أمة الفرس وأخذوا عنهم الصنائع والمباني ودعتهم إليها أحوال الدعة والترف فحينئذ شيدوا المباني والمصانع وكان عهد ذلك قريبا بانقراض الدولة»[3] .

صحيح أن مظاهر التسخير تساهم بقدر كبير في صنع الإنسان للحضارة وتغير وجه الحياة نحو الأحسن- كما بين ذلك الأستاذ مالك بن نبي[4] من خلال صياغته لها على شكل معادلة رياضية على النحو التالي:

إنسان + تراب +وقت = حضارة

والتراب إشارة إلى مظاهر التسخير والشيء ذاته أكد عليه تونبي وغيره من الباحثين والمفكرين – بقدر ما تدفع الإنسان إلى تحطيم نفسه ومحيطه لا سيما إذا فقد الهدف والغاية من الحياة، وخيل إليه أن الحياة إنما وجدت لأجل الاستمتاع فحسب

---

(1) ابن خلدون المقدمة الفصل الثامن دار الرائد العربي ط 5 سنة 1982 ص: 385.

(2) مسلم بن الحجاج صحيح مسلم مج1 كتاب الأيمان ح رقم 1 ص:36.

(3) عبد الرحمان بن خلدون المقدمة ص: 358.

(4) مالك بن نبي شروط النهضة ص:50.

ولا هدف غيره.

إن فقدان الهدف معناه طغيان الطابع المادي وتحرر الإنسان من قيادة الروح، فلا عجب إذ نجده يحث الخطى نحو مصرعه ويقترب أكثر فأكثر من منبته، هذه الصورة للعملية التغييرية التي يمارسها الإنسان، متخذا من مظاهر التسخير هدفا له وغاية يعبر عنها القرآن الكريم " بالاستدراج" في قوله تعالى: ﴿وَالَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا سَنَسْتَدْرِجُهُمْ مِنْ حَيْثُ لَا يَعْلَمُونَ وَأُمْلِي لَهُمْ إِنَّ كَيْدِي مَتِينٌ﴾[1] .

ماذا نعني بالاستدراج وما دور المسخرات فيه؟.

**ثامنا: الاستدراج ودور التسخير فيه:**

الاستدراج هو العملية الاجتماعية التي يبدوا فيها تأثير المسخرات واضحا في إحداث التغيرات الاجتماعية والنفسية، وقيام ظواهر واختفاء أخرى، غير أن الشيء الملفت لانتباه تلك العلاقة التلازمية التي تربط الإنسان بمظاهر التسخير، إذ كلما ازدادت معرفة الإنسان بالطبيعة وتسخيرا لخيراتها كلما تحررت غرائزه من عقالها، وعلى قدر حجم الاستمتاع يكون التحرر وهكذا دواليك..بذلك تحدث التغيرات والتبدلات الاجتماعية إلى أن تتغير الصورة كليا. هذا التحول والتبدل لا يقع دفعة واحدة وإنما شيئا فشيئا، مرحلة مرحلة، في أوقات متباعدة، فيتحول الهدف وتتغير الغاية من الاعمار إلى الإفساد ومن عبادة الله إلى مخاصمته في سلطانه وملكوته، هذه المعاني كلها تحملها كلمة الإستدراج، ولذلك نجد العلامة أبا عبيدة يشرح كلمة الاستدراج بقوله: « الاستدراج أن يتدرج إلى الشيء في خفية قليلا قليلا، ولا يهجم عليه وأصله من الدرجة، وذلك أن الراقي والنازل يرقى وينزل مرقاة مرقاة...»[2] .

إن صورة العملية الإستدراجية هذه ترسمها العديد من الآيات القرآنية في قالب

---

[1] الأعراف: الآية 182.

[2] ابن الجوزي زاد المسير في علم التفسير مج3 ص: 294-295.

من التذكير والتحذير في آن واحد، من مغبة الاسترسال في تتبع شهوات النفس لأن ذلك يؤدي حتما إلى حدوث تغيرات غير مرغوب فيها ومن الآيات التي عالجت هذا الموضوع قوله تعالى: ﴿ وَالَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا سَنَسْتَدْرِجُهُمْ مِنْ حَيْثُ لَا يَعْلَمُونَ وَأُمْلِي لَهُمْ إِنَّ كَيْدِي مَتِينٌ﴾.[1] ﴿أَيَحْسَبُونَ أَنَّمَا نُمِدُّهُمْ بِهِ مِنْ مَالٍ وَبَنِينَ نُسَارِعُ لَهُمْ فِي الْخَيْرَاتِ بَلْ لَا يَشْعُرُونَ﴾[2] ﴿ذَرْهُمْ يَأْكُلُوا وَيَتَمَتَّعُوا وَيُلْهِهِمُ الْأَمَلُ فَسَوْفَ يَعْلَمُونَ﴾[3] ﴿فَذَرْنِي وَمَنْ يُكَذِّبُ بِهَذَا الْحَدِيثِ سَنَسْتَدْرِجُهُمْ مِنْ حَيْثُ لَا يَعْلَمُونَ وَأُمْلِي لَهُمْ إِنَّ كَيْدِي مَتِينٌ﴾[4] ﴿أَلْهَاكُمُ التَّكَاثُرُ حَتَّى زُرْتُمُ الْمَقَابِرَ﴾[5] ، وأجد العلامة الرازي أفضل من أدرك العملية الإستدراجية وهو يفسر قول الله تعالى :﴿والذين كذبوا بآياتنا سنستدرجهم﴾ بقوله :[..فالمعنى سنقربهم إلى ما يهلكهم ونضاعف عقابهم من حيث لا يعلمون، وما يراد بهم، وذلك لأنهم كلما أتوا بجرم وأقدموا على ذنب فتح الله عليهم بابا من أبواب النعمة والخير في الدنيا فيزدادون بطرا وانهماكا في الفساد، وتماديا في الغي، ويتدرجون في المعاصي بسبب ترادف تلك النعم، ثم يأخذهم دفعة واحدة على غرتهم أغفل ما يكون ولهذا قال عمر رضي الله عنه لما حمل إليه كنوز كسرى «اللهم إني أعوذ بك أن أكون مستدرجا فإني سمعتك تقول﴿ سَنَسْتَدْرِجُهُمْ مِنْ حَيْثُ لَا يَعْلَمُونَ﴾ » ][6] .

وأشار الرسول صلى الله عليه وسلم في الكثير من أحاديثه إلى عدم الاستغراق في متع الحياة وتتبع شهوات النفس لأن ذلك يؤدي إلى الغفلة عن سنن الله التي لا تحابي أحدا من هذه الأحاديث قوله صلى الله عليه وسلم: « ..وَلَكِنْ أَخْشَى أَنْ

---

[1] الأعراف: الآية 182.

[2] المومنون: الآية 55-56.

[3] الحجر: الآية 03.

[4] القلم: الآية 44-45.

[5] التكاثر: الآية 1-2.

[6] الفخر الرازي التفسير الكبير ج15 دار إحياء التراث العربي ط3 بيروت-لبنان ص:73-74.

تُبْسَطَ عَلَيْكُمْ الدُّنْيَا كَمَا بُسِطَتْ عَلَى مَنْ كَانَ قَبْلَكُمْ فَتَنَافَسُوهَا كَمَا تَنَافَسُوهَا فَتُلْهِيَكُمْ كَمَا أَلْهَتْهُمْ»[1]

وعلى ضوء هذا التأثير الهائل لمظاهر التسخير ندرك المغزى من تشريع الله لجملة من الأحكام تحفظ التوازن النفسي للإنسان وتمنع الغرائز من التحرر من عقالها، وتبقي قلب المؤمن حيا يقظا يتحسس كل تغير لا يتلاءم مع حقيقة الإيمان، من هذه الأحكام تشريع الصيام ، وعدم الإسراف في مظاهر الحياة، واعتبار الحياة الدنيا مطية للآخرة فلا يتزود منها إلا بقدر مسافة السفر وفي هذا يقول الرسول صلى الله عليه وسلم : «كُنْ فِي الدُّنْيَا كَأَنَّكَ غَرِيبٌ أَوْ عَابِرِ سَبِيلٍ، وَكَانَ ابن عمر رضي الله عنهما يقول: إِذَا أَمْسَيْتَ فَلاَ تَنْتَظِرِ الصَّبَاحَ وَإِذَا أَصْبَحْتَ فَلاَ تَنْتَظِرِ الْمَسَاءَ وَخُذْ مِنْ صِحَّتِكَ لِمَرَضِكَ وَمِنْ حَيَاتِكَ لِمَوْتِكَ.»[2] ، ومما لا ينبغي أن نغفل عنه ونحن نناقش دور التسخير في إحداث وإيجاد الظواهر الاجتماعية، بما تمارسه من استدراج وجذب للإنسان -بفعل ما ركب فيه من غرائز الطمع والشهوات- ذلك الدور الذي يقوم به الشيطان في عملية الإستدراج، لقد أقسم إبليس بين يدي الله عز وجل على أن يثني الإنسان عن دوره الذي خلقه الله لأجله يوم أن أمره بالسجود لآدم إكبارا وتعظيما للمهمة التي كلف بها، فامتنع عن السجود وأعلن العداء والحرب على كل ما هو آدمي أو يمت للإنسان بصلة.

لماذا هذا العداء؟ وما المكسب الذي يجنيه إبليس من وراء غوايته للبشرية؟!

القضية في نظر المسلم واضحة تماما، فعداء إبليس لآدم إنما هو ابتلاء من الله عز وجل لينظر كيف يعمل وكيف يقابل هذا العداء هذا من جانب ومن جانب آخر فلا سلطان لإبليس على الإنسان إلا من قبيل الغواية والتزيين بدليل قوله تعالى:﴿ قَالَ رَبِّ فَأَنظِرْنِي إِلَىٰ يَوْمِ يُبْعَثُونَ قَالَ فَإِنَّكَ مِنَ الْمُنظَرِينَ إِلَىٰ يَوْمِ الْوَقْتِ الْمَعْلُومِ، قَالَ رَبِّ بِمَا أَغْوَيْتَنِي

---

(1) محمد بن اسماعيل البخاري الجامع الصحيح مج4 كتاب الرقائق ح رقم 13 .

(2) محمد بن اسماعيل البخاري الجامع الصحيح مج4 كتاب الرقائق ح رقم 05.

لَأُزَيِّنَنَّ لَهُمْ فِي الْأَرْضِ وَلَأُغْوِيَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ إِلَّا عِبَادَكَ مِنْهُمُ الْمُخْلَصِينَ قَالَ هَذَا صِرَاطٌ عَلَيَّ مُسْتَقِيمٌ إِنَّ عِبَادِي لَيْسَ لَكَ عَلَيْهِمْ سُلْطَانٌ إِلَّا مَنِ اتَّبَعَكَ مِنَ الْغَاوِينَ﴾ (1)

إن غواية الشيطان للإنسان ترتكز ابتداء على مظاهر التسخير، لأن حب الإنسان لمتع الحياة وشهواتها، يدفعه إلى إطلاق العنان لغرائز نفسه، هذه الغرائز هي التي يمتطيها الشيطان للإيقاع به، أدرك الشيطان ضعف الإنسان من هذا الجانب في أول تجربة مع آدم وحواء لما أغراهما بالأكل من الشجرة طمعا في الملك والخلد ﴿وَقَالَ مَا نَهَاكُمَا رَبُّكُمَا عَنْ هَذِهِ الشَّجَرَةِ إِلَّا أَنْ تَكُونَا مَلَكَيْنِ أَوْ تَكُونَا مِنَ الْخَالِدِينَ﴾ (2).

فغريزة الملك والشهوة وغيرها من الغرائز الأرضية والتي يختفي خلفها الشيطان تجعل الإنسان يسقط في أحابيله، ويتخبط في ظلمات الغواية، إلا أن رحمة الله لا تتركه ألعوبة في يد الشيطان يفعل به ما يشاء، فكان بين الحين والآخر يرسل رسلا يعيدون الإنسان إلى جادة الصواب ويوقدون فيه جذوة الإيمان التي حاول الشيطان إطفاءها وينيرون الطريق للعقل ليقوم بدوره في التحليل والاستنتاج والاستنباط، من خلال المظاهر التي جعلها الشيطان سببا للغواية.

إن التسخير من أبرز مظاهر تكريم الله للإنسان إذ جعل كل المخلوقات تنقاد إليه وتأتمر بأمره، وهذا لأجل أن يؤدي وظيفته على أكمل وجه ومن ثم تتحقق الغاية من الوجود الإنساني، وهو الوجه الإيجابي للتسخير، غير أن الأمر يختلف حينما يتحول التسخير من وسيلة إلى غاية ومن سبب إلى هدف حينئذ تتحول هذه المسخرات بأمر خالقها إلى مارد جبار يقهر الإنسان ويحطم كبرياءه.

إن المجتمع والكون في القرآن الكريم، مرسومة معالمه محددة أطره بقوانين سماوية

---

(1) الحجر: الآية 36...42.

(2) الأعراف: الآية 20.

نافذة سماها القرآن "بالسنن"، فالحياة بتصوير القرآن لا تسير هملا ولا خبط عشواء، وإنما وفق قوانين وضوابط ترتبط بأعمال وأفعال الناس، فثمة مبادئ أخلاقية وروحية جعلها الله أسبابا ومسببات تؤدي إلى قيام الحضارة وازدهارها إن روعيت، كما أن فقدانها يؤدي إلى تفكك المجتمع واختلاله، ومن ثم سقوط الحضارة، فللحياة أجل محدد وميقات معين، تنتهي حينما يأذن الله بنهاية الكون وانتهاء مهمة الإنسان عليها ليرد بذلك الأمانة إلى صاحبها ويحاسبه على ما قدم وأخر فيها.

تلك إرادة الله التي لا ترد وقدره الذي لا يقهر ﴿ يَوْمَ نَطْوِي السَّمَاءَ كَطَيِّ السِّجِلِّ لِلْكُتُبِ كَمَا بَدَأْنَا أَوَّلَ خَلْقٍ نُعِيدُهُ وَعْدًا عَلَيْنَا إِنَّا كُنَّا فَاعِلِينَ ﴾ [1]

[1] الأنبياء: الآية 104

# الخاتمة

جامعة الأمير عبد القادر للعلوم الإسلامية

حفل القرآن الكريم . بموضوعات استوعبت جميع مناحي الحياة ، الكونية و الاجتماعية و النفسية و التاريخية ، و لا نبالغ إذا قلنا أنه لا توجد قضية من القضايا أو موضوع من المواضيع لم يشر إليها القرآن الكريم من قريب أو بعيد .

هذه الخصائص و الميزات دفعت بالعلماء في كل عصر و مصر إلى الإنكباب على دراسته و استخراج كنوزه حتى أصبح للقرآن الكريم علوما كثيرة بلغت الثمانين علما [1] .

هذه الخصائص و الصفات التي امتاز بها القرآن دفعتني إلى دراسة كتاب الله غير أن الذي استرعى انتباهي وشدني إليه المواضيع الاجتماعية وخاصة تلك الآيات التي جعلت للاجتماع البشري قوانين ، وضوابط فتناولتها في شكل دراسة أكاديمية قادتني إلى جملة من النتائج أوجزها فيما يلي :

1- القرآن الكريم ليس كتاب هداية فحسب، وإن كانت هي جوهر الدين ولبه، بل هو كتاب تشريع و سياسة واجتماع و تاريخ ...فهو بحق يحوي علوم الماضي والحاضر و المستقبل ما على المسلم إلا أن يتخذ مما ورد في القرآن من إشارات وتنبيهات حقلا للدراسة والبحث ، مستخدما موهبته العقلية في اكتشاف أسرار الله في الكون والنفس والاجتماع بما يعود عليه بالخير و الصلاح و لا يترك غيره يسبقه إلى اكتشافها ثم يدعي أنها وردت منذ كذا من الزمن ...

2-إن الله تبارك وتعالى خلق الكون و الإنسان و الحياة جميعا ، وفق قوانين وضوابط لا تتغير و لا تتبدل لا تعرف البلى و لا التحدي ، فالسير على هداها وفق ما ارتضاه الله يجعل حياة الإنسان آمنة مطمئنة تؤتي ثمارها و أكلها ، كما أن مخالفتها والسير على نقيضها يعود بالوبال و الدمار في الدنيا والخسران في الآخرة لهذا حفل القرءان الكريم بنماذج لمجتمعات سارت على هدى هذه السنن فوصلت إلى ما وصلت

---

[1] جلال الدين السيوطي الإتقان في علوم القرآن دار المعرفة بيروت لبنان ص: 9

إليه من رقي و تحضر و ضرب في الارض ، و مجتمعات أخرى حادت عن الطريق وصادمت سنن الله فكان مصيرها الهلاك والدمار .

3- بينت لنا هذه الدراسة أن الخصائص و السمات التي تتميز بها السنن الكونية هي ذاتها التي تميز السنن االاجتماعية ، غير أن الملاحظ أن العلم الحديث استطاع أن يحول العديد من السنن الكونية إلى صيغ و معادلات رياضية جسدها على ارض الواقع و أحدثت النتائج ذاتها التي تتم على الساحة الكونية ، بينما عجز علماء النفس و الاجتماع و الاخلاق وغيرهم عن تحويل وصياغة الظواهر النفسية و الاجتماعية إلى معادلات و صيغ رياضية كما فعل نضرائهم مع السنن الكونية، فهل هذا يعود إلى عدم وجود هذه القوانين أصلا أم إلى قصور لدى دارسي الإنسان و الحياة الاجتماعية ؟ و الحقيقة أن السبب لا يعود إلى عجز هؤلاء العلماء عن صياغة مثل هذه القوانين و إنما إلى طبيعة هذه السنن و الظواهر ، لأن الزمن الذي تستغرقه الظاهرة الكونية يختلف عن الزمن الذي تستغرقه الظاهرة الاجتماعية و النفسية، فإذا كانت ظاهرة المطر تستغرق لحظات معدودات فإن استجماع عناصر الظاهرة الاجتماعية يتطلب زمنا طويلا قد يستغرق حقبا ، كما أن نتائجها تظهر في الغالب بعد أجيال من زمن التجربة ، هذا الذي دفع بالعديد من العلماء إلى التشكيك في حقيقة هذا القانون وفي أمر هذه السنة ، و من جانب آخر فإن المجتمع الذي هو عبارة عن جملة من الناس تربطهم مصالح مشتركة لا يخضعون لذات الظروف و العوامل مما يجعل أمزجتهم مختلفة و تصرفاتهم متباينة ، و ما يصلح لهذا الانسان قد لا يصلح لغيره من الناس ، غير اننا ننظر إلى هذا الأمر على أنه نوع من الاعجاز الرباني الذي يخرج من الماء الواحد أصنافا مختلفة في الشكل و الطعم و الانتفاع، فكذلك الأمربالنسبة للإنسان فرغم الاختلافات المتواجدة بين بني البشر غير انهم يخضعون لقانون واحد .

4- يقدم لنا القرءان الكريم حقائق دقيقة و مفصلة عن نشأة الحياة الانسانية و الاجتماعية و الوجود الانساني بصفة خاصة ، مما يجعله وثيقة أساسية لأي دراسة

تاريخية ، في حين تذهب الدراسات السوسيولوجية و الانثربولوجية والتاريخية في هذا الشأن مذاهب شتى لا تقوم على أساس علمي سليم ، فيشرون على سبيل المثال إلى الإنسان الأول و يصورونه على أنه بدائي همجي متوحش يحمل كل الصفات الحيوانية ، و للأسف نجد من العلماء و كتاب المسلمين الذين يشتغلون بهذا النوع من العلوم يرددون مثل هذه القضايا و لا يعارضونها على ميزان الوحي و العقل ، في حين نجد القرءان الكريم يقدم صورة مناقضة تماما لما تعرضه هذه المدارس والنظريات .

إن إقصاء الغيب و الوحي بصفة خاصة بحجة الموضوعية العلمية من مفكرة ومراجع علماء الاجتماع و التاريخ أمر غريب و بعيد عن الموضوعية ، ذلك لأن نشأة الإنسان و بدايات الحياة أمر غيبي لا تصل إليها وسائل البحث المعتمدة ، مهما اعطيت من صفة العلمية مما يجعل النتائج المتوصل إليها مجرد تخمينات ورجما بالغيب فكيف يعقل أن نترك الصحيح الناطق المشهود على صحته إلى آراء و نظريات نعرف مسبقا أنها خاطئة و بعيدة كل البعد عن جوهر الحقيقة ، و من ثم نرى ضرورة اعتبار القرءان بل ندعو إلى ضمه ضمن مصادر المعرفة الإنسانية.

5- إن التغيير و التبدل حقيقة قرءانية و سنة أبدية تحكم سيرة الحياة و لا شيء أبدي في هذا الكون إلا خالقه ، فسنة التغيير هذه بكل ما تحمله من مظاهر وأشكال تضفي على الحياة سمة التجدد و الاستمرار و تدفع بالإنسان إلى التفاؤل والأمل و خاصة المؤمن ، لأن الأيام دول فلا يدفعه ذلك إلى اليأس و الحزن والقنوط و إنما تذكي في نفسه شعلة الأمل في نصر الله و استعادة مقود الحياة ، حتى و لو كان في أعتى الظروف ، لأن بعد الليل يأتي النهار و بعد الهزيمة يأتي النصر وبعد الصبر يأتي الفرج و هذه سنة الله ، فلا ينبغي أن يداخله الشك لأن الله وعده

بالنصر في محكم تنزيله شريطة أن يتخذ الأسباب و يترك الباقي على الله سبحانه و تعالى قال الله تعالى :﴿ . . وَعَدَ اللهُ الذِينَ آمَنُوا مِنكُمْ وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَيَسْتَخْلِفَنَّهُمْ فِي الأَرْضِ كَمَا اسْتَخْلَفَ الذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ وَ لَيُمَكِنَنَّ لَهُمْ دِينَهُمُ الذِي ارْتَضَىٰ لَهُمْ وَ لَيُبَدِلَنَّهُمْ مِنْ بَعْدِ خَوْفِهِمْ أَمْنًا يَعْبُدُونَنِي لاَ يُشْرِكُونَ بِي شَيْئًا وَمَنْ كَفَرَ بَعْدَ ذَٰلِكَ فَأُولَٰئِكَ هُمُ الفَاسِقُونَ ﴾[1] ﴿ وَلَقَدْ كَتَبْنَا فِي الزَّبُورِ مِنْ بَعْدِ الذِكْرِ أَنَّ الأَرْضَ يَرِثُهَا عِبَادِيَ الصَالِحُونَ ﴾[2] .

6- من النتائج المتوصل إليها في ميدان البحث الاجتماعي أن أي ظاهرة اجتماعية أو نفسية لايمكن فصلها عن محيطها و الظروف التي انتجتها و الأسباب و المسببات الدافعة إليها .. لأن الإنسان لا يعيش بمفرده و لا بمعزل عن المؤثرات الخارجية " الكونية و البيئية و الروحية " و الحقيقة أن هذه النتيجة هي تجسيد لنظرة القرءان في معالجته للظواهر النفسية و الاجتماعية فليست الأسباب البيئية وحدها هي التي تصنع الظاهرة الاجتماعية و النفسية، فثمة عوامل أخرى خافية عن إدراك الإنسان تسهم بقسط وافر في إحداث مثل هذه الظواهر .

إن هذه النظرة استبعدت من قبل بحجة إبعاد كل الأراء و النظريات التي لا تعتمد على الجانب العلمي المحسوس ، مما جعل نتائج الدراسات التي أجريت بعيدة عن الحقيقة .

يشير القرءان الكريم إلى أن أسباب بعض الظواهر الاجتماعية و نتائجها لا تتوقف على اسباب مباشرة و نتائج لحظية وإنما تعود في أصولها إلى أزمان غابرة ، كما أن نتائجها لا تظهر إلا بعد أجيال و اجيال ، فالبحث عن أي ظاهرة اوحادثة يقتضي العودة بها إلى أصولها و منابتها، من خلال استقراء كتب التاريخ و أثار الماضين ،

---

[1] النور الآية : 55

[2] الأنبياء الآية : 106

لذلك فإن الحياة التي يحياها الانسان و الظواهر الاجتماعية و النفسية التي تحيط به إنما هي نتاج لتراكمات تاريخية و ليست وليدة اللحظة أو العصر ، فالإنسان لا يعيش لحظته الآنية و إنما يمتد في حقيقته إلى أغوار الماضي و سحائب المستقبل فهو بحق إنسان كوني عمره من عمر هذا الكون ، فلا غرو إذ نجد دعوات من هنا وهناك تدعوا إلى ضرورة إعادة النظر في موقع الإنسان الحالي من الكون و الحياة و اعتباره مركزا للكون ،و على ضوء هذا كله ظهر مصطلح الإنسان الكوني الذي هو في حقيقته تجسيد لنظرة القرءان .

7- إن أي تغير و تبدل في طبيعة أي مجتمع و في علاقاته ينطلق إبتداء من تغيير أفكاره و تصوراته و الذهنيات التي تسوده ، و هذا الأمر يبرز جليا من خلال تجربة الإسلام في معركته ضد الوثنية و من دعوات الأنبياء و الرسل السابقين ،و هو الطريق ذاته الذي تنتهجه الحضارة الحديثة في صراعها مع الاسلام لإخضاعه و تكييفه بما يتلاءم مع أفكارها و تصوراتها للإنسان و الكون و الحياة ، نلمس هذا في وسائل الإعلام و ما ينشر من كتب و دوريات و ما تنتجه من أدوات تكنولوجية إلى غير ذلك من الأساليب ، فإذا أراد المجتمع المسلم الوقوف على قدميه من جديد فما عليه إلا أن يجدد تركيبته الفكرية في حدود خصائصه الدينية من منطلق الغالب لا المغلوب كما فعل السابقون رواد الحضارة الاسلامية حينما هذبوا و اقتبسوا من حضارات عدة و أخرجوها للناس حضارة إسلامية فريدة من نوعها في خصائصها و أهدافها و وسائلها .

8 - خلق الله الإنسان و كرمه أيما تكريم ، ولعل ابرز صورة لهذا التكريم أن جعل كل المخلوقات مسخرة لخدمته منقادة إليه من غير وجه ، بما يؤهله ذلك إلى أداء مهمته التي خلق من أجلها على اكمل و احسن وجه ، غير أن هذا التكريم جعله يشعر في الكثير من الأحيان بالقوة و السيطرة مما يجعله ينحرف عن الطريق المستقيم و ارتكاب جملة من التجاوزات تركت أثارا وخيمة على نفسه و محيطه و مجتمعه و تاريخ الإنسانية شاهد عيان على هذه التجاوزات و الخروقات، مما دفع بالعقلاء من

هذا العالم إلى دعوة الإنسان إلى إعادة النظر في مسيرته و دوره و موقعه أصلا من هذا العالم، و العودة به إلى حدود ما تقرره الأديان حتى لا يلبس نفسه ما ليس من طبيعتها فيقع فيما لا يحمد عقباه ، و لن تجد البشرية أفضل من تعاليم القرءان إن هي أرادت فعلا الهداية و الصلاح .

9-لا شك أن دراسة المجتمع الإنساني و تتبع آثار الماضين يوصل حتما إلى تقرير جملة من الحقائق الاجتماعية و النفسية و التاريخية التي دعا القرءان الكريم إلى اكتشافها، من خلال دعوته إلى السير و الضرب في الأرض ، و لا يسعنا أيضا في هذا المقام إلا أن نثني على الجهود الجبارة التي قام بها علماء الاجتماع والأنثربولوجية و التاريخ في تبيان الكثير من الحقائق بل إنهم أفضل من غيرهم في تجسيد نظرة القرءان الداعية إلى الضرب و السير في الأرض من خلال الدراسات والمباحث التي قاموا بها ، و إني لأدعوا علماء الإسلام المهتمين بمثل هذه الدراسات إلى استثمارها بما يخدم صالح الإسلام و المسلمين و الإستعانة بها في تبيان حقيقة هذا الدين حتى يتبين للناس أنه الحق مصداقا لقوله تعالى :﴿سَنُرِيهِمْ ءَايَاتِنَا فِي الْآفَاقِ وَفِي أَنفُسِهِمْ حَتَّىٰ يَتَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُ الْحَقُّ أَوَلَمْ يَكْفِ بِرَبِّكَ أَنَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ..﴾ [1] .

10- إن الدراسات الاجتماعية و التاريخية ليست وليدة اليوم و لا المدروسة "الدوركامية " و لا الحضارة الغربية ، و لا ينبغي أن نقلل من جهود علمائنا ومجتهدينا أو نستحي أن نذكر أسماءهم بل يفرض علينا الواجب أن نحقق الحق ونضع الموازين في نصابها ذلك لأن التقدم الحاصل في ميدان الدراسات الاجتماعية الحديثة يرجع في مجمله إلى ما كتبه علماء المسلمين، و آراؤهم مبثوثة في كتب التفسير و الحديث و التاريخ و غيرها من مراجع الثقافة الإسلامية، و لعل ابن خلدون الوحيد الذي أفرد لهذا العلم بالتصنيف في كتاب مستقل و لعله الوحيد الذي وصل

إلينا إنتاجه العلمي في هذا الميدان ، و للأسف الشديد لم ينل من التقدير و الاحترام القدر الكافي و لم يستغل علماء المسلمين ما ورد في المقدمة من آراء بما يساهم في تطور مجتمعهم ، و المستفيد الوحيد مما ورد فيها هي الحضارة الغربية .

و في هذا المقام أدعو علمائنا و مفكرينا إلى الإنكباب على تراث الأجداد ودراسته دراسة عميقة لعلهم يجدون مصنفات أخر في مقام مقدمة ابن خلدون .

11-و الشيء المؤكد أن البحث عن موضوع السنن و القوانين التي تحكم الاجتماع البشري و حركة المجتمع الإنساني شاق للغاية لأن من طبيعتها الغموض وعدم الوضوح فهي تسري في المجتمع كما تسري الروح في الجسد نحس بها ولكننا لا نعرف مكانها من جسم الإنسان فهذه القوانين و السنن هي روح الإجتماع البشري .

---

[1] فصلت : الآية :53 .

12- مما ينبغي أن نشير إليه أن المجتمع الإسلامي يختلف عن المجتمعات الإنسانية الأخرى ، له مشكلاته الاجتماعية الخاصة ، لذا يجدر بالباحثين و المهتمين بمعالجة المشاكل الاجتماعية و رصد الظواهر الاجتماعية إلى التوقف عن استيراد مشاكل و قضايا المجتمعات الأخرى و أن ينكبوا على دراسة مشاكل و قضايا المجتمعات الإسلامية وفق مناهجنا و أصولنا الفكرية التي رسمها و وضع لبناتها القرءان الكريم و بسطها العلامة ابن خلدون في مقدمته .

إن ما يطلق عليه علم الاجتماع الإسلامي فيه الكثير من المغالطة إذ يوحي ابتداء أن الحضارة الإسلامية لم تعرف قط هذا النوع من العلوم بل هو نتاج الحضارة الحديثة ، و المجتمع الإسلامي ما هو إلا مجتمع مستهلك يكيف منتجات الحضارة الغربية وذلك بإضفاء الصبغة الإسلامية عليها على طراز " علم الاجتماع الإسلامي " غير أن الواقع و التاريخ يشهد و يثبت عكس ذلك فأعمال بن خلدون صورة صادقة عن هذا العلم كما أن منهجه في دراسة المجتمعات الإنسانية حجة على الذين يدعون أنه لا يوجد منهج للدراسات الاجتماعية في الحضارة الإسلامية ، إن مصطلح علم العمران الذي أطلقه ابن خلدون أجده أفضل بكثير من مصطلح علم الاجتماع لأنه يحمل في طياته الغاية من الاجتماع البشري فهو ليس اجتماع لأجل الاجتماع بل وسيلة لتحقيق غاية و هي عمران الأرض وفق منهج الاستخلاف .

13- إنني لا أدعي الإحاطة بما ورد في القرءان بموضوع هذه الرسالة غير أنني متأكد أنني بينت و كشفت عن بعض ما ورد في القرءان من كنوز لا يزال الكثير منها يتطلب العناية و البحث و التنقيب ، و أملي كبير في أن تتوجه أنظار و اهتمامات الباحثين إلى كتاب الله يقرؤونه و يتدارسونه ،كما أدعو الباحثين و المهتمين بالثقافة الإسلامية أن يجعلوا القرءان الكريم مصدرهم الأول في كل بحوثهم و أن لا نعتمد على ما يقوله أو يكتبه غيرنا حول كتاب ربنا و لا نكلف أنفسنا العودة إليه و هو متيسر لنا.

و أخيرا أدعو الله تعالى و تبارك أن يجعل ما ورد في موضوع هذه الرسالة خالصا لوجهه الكريم ، و أن يجعل بقدر حرفها و كلماتها حسنات في ميزان آبائي وأمهاتي و مشايخي و أساتذتي الأحياء منهم و الأموات ، و أن يغفر ما قدمت وما أخرت من أعمال ، إنه سميع مجيب و بالإجابة جدير و صلي اللهم على سيدنا محمد و على آله و صحبه . سبحان ربك رب العزة عما يصفون و سلام على المرسلين و الحمد لله رب العالمين .

# الفهـــــارس

جامعة الأمير عبد القادر للعلوم الإسلامية

## فهرس الآيات القرآنية

| الآية القرآنية | السورة | رقم الآية | الصفحة |
|---|---|---|---|
| « وقال ربك للملائكة إنـــي جـاعل فـي الأرض خليفة .. | البقرة | .30 | .184،77،63 |
| -ولنبلونكم بشيء من الخوف والجوع.. | // | 155 | 174،173 |
| -وما انزل الله من السماء من ماء... | // | 164 | 22 |
| -وقاتلوا في سبيل الله ... | // | .190 | .112 |
| -يا أيـها الذيـن آمنوا ادخلوا في السلم .. | | .208 | .112 |
| -كتب عليكم القتال وهو كره لكم .. | // | .216 | .107 |
| -ولو لا دفاع الله الناس بعضهم ببعض ... | // | .251 | .72،69،65 |
| -ألم تر إلا الذي حاج إبراهيم في ربه.. | // | .258 | .91 |
| -وأنبتها نباتا حسنا ... | آل عمران | .37 | .187 |
| -إن مثل عيسى عند الله كمثل آدم... | // | .89 | .187 |
| -ولأحل لكم بعض الذي حرم عليكم | // | .50 | .43 |
| -فمن حاجك فيه من بعد ... | // | 67..61 | 100 |
| -يا أهل الكتاب لم تكفرون... | // | .71،70 | 100 |
| -ولتكن منكم أمة يدعون إلى الخير... | // | .104 | .62 |
| -قد خلت من قبلكم سنن فسيروا... | // | .137 | .23 |
| -إن يمسسكم قرح فقد مس القوم قرح.. | // | .140 | .117،65 |
| -وما أصابكم يوم التقى الجمعان ... | // | 167،166 | .106 |
| -ولا تحسبن الذين قتلوا في سبيل الله... | | 170،169 | .109 |
| -وإذا حضر القسمة أولو القربى... | النسـاء | .08 | .155 |
| -وخلق الإنسان ضعيفا ... | // | .28 | .82 |
| -ومن يطع الله والرسول ... | // | .69 | .109 |
| -فبظلم من الذين هادوا ... | // | .160 | .44 |
| -يأيها الذين آمنوا لا تغلوا ... | // | .171 | .101،100 |
| -يهدي به الله ..... | المائدة | .16 | .22 |
| -وقالت اليهود والنصارى ... | // | .18 | .102 |
| -قالوا يا موسى إنا لن ندخلها... | // | .25،24 | .58 |
| -واتلوا عليهم نبأ ابني آدم ... | // | 30...،27 | .111،76 |
| -لكل جعلنا منكم شرعة ... | // | .48 | .174،71 |

جامعة الأمير عبد القادر للعلوم الإسلامية

| | | | |
|---|---|---|---|
| -إنما يريد الشيطان أن يوقع ... | // | .18 | .102 |
| -أو لم يروكم أهلكنا قبلهم ... | الأنعام | .06 | .120 |
| -و ما من دابة في الأرض ... | // | .38 | .179 |
| -قل هو القادر على أن يبعث ... | // | .65 | .129 |
| -ولا تأكلوا مما لم يذكر ... | // | .121 | .180 |
| -و ربك الغني ذو الرحمة ... | // | .28 | .120 |
| -و هو الذي جعلكم خلائف ... | // | .165 | .174 |
| -وقال ما نهاكما ربكما عن هذه ... | الأعراف | .20 | .101 |
| -و إلى ثمود أخاهم صالحا ... | // | .37 | .47 |
| -وهو الذي يرسل الرياح ... | // | .58 ، 57 | .175،174 |
| -و لقد أرسلنا نوحا ..... | // | .59 | .46 |
| -و إلى عاد أخاهم هودا ... | // | .65 | .46 |
| -فكذبوه فأنجيناه و الذين معه ... | // | . 64 | .46 |
| -و اذكروا إذ جعلكم خلفاء ... | // | .69 | .128 |
| -و اذكروا إذ جعلكم خلفاء ... | // | .74 | .156 |
| -ولوط إذ قال لقومه أتاتون ... | // | 82،81،80 | .145 |
| -فتولى عنهم و قال يا قوم ... | // | .93 | .49 |
| -و إلى مدين أخاهم شعيبا ... | // | .85 | .47 |
| --تلك القرى نقص عليكم ... | // | 102.،101 | .122 |
| و ألقي السحرة ساجدين... | // | 122..120 | .49 |
| -قالوا أوذينا من قبل أن تأتينا | // | .129 | .121،95 |
| -و اورثنا القوم الذين كانوا يستضعفون . | // | .137 | .58،19 |
| -و جاوزنا ببني إسرائيل البحر ... | // | .138 | .142 |
| -و لما سقط في أيديهم ... | // | .149 | .89 |
| -و اسئلهم عن القرية التي ... | // | .163 | .155 |
| -فخلف من بعدهم خلف ... | // | .169 | .120 |
| -و إذ أخذ ربك من بني آدم ... | // | .173،172 | .141 |
| -و الذين كذبوا بآياتنا سنستدرجهم ... | // | .182 | .199،198 |
| -إذ تستغيثون ربكم فاستجاب لكم ... | الأنفال | .09 | .180 |
| -و اذكروا إذ أنتم مستضعفون في الأرض ... | // | .26 | .60 |

جامعة الأمير عبد القادر للعلوم الإسلامية

| | | | |
|---|---|---|---|
| -ذلك بأن الله لم يك مغير نعمة ... | | .53 | .51،48،34،26 |
| -و إن جنحوا للسلم فاجنح لها ... | | .61 | .112 |
| -وما كان لرسول أن يكون له ... | | .67 | .59 |
| -انفروا خفافا و ثقالا ... | التوبة | .41 | .62 |
| - إن في اختلاف الليل والنهار... | يونس | .6،5 | .183،137 |
| - ولقد أهلكنا القرون من قبلكم | // | 15،14،13 | .130 |
| - ولقد أرسلنا نوح إلى قومه... | هـود | .31...،24 | .88،37 |
| - قالوا يا نوح قد جادلتنا... | // | .32 | .88 |
| - حتى إذا جاء أمرنا وفار التنور... | // | .40 | .23 |
| - ويا قوم استغفروا ربكم... | // | .53،52 | .38 |
| - هو أنشأكم من الأرض واستعمركم... | // | .61 | .158 |
| -وجاءه قومه يهرعون إليه... | // | .79،78 | .40 |
| - ذلك من أنباء القرى نقصه عليك... | // | 103..100 | .122،50،36 |
| - وأقم الصلاة طرفي النهار... | // | .114 | .138 |
| - فلولا كان من القرون من قبلكم... | // | .116 | .20 |
| - وما كان ربك مهلك القرى... | // | .117 | .19 |
| - وكلا نقص عليك من أنباء الرسل... | // | .120 | .17 |
| - حتى إذا استيأس الرسل وظنوا... | يوسف | .110 | .127 |
| - وهو الذي مد الأرض وجعل... | الرعد | .4،3 | 183،53 |
| - إن الله لا يغير ما بقوم حتى ... | // | .11 | .75،51،34،30 |
| -هو الذي يريكم البرق خوفا وطمعا... | // | .13،12 | .176،30 |
| - أنزل من السماء ماء فسالت أودية... | // | .17 | .28 |
| - وما أرسلنا من رسول إلا بلسان... | إبراهيم | .04 | .43 |
| - ألم تر إلى الذين بدلوا نعمة الله كفرا... | // | .28 | .75 |
| - وأنذر الناس يوم ياتيهم العذاب... | // | 34،33،32 | .170،51 |
| - يوم تبدل الأرض غير الأرض... | // | .48 | .32 |
| - ذرهم يأكلوا ويتمتعوا ويلهيهم الأمل... | الحجر | .03 | .199 |
| - لا يومنون به وقد خلت سنة الأولين... | // | .13 | .17 |
| - فإذا سويته ونفخت فيه من روحي... | // | 31،30،29 | .63 |
| - قال رب أنظرني إلى يوم يبعثون... | // | .42...،26 | .201،200،64 |

جهاد الأمير عبد القادر للعلوم الإسلامية

| | | | |
|---|---|---|---|
| – والأنعام خلقها كل في دفئ... | النحل | 5،...،9. | 176،179. |
| – وسخر لكم الليل والنهار... | // | 12،13،14 | 172. |
| –وألقى في الأرض رواسي... | // | 15،18. | 53. |
| –والله أخرجكم من بطون أمهاتكم... | // | 78. | 14. |
| – وضرب الله مثلا... | // | 112. | 123،125. |
| – وجعلنا الليل والنهار آيتين... | الإسراء | 12. | 133. |
| –وإذا أردنا أن نهلك قرية... | // | 16. | 23،63،149، |
| | // | | 150،190. |
| –يسبح له السماوات السبع... | // | 44. | 184،192. |
| –قال أرايتك هذا الذي كرمت... | // | 62،63،64 | 143. |
| – ولقد كرمنا بني آدم... | // | 70. | 184. |
| – وإذا أنعمنا على الإنسان... | // | 83. | 51. |
| – ويسئلونك عن الروح... | // | 85. | 99. |
| – وكان الإنسان أكثر شيء جدلا... | الكهف | 54. | 85،86. |
| – ويجادل الذين كفروا بالباطل... | // | 56. | 71. |
| – قال رب اشرح لي صدري... | طـــه | 25،...،33. | 92. |
| – وقتلت نفسا فنجيناك من الغم ... | // | 40. | 81. |
| – فاتيا فقولا إنا رسول ربك... | // | 47...57 | 93. |
| – أجئتنا لتخرجنا... | // | 57،58. | 94. |
| – لأقطعن أيديكم وأرجلكم... | // | 71. | 95. |
| –قالوا لن نوثرك على ما جاءنا... | // | 72،...،75 | 95. |
| – كذلك نقص عليك ... | // | 99،100. | 122. |
| – بل نقدف بالحق على الباطل... | الأنبياء | 18. | 71. |
| – كل نفس ذائقة الموت... | // | 35. | 155. |
| –خلق الإنسان من عجل... | // | 37. | 56. |
| – بل متعنا هؤلاء وآباءهم... | | 44. | 55. |
| – ولقد آتينا إبراهيم رشده من قبل... | // | 51،52،53 | 47. |
| – ثم نكسوا على رؤوسهم ... | // | 65 | 90. |
| –قالوا حرقوه وانصروا آلهتكم... | // | 68. | 90. |
| – وذا النون إذ ذهب مغاضبا... | // | 88. | 81. |

جامعة الأمير عبد القادر للعلوم الإسلامية

| | | | |
|---|---|---|---|
| - وذا النون إذ ذهب مغاضبا... | | .88 | .81 |
| | الأنبياء | .104 | .205 |
| - يوم نطوي السماء كطي السجل... | // | .106،105 | .207 |
| - ولقد كتبنا في الزبور من بعد... | الحج | .6،5 | .56 |
| -يا أيها الناس إن كنتم في ريب... | // | .28 | .85 |
| - فإن جادلوك فقل الله أعلم... | // | .40...38 | .106،70،64 |
| -إن الله يدافع عن الذين آمنوا... | // | .41،40 | .130،65 |
| -ولولا دفاع الله الناس... | // | .47 | .55 |
| - وإن يوما عند ربك كألف سنة... | // | .73 | .177 |
| -ولقد خلقنا الإنسان... | المومنون | .13،12 | .187 |
| - ثم أرسلنا رسلنا ... | // | ،44 | .122 |
| - فذرهم في غمرتهم حتى حين... | // | .56،55 | .99،57 |
| - إدفع بالتي هي أحسن السيئة... | // | .96 | .138،69 |
| - قال كم لبثتم في الأرض عدد... | // | .114..112 | .55 |
| - ولقد أنزلنا آيات مبينات... | النور | .34 | .123 |
| - وعد الله الذين آمنوا... | // | .55 | 207،127،120 |
| -وجعلنا بعضكم لبعض فتنة أتصبرون | الفرقان | .20 | .151 |
| - وهو الذي جعل الليل لباسا... | // | .47 | .134 |
| - قال فرعون وما رب العالمين... | الشعراء | .24،23 | .74 |
| - قالوا أنومن لك واتبعك الأرذلون... | // | .111 | .101 |
| - لئن لم تنته يا نوح لتكونن... | // | .116 | .88 |
| - أتبنون بكل ريع آية تعتون... | // | 129،128 | .156،155 |
| - كذبت عاد المرسلين... | // | .134..،124 | .39 |
| - كذبت ثمود المرسلين... | // | .147..،142 | .39 |
| - أتتركون فيما هاهنا ءامنين... | // | .150..،146 | .156 |
| - إني وجدت امرأة تملكهم... | النمل | .24،23 | .188 |
| -فتلك بيوتهم خاوية بما ظلموا... | // | .52 | .20 |
| - أينكم لتاتون الرجال... | // | .56،55،54 | .41 |
| - فانجيناه وأهله... | // | .58،57 | .145 |
| - إن فرعون علا في الأرض... | القصص | .05،04 | .95،58 |

جمعية الأمير عبد القادر للعلوم الإسلامية

| | | | |
|---|---|---|---|
| – وابتغ فيما آتاك الله الدار الآخرة ... | // | 77 | 83 |
| – ألم أحسب الناس أن يتركوا... | العنكبوت | 3،2،1 | 71 |
| – ولقد أرسلنا نوحا الى قومه... | // | 14 | 58 |
| – ولا تجادلوا أهل الكتاب... | // | 46 | 100،85 |
| – ظهر الفساد في البر والبحر... | الروم | 41 | 189،51 |
| – الله الذي يرسل الرياح فتثير... | // | 51...48 | 175،31 |
| – ألم ترو أن الله سخر لكم ... | لقمان | 20 | 171 |
| – سنة الله في الذين خلوا... | الأحزاب | 62 | 19...11 |
| – ولقد أتينا داوود منا فضلا... | سبأ | 11،10 | 193 |
| – ولسليمان الريح غدوها شهرا... | // | 12 | 181 |
| – وما أرسلنا في قرية من نذير... | // | 35،34 | 149 |
| – ألم تر أن الله أنزل من السماء ماء... | فاطر | 28،27 | 31 |
| – فهل ينظرون إلا سنة الأولين... | // | 43 | 18،16 |
| – واضرب لهم مثلا أصحاب القرية... | يس | 13 | 123 |
| –وآية لهم الأرض الميتة... | // | 35...33 | 13 |
| – والشمس تجري لمستقر لها... | // | 40..38 | 30،13 |
| – ألم يروا أن خلقنا لهم مما عملت ... | // | 73..71 | 172 |
| – إنما أمره إذا أراد شيئا... | // | 82 | 170،21 |
| – ولقد سبقت كلمتنا لعبادنا المرسلين... | الصافات | 171 | 19 |
| – وجادلوا بالباطل ليدحضوا... | غافر | 05 | 85 |
| – إن الذين يجادلون في آيات الله... | // | 86 | 101 |
| – سنة الله التي خلت في عباده... | // | 85 | 117 |
| – قل أينكم لتكفرون بالذي خلق... | فصلت | 12..9 | 55 |
| – فأما عاد فاستكبروا في الأرض... | // | 17،16 | 195،40 |
| – من عمل صالحا فلنفسه... | // | 46 | 50 |
| – سنريهم آيتنا في الآفاق... | // | 53 | 209،13 |
| – شرع لكم من الدين ما وصى... | الشورى | 13 | 43 |
| – وهو الذي ينزل الغيث من بعد... | // | 28 | 23 |
| – نحن قسمنا بينهم معيشتهم... | الزخرف | 32،31 | 178،102،71 |
| – ونادى فرعون في قومه... | // | 54...51 | 151 |
| – كم تركوا من جنات وعيون... | الدخان | 28 | 120 |

جهد الأفراد لتقادم للعلوم الإسلامية

| | | | |
|---|---|---|---|
| - واختلاف الليل والنهار... | الجاثية | 05 | 134 |
| - وقالوا ما هي إلا حياتنا الدنيا... | // | 24 | 57 |
| - وإذا صرفنا إليك نفر من الجن... | الأحقاف | 29 | 180 |
| - حتى إذا بلغ أشده وبلغ أربعين... | // | 15 | 35 |
| - أفلا يتدبرون القرءان... | محمد | 24 | 85 |
| - وأن تتولوا يستبدل قوما... | // | 38 | 131 |
| - يا أيها الناس إنا خلقناكم من ذكر... | الحجرات | 13 | 158،15 |
| - وذكر فإن الذكرى تنفع المؤمنين... | الذاريات | 55 | 84 |
| - وما خلقت الجن والإنس ... | // | 57،56 | .279 |
| - إن عذاب ربك لواقع... | الطـــور | 08 | 70 |
| - فذكر فما أنت بنعمة ربك ... | // | 45..29 | 97 |
| - أفرأيتم اللات والعزة... | النجم | 21..19 | 142،47 |
| - فدعا ربه إني مغلوب فانتصر... | القمر | 12..10 | 195،129 |
| - ونبئهم أن الماء قسمة بينهم... | // | .28 | 155 |
| - آمنوا بالله ورسوله... | الحديد | 07 | 120 |
| - ألم يان للذين آمنوا أن نخشع... | الحديد | 16 | 59،56 |
| - ما أفاء الله على رسوله... | الحشر | 07 | 116 |
| - لا ينهاكم الله عن الذين... | الممتحنة | 08 | 112 |
| - هو الذي جعل لكم الأرض ذلولا... | الملك | 15 | 172،158،53 |
| - فذرني ومن يكذب بهذا... | القلم | 55..44 | 199 |
| - فإذا نفخ في الصور ... | الحاقة | 16..14 | 32 |
| - إن الإنسان خلق هلوعا... | المعارج | 22..20 | 72 |
| - قال رب إني دعوت قومي... | نوح | 9..5 | 88،37 |
| - والله أنبتكم من الأرض نباتا... | // | 18،17 | 187 |
| -وقال لا تذرن آلهتكم... | // | 24،23 | 141،37 |
| - -وقال نوح رب لاتذر ... | // | 27،26 | 37 |
| - عالم الغيب والشهادة... | الجن | 26 | 109 |
| - وذرني والمكذبين أولي... | المزمل | 11 | 57،55 |
| - ذرني ومن خلقت وحيدا... | المدثر | 11 | 78 |
| - إنه فكر وقدر... | // | 25..18 | 80 |
| - لا أقسم بيوم القيامة... | القيامة | 2..1 | 81 |
| - فلينظر الإنسان إلى طعامه... | عبس | 32..24 | 176 |

جامعة الأمير عبد القادر للعلوم الإسلامية

| | | | |
|---|---|---|---|
| -إذا الشمس كورت ... | التكوير | 9..1 | 32 |
| - والله على كل شيء شهيد... | البروج | .09 | 109 |
| - ولقد خلقنا الإنسان في كبد... | البلد | 04 | 71 |
| - وهديناه النجدين... | // | 17 | 73 |
| - ونفس وما سواها ... | الشمس | 10..7 | 73،63 |
| - إقرأ باسم ربك الذي خلق... | العلق | 6 | 195،51 |
| - ألهاكم التكاثر... | التكاثر | 2،1 | 199 |

جامعة الأمير عبد القادر للعلوم الإسلامية

# فهرس الأحاديث النبوية

| | الحديـــث النبـــوي | الصفحـــة |
|---|---|---|
| 01 | اتبع السيئة الحسنة تمحوها... | 138 |
| 02 | أحلت لي الغنائم ولم تحل لنبي قبلي... | 44 |
| 03 | أخبركم غدا... | 78 |
| 04 | أخشى أن تبسط عليكم الدنيا... | 157 |
| 05 | إذا هم عبدي بسيئة فلا تكتبوها... | 51 |
| 06 | أعطوا الأجير حقه قبل أن يجف عرقه... | 179 |
| 07 | أغزوا باسم الله في سبيل الله... | 83 |
| 08 | ألا إن في الجسد مضغة... | 83 |
| 09 | أن ترى الحفاة العراة... | 197 |
| 10 | إن الشمس والقمر لا ينكسفان... | 133 |
| 11 | إن الشيطان قد آيس... | 196 |
| 12 | إن القرآن قد أنزل على خمسة أوجه... | 123 |
| 13 | إن الله تجاوز عن أمتي... | 51 |
| 14 | إن الله زوى لي الأرض .... | 131 |
| 15 | إن الله يبعث لهذه الأمة... | 62 |
| 16 | إن الله يحب إذا عمل أحدكم عملا ... | 179 |
| 17 | إني أخشى أن يصيبكم مثل ما أصابهم ... | 40 |
| 18 | إني خلقت عبادي حنفاء كلهم... | 141 |
| 19 | أيأتي الخير بالشر... | 154 |
| 20 | سألت ربي ثلاثا... | 196 |
| 21 | فوالله ما أخشى عليكم الفقر... | 200،199،157 |
| 22 | قد كان فيمن قبلكم يؤخذ... | 59 |
| 23 | قرأ عليه القرآن... | 78 |
| 24 | كن في الدنيا كأنك غريب... | 200،83 |
| 25 | لو أن في يد أحدكم فسيلة ... | 193 |
| 26 | لو لا أن قومك ... | 45 |
| 27 | لما صور الله آدم... | 64 |
| 28 | لا تغضب... | 140 |

جامعة الأمير عبد القادر للعلوم الإسلامية

| | | |
|---|---|---|
| 29 | لا يقولن أحدكم... | 58 |
| 30 | المجاهد من جاهد نفسه... | 108 |
| 31 | ما أنا والدنيا... | 83 |
| 32 | ما أوتي قوم الجدل إلا ظلوا... | 86 |
| 33 | ما ظهر الغلول في قوم... | 145،20 |
| 34 | ما من نفس تموت لها... | 110 |
| 35 | من أحيا أرضا مواتا... | 179 |
| 36 | من رأى منكم منكرا... | 62 |
| 37 | من سكن البادية جفا... | 158 |
| 38 | هذه أسماء رجال صالحين... | |
| 39 | من سن في الإسلام سنة ... | 11 |
| 40 | هلم إلى الله ورسوله ... | ١٠٤ |
| 41 | والذي نفسي بيده إن لو تدومون... | 139 |
| 42 | والذي نفسي بيده لو لم تذنبوا... | 137 |
| 43 | يؤذني ابن آدم... | 58 |
| 44 | يا أيها الناس لا تتمنوا لقاء العدو... | 112 |
| 45 | يولد المولود على الفطرة... | 141 |


جامعة الأمير عبد القادر للعلوم الإسلامية

## قائمة المصادر والمراجع

أ ـ الكتب


**القرآن الكريم** برواية ورش المؤسسة الوطنية للكتاب سنة 1981. الجزائر

**" حرف الألف "**

إبراهيم أنيس وآخرون المعجم الوسيط دار المعارف ط2، القاهرة جمهورية مصر

إبراهيم بن علي الوزير على مشارف القرن الخامس عشر الهجري دار الشروق ط 3 ، سنة 1982 دراسة في السنن بيروت لبنان

إبن سعد الطبقات الكبرى دار صادر للطباعة والنشر سنة 1960 بيروت لبنان

إبن العربي المالكي عارضة الأحودي دار الكتاب العربي بيروت لبنان

إبن القيم الجوزية زاد المعاد دار الكتاب العربي بيروت لبنان

إبن منظور لسان العرب دار لسان العرب بيروت لبنان

دار المعارف بيروت لبنان

أبو بكر الباقلاني إعجاز القرآن تحقيق أحمد صقر دار المعرفة ، ط 2 ، بيروت لبنان.

أبو القاسم سعد الله الحركة الوطنية دار الغرب الإسلامي ،ط 4 ، سنة 1992م بيروت لبنان

أبو القاسم محمد حاج حمد العالمية الإسلامية الثانية دار المسيرة .ط2،سنة9197 م، بيروت لبنان

أبو الأعلى المودودي نحن والحضارة الغربية دار الشهاب، سنة 1988،الجزائر

أبي الحسن الأشعري مقالات الإسلاميين تحقيق محمد محي الدين عبد الحميد دار الحداثة بيروت لبنان

أبي الحسن علي الحسين الندوي ماذا خسر العالم بانحطاط المسلمين دار الشهاب سنة 1988 الجزائر

أبي الحسن علي الحسين الندوي بانية لا رهبانية مؤسسة الرسالة ط4، سنة 1986م بيروت لبنان

أحمد بن تيمية مجموع الفتاوى جمع وترتيب عبد الرحمان محمد مكتبة المعارف ابن القاسم سنة 1381هـ الرباط المغرب


جامعة الأمير عبد القادر للعلوم الإسلامية

أحمد بن تيمية السياسة الشرعية في إصلاح الراعي والرعية قصر الكتاب البليدة الجزائر

أحمد بن حجر العسقلاني الإصابة في تمييز الصحابة تحقيق محمد بجاوي دار الجيل ط1، سنة 1992م بيروت لبنان

أحمد بن حجر العسقلاني فتح الباري دار المعرفة بيروت لبنان

أحمد بن حنبل المسند دار الفكر بيروت لبنان

أحمد محمد كنعان أزمتنا الحضارية في ضوء سنة الله في الخلق كتاب الأمة، ط1، سنة 1411 هـ قطر

أحمد محمود صبحي في فلسفة التاريخ دار المعرفة الجامعية، ط3، سنة 1995م، مصر

أحمد مصطفى المراغي تفسير المراغي دار إحياء التراث العربي ، بيروت لبنان

إسماعيل بن كثير أبي الفداء تفسير القرآن العظيم دار الفكر سنة 1986، بيروت لبنان

إسماعيل بن كثير أبي الفداء البداية والنهاية تحقيق مكتب التراث دار إحياء التراث العربي بيروت لبنان

إسماعيل بن كثير أبي الفداء قصص الأنبياء دار الرحاب سنة 1987، الجزائر

إسماعيل عمرقوش الإكتشافات العلمية الحديثة ودلالتها في القرآن الكريم دار الحرمين ، ط1، سنة 1987، الدوحة قطر

أمينة تشيكوا مفهوم الحضارة عند مالك بن نبي و أرنولد تونبي المؤسسة الوطنية للكتاب ، ط1 ، الجزائر

أنور الرفاعي الإسلام في حضارته ونظمه دار الفكر ، ط 3 ، سنة 1986 دمشق سوريا

" حرف الجيم "

الجاحظ أبي عثمان عمرو بن عمر الحيوان تحقيق عبد السلام بن هارون دار الجيل الطبعة سنة 1992بيروت لبنان

جلال الدين عبد الرحمان السيوطي معترك الأقران في إعجاز القرآن تحقيق علي محمد البجاوي بيروت لبنان

جلال الدين عبد الرحمان السيوطي الإتقان في علوم القرآن دار المعرفة بيروت لبنان

جامعة الأمير عبد القادر للعلوم الإسلامية

جمال الدين أبي الفضل بن منظور لسان اللسان "تهذيب اللسان" دار الكتب العلمية ،ط1 ، سنة 1993 بيروت لبنان

" حرف الحـــاء "

حسام الدين الألوسي الزمان في الفكر الديني والفلسفة القديمة المؤسسة العربية للدراسات والنشر، ط1 ، بيروت لبنان

حسن الساعاتي علم الإجتماع الخلدوني دار النهضة العربية للدراسات و النشر، سنة 1980، بيروت لبنان

حسن سلمان النظرية القرآنية وحركة التاريخ مؤسسة الوفاء،ط1، سنة 1986 بيروت لبنان

حسن الشرقاوي الجدل في القرآن الكريم مكتبة المعارف الإسكندرية مصر

الحاكم أبي عبد الله النيسابوري المستدرك على الصحيحين دار الكتاب العربي بيروت لبنان

" حرف الخاء "

خير الدين الزركلي الأعلام دار العلم للملايين ، ط5، بيروت لبنان

" حرف السين "

سعيد جودت حتى يغيروا ما بأنفسهم المطبعة العربية ، ط1، سنة 1990 غرداية الجزائر .

سعيد جودت إقرأ وربك الأكرم المطبعة العربية ، ط1، سنة 1990، غرداية الجزائر.

ساطع الحصري دراسات عن مقدمة بن خلدون مكتبة الخانجي، ط3، سنة 1387 هـ القاهرة مصر

سليمان الخطيب أسس مفهوم الحضارة في الإسلام الزهراء للإعلام العربي، ط سنة 1986 القاهرة مصر

جامعة الأمير عبد القادر للعلوم الإسلامية

سليمان بن الأشعث " أبي داود " سنن أبي داود دار الفكر للطباعة والنشر بيروت لبنان

السيد سابق دعوة الإسلام مكتبة وهبة القاهرة مصر

سيد قطب في ظلال القرآن دار الشروق ، ط11 ، سنة 1986 ودار إحياء التراث العربي بيروت لبنان

" حرف الشين "

شمس الدين الذهبي تاريخ الإسلام وطبقات المشاهير والأعلام تحقيق محمود حمدون دار الكتاب المصري دار الكتاب اللبناني ، ط1 ، سنة 1985

شهاب الدين محمود الألوسي روح المعاني دار الفكر سنة 1978 بيروت لبنان

" حرف الصاد "

صلاح عبد الفتاح الخالدي الشخصية اليهودية من خلال القرآن دار الشهاب سنة 1987 الجزائر

صلاح الفوال التصوير القرآني للمجتمع دار الفكر العربي ، سنة 1975 مصر

" حرف العين "

عبد الباقي بن يوسف الزرقاني شرح الزرقاني على الموطأ دار الكتب العلمية ، ط1، سنة 1990 بيروت لبنان

عبد الحميد بن باديس مجالس التذكير من كلام الحكيم الخبير مطبوعات وزارة الشؤون الدينية ط1 ، سنة 1982، الجزائر

عبد الحميد صديقي تفسير التاريخ ترجمة كاظم الجوادي دار القلم، ط1، سنة 1980الكويت

عبد الحميد محسن المذهبية الإسلامية والتغيير الحضاري كتاب الأمة،ط1، سنة 1404هـ، قطر

عبد الحميد الهاشمي لمحات نفسية في القرآن الكريم مكتبة الرحاب الجزائر

عبد الرحمان بدوي مؤلفات بن خلدون الدار العربية للكتاب ، ط2، سنة 1979ليبيا تونس

عبد الرحمان بن الجوزي زاد المسير في علم التفسير المكتب الإسلامي ، ط2، بيروت لبنان

جامعة الأمير عبد القادر للعلوم الإسلامية

عبد الرحمان بن خلدون المقدمة دار الرائد العربي، ط5، سنة 1982م بيروت لبنان

عبد الرحمان عزام الرسالة الخالدة دار الكتاب العربي ، ط2، سنة 1954م ، مصر

عبد العزيز جاويش الإسلام دين الفطرة والحرية دار الهلال مصر

عبد الغني مغربي الفكر الإجتماعي عند بن خلدون ترجمة محمد شريف إبن حسين دالي الوطنية للكتاب ، المؤسسة سنة 1986، الجزائر

عبد الفتاح محمد وهيبة جغرافية الإنسان دار النهضة العربة للطباعة والنشر ، سنة 1980بيروت لبنان

عبد القاهر أبي منصور التيمي كتاب أصول الدين دار الآفاق الجديدة، ط1، بيروت لبنان

عبد الكريم الخطيب الحرب والسلام في الإسلام دار نجد للنشر والتوزيع ، ط1 سنة 1981م، السعودية

عبد الكريم غلاب صراع المذهب والعقيدة في القرآن الشركة العالمية للكتاب ، دار الكتاب العربي ط1،سنة 1973م، بيروت لبنان

عبد الكريم زيدان السنن الإلهية في السنن والجماعات مؤسسة الرسالة ، ط2، سنة 1991م والأفراد بيروت لبنان

عبد المجيد مزيان النظريات الإقتصادية عند بن خلدون الشركة الوطنية للنشر والتوزيع ، ط1 سنة 1981م، الجزائر

عبد المجيد النجار خلافة الإنسان بين الوحي والعقل دار الزيتونة للنشر ، ط1، سنة 1996 الرباط المغرب

عبد الله بن بهرام " الدارمي " سنن الدارمي دار الفكر بيروت لبنان

عبد الله دراز النبأ العظيم دار القلم ، ط5، سنة 1980م ، الكويت

عبد الله دراز الدين دار القلم ، سنة 1990، الكويت

عبد الوهاب خلاف علم أصول الفقه الزهراء ، سنة 1992م، الجزائر

عباس محمود العقاد الإنسان في القرآن مكتبة الرحاب ، الجزائر

جامعة الأمير عبد القادر للعلوم الإسلامية

عز الدين أبي الحسن " إبن الأثير " الكامل في التاريخ دار صادر للطباعة والنشر بيروت لبنان
عفت الشرقاوي في فلسفة الحضارة الإسلامية دار النهضة العربية ، سنة 1980، بيروت لبنان
عادل نويهض معجم أعلام الجزائر مؤسسة نويهض الثقافية ، ط2، سنة 1980م، بيروت لبنان
علي بن الحسين بن علي " المسعودي " مروج الذهب ومعادن الجوهر دار المعرفة بيروت لبنان
عمر عودة الخطيب المسألة الإجتماعية بين الإسلام والنظم البشرية مؤسسة الرسالة، ط5 ، سنة 1980م بيروت لبنان
عماد الدين خليل التفسير الإسلامي للتاريخ دار العلم للملايين ، ط1، سنة 1975م بيروت لبنان

" حرف الفـــاء "

فتحي يكن الشباب والتغيير شركة الشهاب ، سنة 1989م ، الجزائر
الفخر الرازي التفسير الكبير دار إحياء التراث العربي ، ط2، بيروت لبنان
فهمي هويدي مواطنون لا ذميون دار الشروق، ط1، سنة 1985، بيروت لبنان

" حرف الميم "

مبارك بن محمد الميلي رسالة الشرك وظاهره شركة الشهاب الجزائر
محمد أبو زهرة المجتمع الإنساني في ظل الإسلام ديوان المطبوعات الجامعية ، ط2، سنة 1981،الجزائر
محمد أبو زهرة تاريخ الجدل دار الفكر العربي ، بيروت لبنان
محمد إقبال تجديد الفكر الديني ترجمة عباس محمود مطبعة لجنة التأليف والترجمة والنشر ط2، سنة 1968، مصر
محمد أمزيان منهج البحث الإجتماعي بين الوضعية والمعيارية المعهد العالي للفكر الإسلامي ، ط1، سنة 1981،و م أ
محمد باقر الصدر مجموعة محاضرات " دون معلومات "
محمد بن أحمد الأنصاري " القرطبي " الجامع لأحكام القرآن دار إحياء التراث العربي، ط1 سنة 1981 بيروت لبنان

جامعة الأمير عبد القادر للعلوم الإسلامية

محمد إسماعيل بن إسماعيل البخاري الجامع الصحيح دار الفكر سنة 1981، بيروت لبنان
محمد بن إسماعيل الشافعي أحكام القرآن دار الكتاب العلمية،سنة ،1980، بيروت لبنان
محمد بن جرير الطبري جامع البيان عن تاويل آي القرآن دار المعرفة، سنة 1981 بيروت لبنان
محمد بن جرير الطبري تاريخ الأمم والملوك دار الكتب العلمية، سنة 1980 بيروت لبنان
محمد بن محمد الهادي " أبي السعود " تفسير أبي السعود " إرشاد العقل السليم " دار إحياء التراث العربي، ط2، سنة 1990 بيروت لبنان
محمد بن يعقوب الفيروز أبادي القاموس المحيط دار الكتاب العربي ، بيروت لبنان
محمد بن يزيد " إبن ماجة " سنن ابن ماجة دار الكتاب العربي بيروت لبنان
محمد بن يوسف " أبي حيان " البحر المحيط دار الفكر، ط2، سنة 1983م بيروت لبنان
محمد التومي الجدل في القرآن دار الشهاب ، الجزائر
محمد التومي المجتمع الإنساني في القرآن المؤسسة الوطنية للكتاب " الجزائر الدار التونسية للنشر " تونس " ، ط1، سنة 1981م
محمد جمال الدين القاسمي محاسن التأويل دار إحياء الكتب العربية ، ط1، سنة 1981م بيروت لبنان
محمد جواد مغنية معالم الفلسفة الإسلامية دار ومكتبة الهلال ، سنة 1982 بيروت لبنان
محمد حسين الطباطبائي الميزان في تفسير القرآن منشورات مؤسسة الأعلام للمطبوعات، ط1، سنة 1991، بيروت لبنان
محمد حسين فضل الله الحوار في القرآن المؤسسة الجامعية للدراسات والنشر، ط3، سنة 1985، بيروت لبنان
محمد رشيد رضا المنار دار المعرفة ، ط2، سنة 1987، بيروت لبنان
محمد سعيد رمضان البوطي منهج الحضارة الإنسانية في القرآن دار الفكر ، ط1، سنة 1987م دمشق سوريا
محمد سعيد العشماوي الإسلام السياسي المؤسسة الوطنية للفنون المطبعية، سنة 1990الجزائر

جامعة الأمير عبد القادر للعلوم الإسلامية

محمد الصادق عرجون سنن الله في المجتمع الدار السعودية للنشر والتوزيع ، ط3،سنة 1984 المملكة العربية السعودية

محمد الطاهر بن عاشور التحرير والتنوير الدار التونسية للنشر " تونس " المؤسسة الوطنية للكتاب " الجزائر سنة 1984

محمد عبد الرحمان عبد الرحيم " المباركفوري " تحفة الأحودي بشرح جامع الترمدي دار الفكر، ط2 سنة 1979 بيروت لبنان

محمد عبده تفسير جزء عم مطبعة دار الكتاب ، سنة 1982،الجزائر

محمد عبده الإسلام دين العلم المدنية دار الهلال ، مصر

محمد فريد وجدي الإسلام في عصر العلم دار الكتاب العربي ، ط2، بيروت لبنان

محمد عفيف الزغبي مختصر سيرة بن هشام دار النفائس ، ط6، سنة 1985،بيروت لبنان

محمد علوان مفهوم إسلامي جديد لعلم الإجتماع دار الشروق ، ط1، سنة1983،جدة المملكة العربية السعودية

محمد الغزالي ظلام من الغرب دار الشهاب ، سنة 1986، الجزائر

محمد الغزالي نظرات في القرآن دار الشهاب ، سنة 1986، الجزائر

محمد الغزالي عقيدة المسلم دار الشهاب ، سنة 1986، الجزائر

محمد الغزالي المحاور الخمسة في القرآن الكريم دار الصحوة، سنة 1989، القاهرة مصر

محمد قطب التطور و الثبات في حياة البشرية دار الشروق، ط9،سنة1993، بيروت لبنان

محمد قطب دراسات في النفس البشرية دار الشروق ، سنة 1974، بيروت لبنان

محمد قطب في النفس والمجتمع دار الشروق ، ط11، سنة 1993، بيروت لبنان

محمد المبارك الأمة والعوامل المكونة لها دار الفكر ،ط2، سنة 1975، بيروت لبنان

محمد ناصر الدين الألباني سلسلة الأحاديث الضعيفة مكتبة المعارف للنشر والتوزيع،ط2،سنة 1996م الرياض المملكة العربية السعودية

محمود بن عمر الزمخشري الكشاف دار الكتاب العربي ، ط3، بيروت لبنان

جامعة الأمير عبد القادر للعلوم الإسلامية

مسلم بن الحجاج القشيري صحيح مسلم تحقيق محمد فؤاد عبد الباقي دار الكتاب المصري " القاهرة " دار الكتاب اللبناني " بيروت "

**مالك بن نبي** الظاهرة القرآنية ترجمة عبد الصبور شاهين دار الفكر " دمشق " ، دار الفكر ط3، سنة 1992سوريا الجزائر

**مالك بن نبي** شروط النهضة ترجمة عمر كامل مسقاوي وعبد الصبور شاهين دار الفكر دمشق " دار الفكر " الجزائر " ط3، سنة 1992

**مالك بن نبي** ميلاد مجتمع ترجمة عبد الصبور شاهين دار الفكر " دمشق " دار الفكر " الجزائر " ط3، سنة 1992

**مالك بن نبي** تأملات ندوة مالك بن نبي دار الفكر " دمشق " دار الفكر " الجزائر " ط3، سنة 1992

**مالك بن نبي** مشكلة الثقافة ترجمة عبد الصبور شاهين دار الفكر " دمشق " ، دار الفكر" الجزائر " ط4، سنة 1992، سوريا ، الجزائر

**مالك بن نبي** مشكلة الأفكار في العالم الإسلامي ترجمة أحمد شعبوا وبسام بركة دار الفكر الجزائرسنة 1992، الجزائر

**موريس بوكاي** تاريخ الحضارات العام لجنة التأليف والترجمة منشورات عويدات، ط1 سنة 1964، بيروت لبنان

**محي الدين يحي النووي** صحيح مسلم بشرح النووي دار الفكر، سنة 1981، بيروت،لبنان

**مصطفى صبري** موقف العقل والعلم والعالم من رب العالمين دار إحياء التراث العربي،ط2سنة 1992، بيروت لبنان

**" حرف النون "**

**نبيل محمد توفيق السمالوطي** المنهج الإسلامي في دراسة المجتمع دار الشروق، ط1،سنة 1981 المملكة العربية السعودية

**نبيل محمد توفيق السمالوطي** الدين والبناء الإجتماعي دار الشروق، ط1، سنة 1981 الممكلة العربية السعودية

جامعة الأمير عبد القادر للعلوم الإسلامية

نور الدين علي بن أبي بكر الهيثمي مجمع الزوائد ومنبع الفوائد مكتبة القدسي، القاهرة مصر

* حرف الياء "

يوسف الحوراني الإنسان والحضارة منشورات المكتبة العصرية ، ط2، سنة 1973 ، بيروت لبنان

يوسف القرضاوي الوقت في حياة المسلم دار البعث للطباعة والنشر ، ط2، سنة 1986، قسنطينة الجزائر

ب ــ المجلات والدوريات

أحمد صديق الدجاني " مفهوم الكارثة الطبيعية " مطبوعات الأكاديمية المغربية دورة الكوارث الطبيعية ( ربيع الثاني ، سنة 1988 )المملكة المغربية

جمال الدين عطية "التغيير هو الأصل والإباحة هي الأصل " مجلة المسلم المعاصر عدد ( 22 ، سنة 1980 ) الكويت

جمال سلطان "البناء النفسي للمجتمع في القرآن الكريم" منار الإسلام (ع12 سنة 1977)الإمارات العربية المتحدة

سعيد جودت " السننية أو اللاسننية في واقع المسلمين والإسلام " مجلة الفرقان (ع18 سنة 1409هـ )المملكة المغربية

السيد ياسين " تغيير العالم جدلية السقوط والصعود والوسطية " مؤسسة عبيار سنة 1990

عبد الرحمان قحطان الدوري " التحدي في آيات الإعجاز " مجلة جامعة الأمير عبد القادر للعلوم الإسلامية ( ع: 4 مارس 1993 ) ، قسنطينة الجزائر

عبد العزيز الدوري " فلسفة التاريخ " عالم الفكر مج2 ( ع: 2 سبتمبر 1971) الكويت

عبد العزيز كامل " القرآن و التاريخ " عالم الفكر مج2 ( ع: 11 سبتمبر 1982) الكويت

عزت جردات " نظرة فاحصة في التغيير الإجتماعي " مجلة المسلم المعاصر (ع9 سنة 1977) الكويت

عــاطف العقــلة عضيات " الدين والتغيير الإجتماعي في المجتمع العربي والإسلامي " المستقبل العربي مركز دراسات الوحدة العربية (ع126 ، سنة 1986 ) بيروت لبنان عبد المجيد النجار " الإستخلاف في فقه التحضر الإسلامي " مجلة التجديد ( ع1 ، يناير 1997) الجامعة الإسلامية العالمية ماليزيا

جامعة الأمير عبد القادر للعلوم الإسلامية

محمد الحبيب الخوجة " التلوث وآثاره " مطبوعات أكاديمية المملكة المغربية الدورة الحادي عشر ( مارس سنة 1987 ) ، المملكة المغربية

محمد الطالبي " منهجية بن خلدون التاريخية " مجلة الدراسات التاريخية ( ع : 3 ديسمبر سنة 1980 ) جامعة دمشق سوريا

محمد المبارك " نحو صياغة إسلامية لعلم الإجتماع " مجلة المسلم المعاصر ( ع: 12، سبتمبر سنة 1977 ) الكويت

جامعة الأمير عبد القادر للعلوم الإسلامية

فهرس الموضوعات


| الموضـــــــــــوع | الصفحة |
| --- | --- |
| **شكر وتقدير** | 03 |
| **الإهداء** | 04 |
| **المقدمة** | 05 |
| **الفصل الأول : السنة الإجتماعية** " تحديد المفاهيم " | 10 |
| **أولا : تعريف السنة .** | 11 |
| **ثانيا : أنواع السنة :** | 12 |
| **أ – السنة الكونية .** | 12 |
| **ب – السنة الإجتماعية .** | 15 |
| **ثالثا :** خصائص السنة الإجتماعية في القرآن الكريم | 18 |
| **أ – الإطراد.** | 18 |
| **ب – السببية .** | 19 |
| ج – السنة الخارقة . | 21 |
| **د – الربانية** | 23 |
| **الفصل الثاني : سنة التغيير .** | 25 |
| **أولا :**مفهوم التغيير . | 26 |
| ثانيا : المدلول القرآني للتغيير . | 29 |
| **ثالثا :** البعد الكوني للتغيير . | 30 |
| رابعا : التغيير الإجتماعي. | 34 |
| أ ــ دلالات الكلمات والألفاظ. | 34 |
| ب ــ تنوع وتعدد صورة المجتمع الإنساني . | 36 |
| ج ــ الأحكام التشريعية . | 43 |
| خامسا : أسس التغيير الاجتماعي : | 46 |


جامعة الأمير عبد القادر للعلوم الإسلامية

| | |
|---|---|
| أ ــ الأفكار والتصورات . | 46 |
| ب ــ الإنسان . | 50 |
| ج ــ الزمن . | 55 |
| سادسا :مسار التغيير | 61 |
| سابعا : أشكال التغيير . | 62 |
| **الفصل الثالث : سنة التدافع.** | 67 |
| **تمهيد** | 68 |
| **أولا: تعريف التدافع.** | 69 |
| ثانيا : المدلول القرآني للتدافع . | 71 |
| ثالثا : تدافع الخير والشر . | 72 |
| رابعا : التدافع النفسي: | 75 |
| أ ــ في قصة ابني آدم . | 76 |
| ب ــ نموذج الوليد بن المغيرة . | 78 |
| ج ــ نموذج موسى عليه السلام . | 81 |
| سادسا : منهج القرآن في التخفيف من حدة التدافع النفسي | 81 |
| سابعا : التدافع الفكري : | 85 |
| أ ــ الجدل في القرآن . | 85 |
| ب ــ نماذج من الجدل القرآني . | 87 |
| تاسعا : التدافع المادي . | 105 |
| أ ــ العرض القرآني للتدافع . | 105 |
| ب ــ المسألة الجهادية وموقع القتال فيها . | 107 |
| ج ــ دواعي استعمال السلاح . | 111 |
| **الفصل الرابع : سنة التداول.** | 114 |
| تمهيد : | 115 |


جامعة الأمير عبد القادر للعلوم الإسلامية

| | |
|---|---|
| أولا : تعريف التداول . | 116 |
| ثانيا : المدلول القرآني للتداول : | 119 |
| أ ــ العرض المباشر . | 119 |
| ب ــ العرض غير المباشر . | 122 |
| ثالثا : أشكال التداول في القرآن . | 127 |
| رابعا : الظواهر الكونية . | 133 |
| خامسا : الظواهر النفسية . | 137 |
| سادسا :الظواهر الإجتماعية : | 140 |
| أ ــ ظاهرة الشرك . | 141 |
| ب ــ ظاهرة المشاعة الجنسية . | 143 |
| ج ــ ظاهرة الترف . | 149 |
| سابعا : التداول الحضاري : | 152 |
| أ ــ تعريف الحضارة . | 152 |
| ب ــ الحضارة في القرآن الكريم . | 155 |
| ثامنا : نظرية التعاقب الدوري للحضارات : | 160 |
| أ ــ نظرية ابن خلدون. | 160 |
| ب ــ نظرية مالك بن نبي . | 164 |
| **الفصل الخامس : التسخير .** | 169 |
| تمهيد. | 170 |
| أولا : تعريف التسخير . | 171 |
| ثانيا : المدلول القرآني للتسخير . | 172 |
| ثالثا : أنواع التسخير : | 175 |
| أ ــ عالم الشهادة . | 175 |
| ب ــ عالم الغيب . | 179 |


جامعة الأمير عبد القادر للعلوم الإسلامية

| | |
|---|---|
| رابعا : أسس التسخير : | 182 |
| أ ــ تسخير الله للكائنات . | 183 |
| ب ــ تذليل وانقياد المسخرات للإنسان . | 184 |
| خامسا : علاقة الإنسان بالطبيعة . | 186 |
| سادسا : صراع الإنسان مع الطبيعة في ميزان القرآن . | 191 |
| سابعا : التسخير وعلاقته بالتغيير الإجتماعي . | 194 |
| ثامنا : الاستدراج ودور التسخير فيه . | 198 |
| الخاتمة . | 203 |
| الفهارس : | 211 |
| 1 ــ فهرس الآيات القرآنية . | 212 |
| 2 ــ فهرس الأحاديث النبوية . | 220 |
| 3 ــ قائمة المصادر والمراجع . | 222 |
| أ ــ الكتب . | 222 |
| ب ــ المجلات والدوريات . | 231 |
| 4 ــ فهرس الموضوعات . | 233 |


جامعة الأمير عبد القادر للعلوم الإسلامية